

الإمام عبدالحليم محمود

أَسْئَلَةُ السَّائِلِينَ

الحارث بن أسد الحماسي



دار المعارف

تاريخ مصر

د. محمد عبد الحليم

مقّلة

يُقسم التاريخ - سياسيًا كان أو فكريًا - بفترات تبدو فيها الحيوية الجارفة، وهذه الحيوية تتركز في شخص أو أشخاص نابغين يلقون بأنفسهم في مجرى الحياة الهادئ الوديع، فتضطرب الحياة وتوج، ويعلو موجهها وينخفض، وتصطرع القوتان - قوة الشعب الذي يتبع التقاليد، وقوة المصلحين النابغين - فترة تطول أو تقصر، ثم تنحسر الأمواج وتهدأ الأمور، فإذا بالحياة تأخذ لونًا جديدًا، وإذا بالقيم قد تغيرت، في قليل أو في كثير.

ومهما يكن من شيء، فإن عظماء الرجال - على أي وضع قضوا نحيبهم - لا يتركون هذا العالم إلا وقد تركوا أثرًا لا ينمحي أبد الدهر.

وقد ينشأ النابغة، فيجد نفسه في ميدان المعركة، مختارًا أو مضطّرًا، وتشرع نحوه الأسنة، وتنبه إليه السيوف المهنددة، فيدافع وهاجم، ويغلب أو يُغلب، ويترك، على كل حال أثرًا.

ونشأ المحاسبي، وفي العالم الإسلامي قوتان هائلتان تصطرعان:

١ - أهل السنة، وعملهم الإمام أحمد بن حنبل.

٢ - المعتزلة، ولهم ممثلوهم في البصرة والكوفة وبغداد.

وهذا الصراع بين المعتزلة وأهل السنة، صراع طبيعي، لا يخلو من مثله دين من الأديان.

إنه الصراع الخالد بين النصيين والعقليين.

إنه النزاع الأبدي بين الذين يقولون: إن الدين نص تفسره أسيا ب النزول واللفظة والرواية، والذين يقولون إن الدين نص يفسره العقل ويوضحه.

ويظن بعض الناس - للوهلة الأولى - أنه لا يمكن أن يكون هناك طرف ثالث في هذه الخصومة:

فإلّا تسان إما نصي، وإما عقلي، ولا يحتمل الأمر حلًا ثالثًا.

ونشأ المحاسبي ليعلن هذا الحل الثالث.

لقد هاجم المعتزلة هجوماً عنيفاً، وألف كتاباً خاصاً كان من بين أهدافه الرد عليهم، سماه «فهم القرآن».

لقد رأى في نزعتهم العقلية طغياناً لا يتناسب ومقام العبودية، ورأى أن نزعتهم تحكم العقل في القرآن وتجعله يسيطر على النص، ولو كان الأمر كذلك لكان القائد في الحقيقة وواقع الأمر: هو العقل لا الكتب المقدسة.

وإذا كان المعتزلة قد خدموا الدين خدمات جليلة، تتمثل في دفاعهم المجيد عنه، ورد هجمات أعدائه، وتأيينه منطقياً وعقلياً، فإنه مما لا شك فيه: أن العقل لو ترك وشأنه لا يمكنه أن يتسلل إلى عالم: «ما وراء الطبيعة» فيفسر لنا غامضه، ويوضح لنا من أمره ما انبهم.

لا بد إذن أن يخضع العقل للنص.

ومذهب المعتزلة إذن، لا يسير في عالم: «ما وراء الطبيعة» على النهج الصواب.

هناك إذن: إقراط وتفريط.

والعبودية الحقّة - فيما يرى المحاسبي - هي المنهج الصحيح للوصول إلى المعرفة الحقّة.

■
ودخل المحاسبي المعركة، وسلاحه فيها: عبودية حقة، وإخلاص لآحد
له، وتقوى تغمر كل الجوارح، ومن قبل ذلك ومن بعده: دراسة مستفيضة
للدین؛ وسائله وغاياته، جزئياته، وكلياته.

التقوى والعلم إذن كانا سلاحه في المعركة.
واحتدم النزاع، وكان لابد من أن يحتدم، وتثار الفقهاء على المحاسبي،
وكان لابد أن يشوروا، فقد كان المحاسبي ينهج في درسه نهجاً آخر غير
الطريق العادي التقليدي:
كان يتحدث في الإخلاص، وفي الورع، وفي الزهد، وفي الخشوع
الخالص لله.

وكان يتحدث في هبة الله، وجلاله وعظمته.
وكان يتحدث في محبة الله، والأنس به، والقرب منه.
وكان حديثه عذياً، طلقاً، سامياً، فكانت تخشع له الأفئدة، وتلين له
القلوب، وتسيل له الدموع، ويتذكر الناس ما لله من فضل، فترق قلوبهم،
ويتعاهدون على الاستقامة.
وملأت سمعة المحاسبي أرجاء بغداد، ثم عبرتها إلى جميع أرجاء المملكة
الإسلامية المترامية الأطراف، وكلما أخذت شهرته في الازدياد، كلما كثر
خصومه وشائتوه¹¹¹

ولكنه كان يسير في طريقه ثابت الخطى، لا يعنيه سوى أن يكون الله
راضياً عنه¹¹¹

وتكشفت له الحجب، وزالت عنه المساتير، ووصل إلى المعرفة الحقة،
فأعلن طريقها.

وطريقها ليس حساً يخطئ، وليس عقلاً يضل، وإنما هو:

بصيرة وضاعة، وروح صافية.

واستمرت الخصومة بين النصيين، ويمثلهم الإمام أحمد، والبصيريين، ويمثلهم الإمام المحاسبى، والعقليين، ويمثلهم المعتزلة. ومن غريب الأمر: أن أية قوة من هذه القوى لم تحرّ صريعة، بل بقيت قوية، واستمرت في كفاح ونضال، حتى يومنا هذا.

تسلسلت فكرة المحاسبى، وتمثلت خير تمثيل في الإمام الغزالى، ثم في بقية الصوفية من بعده، حتى كان العصر الحاضر، فكان يمثلها في أسلوب جديد، وتعبير صادق، المرحوم: «الشيخ عبد الواحد محبى» الذى توفى في بداية النصف الثانى من القرن الحاضر.

وتسلسلت فكرة الإمام أحمد، فتمثلت في الإمام: «ابن تيمية» الذى وضع لها المنطق، وأرسى لها القواعد والأصول، واستمرت قوية إلى عهدنا الحاضر، وكان يمثلها المرحوم: «الشيخ رشيد رضا» تمثيلاً قوياً.

وتسلسلت فكرة المعتزلة، راكدة حيناً، وقوية حيناً آخر، حتى كان جمال الدين الأفغانى، فدفعها دفعاً قوياً إلى عالم الظهور. وكان «الشيخ محمد عبده» من أهم العوامل في نشرها، ملطفة خفيفة تكاد تخفى، أو تكاد تلبس ثوب السلفية.

وحمل اللواء من بعده، المرحوم: «الشيخ المراغى» والمرحوم: «الشيخ مصطفى عبد الرازق»، وفكرة «الإمام محمد عبده» تتمثل فيها حقيقة، لا في الشيخ رشيد رضا، كما يظن كثير من الناس.

لا تزال تلك القوى الثلاث تتصارع حتى عهدنا هذا، ونعتقد أنها ستستمر، ذلك: أنها تمثل نزعات فطرية في بنى الإنسان؛ فبعضهم واقعى يتجدد إلى النص، ولا يريد، أو لا يمكنه، أن يسير إلى أبعد منه؛ وبعضهم:

يحفظ بشخصيته، قوية جارفة لا تلين، فهو عقل أو اعتزالي،
وبعضهم: رقيق الشعور، مرهف الحس، ملائكي النزعة، فهو بصيري،
أو صوفي.

نزعات ثلاث، تقوم على فطر مختلفة، وهذه الفطر تستمر في بنى
البشر، ما دام على وجه الأرض أفراد من النوع الإنساني، ومن هنا كان
خطأ هؤلاء الذين يحاربون التصوف، أو الاعتزال، أو النصيين، على أمل أن
يقضوا على اتجاه من هذه الاتجاهات.



روى صاحب «طبقات الصوفية» بسنده، عن الحارث بن أسد
المحاسبي بسنده، أن رسول الله ﷺ قال:

«أنقل ما يوضع في الميزان: حسن الخلق».

ولقد وضع المحاسبي هدفاً له في الحياة يسعى إلى تحقيقه، هو: «حسن
الخلق» لقد وضعه هدفاً يعمل على تحقيقه في نفسه، ووضعه هدفاً يعمل على
تحقيقه في مجتمعه.

أما فيما يتعلق بنفسه، فإنه أخذها بتحقيق صفة العبودية، على أساس
من القرآن الكريم، والسنة الشريفة، لا يحيد عنه.
وإنه ليمر عن شعاره في ذلك، فيقول هذه الكلمة التي تصفه حالاً
ومقالاً:

«إذا أنت لم تسمع نداء الله، فكيف تجيب داعي الله؟

ومن استغنى بشيء دون الله، جهل قدر الله».

ولم يجهل المحاسبي قدر الله، فلم يستغن بشيء دونه سبحانه.

وأما فيما يتعلق بالمجتمع، فإن المحاسبي أخذ في نشر حسن الخلق فيه

بسمته، واتباعه للسنة، وبدروسه التي كانت تفعل الأعاجيب في القلوب، وبكتبه التي تبين حسن الخلق : وسائل وغايات، والتي لا يزال لها إلى الآن أريج عطري، بتجدد على مر الزمن، فيهدى الحيارى، وينير الطريق أمام السالكين.

ولكن من هو المحاسبي؟ وما لنا نتعجل، فنسأل عن المحاسبي في القمة قبل أن نبدأ معه من البداية؟

إنه الخارث بن أسد، وكنتيته: أبو عبد الله.

ولقد نشأ بالبصرة، واستمر بها سنوات لا يتأتى لنا تحديدها في يقين جازم؛ ثم ذهب إلى بغداد، ويبدو أنه ذهب إليها في سن مبكرة، واستقر به المقام فيها.

متى ولد؟

إننا لا نعلم بالضبط تاريخ ميلاده، إذ أن الكتب القديمة التي تحدثت عنه، لم تذكر ذلك، بيد أن الملاحظات ترشد إلى أنه ولد - على التقريب - في العقد السابع من القرن الثاني الهجري.

أما وفاته: فإن الكتب التي أرخت له تحدد سنة ٢٤٣ هـ ثلاث وأربعين ومائتين للهجرة.

وحياته الشخصية لا نكاد نعلم عنها شيئاً، وقد يمكننا أن نقول: «استنتاجاً» إنه قضى طفولته في شيء من اليسر والرخاء، ذلك أن والده حينما توفي ترك ثروة تقدر بسبعين ألف درهم.

ويروى المؤرخون أن المحاسبي حينما توفي والده، لم يأخذ من الثروة شيئاً نورعاً، ذلك أن والده كان يقول بالقدر، أي أنه كان قَدَرِيًّا، يدين

بمذهب المعتزلة ويقول المؤرخون لحياة المحاسبي: إنه لم يستسغ أن يشترك في الميراث توسعاً في تطبيق القاعدة الإسلامية التي تحرم التوارث بين أهل دينين مختلفين.

ولكن المحاسبي - فيما يبدو - امتنع عن ذلك لمجرد الورع، والزهد فيما تجرّه الثروة، وتستتبعه من تفكير فيها، وتدبير لها، وتنمية وحفظ.

هذه الحادثة ترشد إلى أمور؛

الأمر الأول هو: أن أسرة المحاسبي كانت أسرة ميسورة.

الأمر الثاني: هو أن والد المحاسبي كان من الذين اشتركوا في الثقافة الدينية والجدل الكلامي وساهم في ذلك بنصيب، وحلّد المعسكر الذي يقف جندياً في جيشه.

وما من ريب في أن العامة حينئذ لم يكونوا في صف المعتزلة، وما كان الذي يدين بما يدين به المعتزلة يفعل ذلك إلا بعد دراسة واختيار، وأن الطريق التقليدي الذي كان يتبعه الجمهور الأعظم من الأمة إنما هو طريق أهل السنة.

والأمر الثالث: الذي ترشد إليه الحادثة: هو ورع المحاسبي الذي حمله على أن يزهد في الميراث مع حاجته إليه: تورعاً وتقوى.

ونبأ آخر نتبين منه شيئاً عن شخصية المحاسبي يقول الجنيد: كنت كثيراً أقول للحارث: عزّلتني أنسى.

فيقول: كم تقول عزّلتني أنسى؟ لو أن نصف الخلق تقربوا مني، ما وجدت بهم أنسا، ولو أن نصف الخلق الآخر، نأى عني ما استوحشت لبعدهم.

هذه القصة ترشدنا إلى قوة شخصية الإمام المحاسبي، والواقع أن

الظروف والأحوال الثقافية التي أحاطت بالمحاسبى، وموقف المحاسبى منها، وحديث تلاميذه عنه - وإن كان نادرًا - كل ذلك يرشد إلى أنه كان صاحب شخصية إيجابية قوية.

وبما يستأنس به تأييدا للقصة السابقة، وإشارة إلى ما للمحاسبى من شخصية إيجابية قوية، وبيانًا عابرًا عن بعض أساليبه في تأليف كتبه، ما رواه الجتيد أيضًا بقوله:

كان الحارث المحاسبى يحبىء إلى منزلنا، ليقول: اخرج معى نصحر (نذهب إلى الصحراء) فأقول له:

تخرجنى عن عزلتى وأمنى على نفسى، إلى الطرقات والآفات ورؤية الشهوات؟ فيقول:

اخرج معى، ولا خوف عليك، فأخرج معى، فكأن الطريق فارغًا من كل شيء، لا نرى شيئًا نكرهه».

فإذا حصلت معه فى المكان الذى يجلس فيه قال لى:

سلى:

فأقول له: ما عندى سؤال أسأله.

فيقول: سلى عما يقع فى نفسك.

فتتال على السؤالات، فأسأله عنها، فيجيبنى عليها للوقت.

ثم يمضى إلى منزله فيعملها كتابًا.

ترشد هذه القصة إلى أن المحاسبى لم يكن يخشى: «الطرقات والآفات ورؤية الشهوات»، وأنه لم يكن يؤثر العزلة وما فيها من أمن على النفس وعدم تشتيت للفكر، كلا، إنه يجابه الحياة محاولاً السير بها إلى ما يراه حقًا وإصلاحًا.

أما فيما يتعلق بطريقته و التأليف: فإنه يعمل أحياناً على تلبية ما يرغب المتحدثون الإجابة عنه، وهي طريقة حية. إنها استجابة لما يحب المجتمع أن يرى الرأى الصريح فيه، إنها تنصل بالحياة الواقعية. ولم تكن كتبه كلها على هذا السق، فإن بعضها كان إسهاماً في الحركة المقاومة لحركة الاعتزال؛ وكان بعضها حلقات في التخطيط الذى رسمه المحاسبي للإصلاح الأخلاقى فى المجتمع.



على أسا قد تعجلا احداث مرة أخرى، فتحدثنا عن المحاسبي فى انقمة، ولم نتدرج معه تدرجاً طبيعياً. ولنعد إلى المحاسبي أول مقدمه بغداد. كان ذلك فيما يبدو فى سن مبكره نسبياً

وكانت بغداد حينئذ تروج بمختلف التيارات الفكرية: ثقافة يونانية وافدة تريد أن تأخذ حق الإقامة سيدة متعلبة.

وثقافة فارسية يحاول نشرها الفرس بما لهم من تأثير ونفوذ، وبما لهم من مال وثراء، وبما لديهم من ترف فكرى، وبما فى نفوسهم من كبت لزول ملكهم يحاول أن يتنفس - شاعراً أو غير شاعر - فى صورة ثقافة تنافس اشقافة الإسلامية المبعثة

وثقافة عربية مشوبة بثقافات أخرى، تريد أن تجد حلاً للتعرض والتنافس بين مختلف الألوان والأجواء اشقافية.

وثقافة إسلامية بحتة، تجاهد فى أن تفرق بقيادة المجتمع إلى الهداية الربانية والرشاد الإلهى.

وجاء المحاسبي بغداد معلماً ومتثقفاً، أو مستزيداً من العلم والثقافة يتنقى السير على السنن المستقيم.

وأخذ في الدرس في جد واجتهاد؛ فتشعبت به الطرق، وتجاذبت
لثقافات المختلفة، فحاول كل منها، أن تستأثر به وحدها، ولكل منها
مغرياتها، ولكل منها مطلقها.

ووقف المحاسبي مستوعباً، متأملاً، متروياً

هل طال به الوقوف؟

متى خرج من تأمله؟

متى استقر به الاتجاه؟

ذلك ما لا علمه، إذ نظرنا إلى الزمن.

بيد أن المحاسبي، وإن لم يعن بالأريح لحياته، تأريجاً زمنياً، فإنه ترك لنا
أثراً نفسياً، أبان فيه عن بعض أحوال معاصريه، وتحدث فيه عن حيرته
الفكرية، وعن أسسها، وعن كيفية خروجه منها

وهذا الأثر نعتبره، أساساً لكتاب: «المنقذ من الضلال»، راسماً للإمام
الغزالي تخطيطه، وموحهاً له إلى كتابته، بل ورأساً له الطريق في حياته
الروحية.

ولعل التشابه بين هذا النص الذي شتبه الآن، وكتاب: «المنقذ من
الضلال» يجع بعض الناس يستح أن لتشابه قوي بين المحاسبي،
والغزالي في حياتهما. ولنا في ذلك رأى سندكره فيما بعد إن شاء الله

ولأهمية هذا النص بالسبب للمحاسبي ولعصره، وبالنسبة لصلته بكتاب
المنقذ من الضلال صلة وثيقة، نشبهه بأكمله، وإن كان فيه بعض لطول، وقد
كتبه المحاسبي مقدمة لكتابه: «الوصايا» الذي طبع أخيراً بالغاخرة، يقول
المحاسبي - في مفتتح كتابه الوصايا - بعد مقدمة موجزة:

«أما بعد: فقد انتهى إلينا: أن هذه الأمة تفترق على بضع وسبعين
فرقة، منها: فرقة ناجية، والله أعلم بسائرهما.

فلم أزل، برهة من عمرى أنظر اختلاف الأمة، وأتشمس المهاج
الواضح، والسبيل القاصد، وأطلب من العلم والعمل، وأستدل على طريق
الآخرة بإرشاد العلماء، وعقلت كثيراً من كلام الله عز وجل بتأويل الفقهاء
وتدبرت أحوال الأمة، ونظرت فى مذاهبها وأقوالها، فعقلت من ذلك
ما قدر لى.

ورأيت اختلافهم يحرراً عميقاً قد غرق فيه ناس كثير، وسلم منه
عصاه قذيلة، ورأيت كل صنف منهم يزعم أن السحاة فيمن بينهم، وأن
طالك من حالهم ثم رأيت اساس أصفافاً.

فمنهم العالم بأمر الآخرة، لقاءه عسير، ووجوده عزيز.
ومنهم الجاهل: قال بعد عنه غنيمته.

ومنهم المتشبه بالعلماء مشغوف بدنياه، مؤثر لها.

ومنهم حامل علم منسوب إلى الدين، ملتزم بعمه، التعظيم والعلو،
ينال بالدين من عرض الدنيا.

ومنهم متشبه بالنسك، متجر بالخبر، لا غناء عنده، ولا بقاء لعلمه،
ولا معتمد على رأيه.

ومنهم حامل علم، لا يعلم تأويل ما حمل.

ومنهم منسوب إلى العقل والدعاء، مقنود الورع واستقى.

ومنهم موادون: على الهوى يتفقون، ولدنيا يتبادلون، ورياسها
بطلون.

ومنهم شياطين الإنس: عن الآخرة يصدون، وعلى الدنيا يتكالبون،
وإلى جمعها يهرعون، وفى الاستكثار منها يرغبون، فهم فى الدنيا أحياء،
وعن لعرف موتى، بل العرف عندهم منكراً، واسوء معروف. فتفقدت فى
الأصناف نفسى، وضقت بذلك مرعاً

فقصدت إلى هدى المهتدين، بطلب السداد والهدى، واسترشدت العلم،
وأعملت المكر، وأطلت النظر، فتبين لي في كتاب الله تعالى، وسنة نبيه،
وإجماع الأمة أن اتباع الهوى يعنى عن الرشده، ويصل عن الحق، وبطل
المكث في العمى!!!

فبدأت بإسقاط الهوى عن قلبي، ووقفت عند اختلاف لأمة مرتاداً
لطلب الفرقة الناجية، حذراً من الأهواء المردية والفرقة الهالكة، متحرزاً
من الافتحام قبل البيان، والتعمت سبيل النجاة لمهجة نفسى.

ثم وجدت باجتماع الأمة في كتاب الله لممر، أن سبيل النجاة في
التمسك بتقوى الله، وأداء فرائضه، وإورع في حلاله وحرامه وجميع
حدوده، والإخلاص لله تعالى بطاعته، والتأسي برسوله ﷺ، فطبت معرفة
الفرائض والسنن عند العلماء في الآثار، فرأيت اجتماعاً واحتلاقاً ووجدت
جميعهم مجتمعين على أن علم الفرائض والسنن: عند العلماء بالله وأمره،
وأن الفقهاء عن الله، العاملين برضوانه، الورعين عن محارمه، المناسين
برسوله ﷺ؛ المؤثرين لآخره على الدنيا، أولئك يمسكون بأمر الله
وسنن المرسلين..

فالتصت من بين الأمة هذا الصنف المحتجم عليهم والموصوفين، أقفوا
آثارهم، وأقنيس من عندهم، فرأيتهم أقل من القليل، ورأيت علمهم
مندرساً، كما قال رسول الله ﷺ:

«بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً، كما بدأ فطوبى للغريباء»^(١).
وهم: المنفردون بدينهم.

فعظمت مصيبتى بفقد الأدلاء الأتقياء، وخشيت بغته الموت أن يفاجئنى

(١) رواه مسلم وابن ماجه والترمذى والطبرانى.

على اضطراب من عمرى لاختلاف الأمة، فابكمت في طلب عالم، لم أحد
لى من معرفته بذى، لم أقصر فى الاحتياط ولم أن^(١) فى النصيح.
فقيض لى الرءوف بعباده، فومًا وجدب فيهم دلانل التقوى، وأعلام
الورع، وإيثار الآخرة على الدنيا.

ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى، ووجدتهم
مجتمعين على نصيح الأمة، لا يرحون أحدًا فى معصيته، ولا يفسطون أحدًا
من رحمته.

يرصون أبدًا بالصبر على ابأساء والضراء؛ والرصا بالنفضاء، والشكر
على النعماء.

يحببون الله تعالى إلى العباد، بذكرهم أيديه وإحسانه، ويحثون العباد
على الإنابة إلى الله تعالى.

علماء بعظمة الله تعالى، وعظيم قدرته، وعلماء بكتابه وسسته، فقهاء فى
دينه، علماء بما يحب ويكره، ورعين عن البدع والأهواء، تاركين اتعمق
والإغلاء، مبغضين لجدال والمرء، متورعين عن الاغتيال والظلم والأذى،
مخافين لأهوانهم، مالكين لجوارحهم؛ ورعين فى مطاعهم وملابسهم، وجميع
أحوالهم، مجانبين للشبهات، تاركين للشهوات، مجترنين بالبلعة من الأقوات،
متقللين من المباح، زاهدين فى الحلال، مشفقين من الحساب، وجلين من
المعاد، مشغولين بشأنهم، مؤثرين على أنفسهم من دون غيرهم، لكل امرئ
منهم شأن يشتهيه.

علماء بأمر الآخرة، وأهوايل القيامة، وجزيل الثواب، وأليم العقاب،
ذلك أورثهم الحزن الدائم، وهم المضى، فمشغلوا عن سرور الدنيا ونعيمها.

(١) لم أبطله ولم أتوان.

ولقد وصعوا للآداب صفات، وحددوا للورع حدودًا، ضاق لها صدرى،
وعلمت أن آداب الدين، وصدق الورع بحر لا ينجو من لفرق فيه
شبهى، ولا يقوم بحدوده مثلى، فتنين لى فضلهم، واتضح لى مصحهم،
وأيقنت أنهم لعاملون بطريق الآخرة، والمتأسون بالمرسلين، والمصاييح لمن
استضاء بهم، راهادون لمن استرشد بهم، فأصبحت راغبًا فى مذهبهم، مقتبسًا
من هوائدهم، فابلًا لأادابهم، محبًا لطاعتهم، لا أعدل بهم شيئًا، ولا أوتر
عليهم أحدًا.

ففتح الله لى علمًا افتتح لى برهانه، وأبار لى فضله، ورحوب النحاة لمن
أقر به، أر نتحلته، وأيقنت بالغوث لمن عمل به، ورأيت الاعوجاج فيمن
خالفه، ورأيت انتحاله ولعمل بحدوده واحبًا على.

فاعتقدته فى سريرتى، وانطويت عيه بضميرى، وجعته أساس ديقى،
وبميت عليه أعمالى، وتقببت فيه بأحوالى.

وسألت الله عز وجل أن يوزعنى شكر ما أنعم به علىّ، وأن يقوينى على
القيام بحدود ما عرفنى به مع معرفتى بتقصيرى فى ذلك، وأنى لا أدرك
شكره أبدًا..

ووجد المحاسبى نفسه حيث فى معسكر أهل السنة على وجه لعموم،
وفى تيار الصوفية منهم، على وجه الخصوص.

وم يكن المحاسبى ذا طبيعة سلبية، فكان لابد من أن يدحل المعركة،
ودحل المعركة فى قوة قريه، مسيحًا بالعلم والتقوى.

ومن أجل ذلك؛ كان ذا أثر مزدوج.

لقد أثر باعتباره قدوة وأسوة.

وأثره باعتباره عالمًا باحثًا.

أما كتبه فإنها من الكثرة بحيث قدرها بعضهم بمائتي مصنف، حسبما روى السيكي في «طبقات الشافعية»، والمناوي في «الكراكت الدرية». وهذه الكتب - في أغلبها الأعم - إنما هي في هداية النفوس، وترقيى القلوب، والسير بالأرواح إلى عالم الفلاح - إنها في أغلبها في عيم التصوف والسلوك.

يقول التميمي - كما جاء في الكواكب الدرية - عن المحاسبي «هو إمام المسلمين في الفقه، والتصوف، والحديث والكلام». ولقد كتب المحاسبي في هذه العلوم جميعها، بيد أن مسحة الظاهرة، ونزعة الواضحة والكثرة لكثيرة من كتبه، إنما كانت في التصوف والكلام. أما كتبه في الكلام فقد بقي منها أهم كتبه في هذا الموضوع، وهو كتاب «فهم القرآن» حقه وشره حديثاً الدكتور حسين القوثي بدينان. ومنهجه في الكتاب، فهم من عنوانه، إنه كان يرجع إلى القرآن في الرد ويتخذ منه مرشداً وهادياً. ولعل السبب في إهمال كتبه الكلامية وفقدانها - هو حملة الإمام أحمد بن حنبل عليها.

يقول الخطيب البغدادي، في كتابه: «تاريخ بغداد» جزء ٨ ص ١١٤: «وكان أحمد بن حنبل، يكره للحارث نظره في الكلام، وتصنيفه الكتب فيه، ويصد الناس عنه».

ويذكر هذه المسألة الإمام الغزالي في كتابه. «المقصد من الضلال» ويفصل الرأى فيها، ويحسم المسألة بحل موفى فيقول: «لقد نكر أحمد بن حنبل، على الحارث المحاسبي - رحمه الله - تصنيفه في الرد على المعتزلة».

فقال الحارث: «الرد على البدعة قرض».

فقال أحمد: نعم، ولكن حكيت شبهتهم أولاً، ثم أجبت عنها، فهم تأمن أن يطالع لشيعة من تعلق بفهمه. ولا ينفذ إلى الجواب، أو ينظر إلى الجواب ولا يفهم كنهه؟ يقول الإمام القرطبي:

وما ذكره أحمد حق، ولكن في شبهة لم تنتشر، ولم تشهر؛ فأما إذا انتشرت وجوب عنها واجب، ولا يمكن الجواب عنها، لا بعد الحكاية»
أ هـ

ولقد أصاب الإمام التوفيق في رأيه.

وما من شك في أن المعتزلة إذ ذاك كانوا يعملون جاهدين على نشر بدعتهم، وأن بدعتهم كانت معروفة مشهورة

ومهما يكن من شيء، فقد كان الإمامان: أحمد والمحاسبي متعاصرين، وحدث بينهما اختلاف في الرأي، يتعلق بالكتابة في المسائل الكلامية، وحمل الإمام أحمد على كسب الإمام المحاسبي في علم الكلام، فقلّ تداول الناس لها - فيما يبدو - واختفت شيئاً فشيئاً، ولعل بعضها لا يزال موجوداً، ولعل من المحتمل أن يكشف المستقبل عنها كما حدث ذلك بالنسبة لكتاب: «فهم القرآن» على أن رأى المحاسبي في المسائل الكلامية معروف، تحدث عنه الشهرستاني وغيره، ممن كتبوا في المل والنحل، وهو الرأي السلفي، ولم تكن حملة الإمام أحمد عليه، لرأيه وعقيدته، فذلك أمر يتفق فيه الإمامان، وإنما كان إكثار الإمام أحمد عليه للأسلوب والطريقة التي ينصر بها الدين.

وما من ريب في أن ما قام به الإمام المحاسبي في الرد على المعتزلة وغيرهم، من أهل الانحراف، إنما هو في الوقت نفسه، انتصار للإمام أحمد بن حنبل، وتقوية له، وعود على بلوغه غايته رضى الله عنها

أما كتبه في أدب النفس وتركبتها، وفي الإنابة إلى الله، والرجوع إليه
وفي الرعاية لحفوفه، وفي التصوف على وجه العموم، فقد بقي منها كثير
عرفنا منه جملة سالحة لا تزال مخطوطة، وطبع البعض في أوروبا والقاهرة،
وسوريا. ومن كتبه المخطوطة في دور الكتب:

١ - كتاب المسائل في الزهد.

٢ - فصل من كتاب العظمة:

٣ - كتاب في المراقبة.

٤ - أحكام التوبة.

٥ - كتاب العلم.

٦ - كتاب الصبر والرضا.

ومن كتبه المطبوعة :

كتاب التوهم:

أول ما طبع للمحاسبي: « كتاب التوهم » طبع في القاهرة سنة ١٩٣٧ م
وقد عني الدكتور اح. أربري بتحقيقه وكتب مقدمته الدكتور أحمد أمين،
وفي المقدمة يقول عن الكتاب:

« يحا فيه منحى طريفاً يدل عليه اسمه، فلم يقتصر على ما ورد من
لأخبار في الخوف والرجاء، كما فعل غيره، بل استعمل توهمه وبعبارة
أخرى حياله - في وصف شعور أهل الجنة وأهل النار، وما يلقون من:
سعادة وشقاء، ونعم وعذاب، وأسلس لحياله القياد، فتخيل ما تخيل، وصور
ما صور، فهي لوحة جميلة لفنن أجاد ألوانها، أروية رائعة لكتاب جل
مظهرها، وفصل موافقها، وصل لغتها، حتى يؤثر بالحقيقة التي تتصنها في
نفوس القارئ، والسامع، أكبر الأثر وأبلغه ».

رسالة المسترشدين:

«وطبع له في حلب رسالة المسترشدين» حققه وخرج أحاديثه، وعلق عليه، عبد الفتاح أبو غدة».

وعده الرسالة اللطيفة الحجم يوجه فيها للمحاسبي الإرشاد للمسترشدين، الذين يريدون أن يكونوا من ذوي الألباب، العالمين بالله وبأمره... ومهاج ذوي الألباب كما تحدده الرسالة - إنما هو رعايته مصادر الشريعة، من كتاب الله تعالى، وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، وما اجتمع عليه المهتدون من الأئمة، وهذا هو الصراط المستقيم، الذي دعا الله إليه عباده، وقال عز وجل:

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ، ذَلِكَمُ رِضَاكُمْ بِهِ، لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١)

وقال رسول الله ﷺ:

«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ»^(٢).

والرسالة إنما هي إرشادات توصل بعض زاويا هذا المسح، فهي تتحدث عن التوبة والتقوى والخطرات والخوف من الله، والصبر والرصا، وغير ذلك من أحوال اللاتذنين إلى الله، اسالكين له.

(١) آية: ١٥٣ من سورة الأنعام.

(٢) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه، وقال الترمذي

حديث حسن صحيح

كتاب الوصايا:

وطبع له في القاهرة أخيراً «كتاب الوصايا» تحقيق وتقديم:
عبد القادر أحمد عطا

والصوان مكتوب هكذا: «الوصايا» أو الصائغ الدينية، والنفعات
القدسية، لمنفع جميع البرية»

وموضوعه هو موضوع الكتاب السابق، وإن كان على صورة أوسع،
وبأسلوب بين الجدة، وهو أقل تعقيداً وجزالة من أسلوب الكتاب السابق.

كتاب الرعاية لحقوق الله عز وجل:

وكتاب الرعاية: هو أكبر الكتب التي بين أيدينا من كتب المحاسبي،
مخطوطة كانت تلك الكتب أم مطبوعة. وربما لا يوجد فيها فقد من كتبه
ما هو أكبر منه، ويقع في حوالي أربع مائة وسنين صحيفة وهو على كل حال
أهم كتبه في نظر القدماء والمحدثين، حتى لقد عرف به، وإذا لم يذكر أحد
المؤرخين القدماء من كتب المحاسبي، لا كتاباً واحداً؛ فإنه يكون الرعاية،
وهو بالنسبة للمحاسبي، كإحياء علوم الدين بالنسبة للعرابي، وقد حاول
المحاسبي أن يشرح فيه الطريق الذي يحقق الرعاية لحقوق الله تعالى
وقد بلغ في تحليل برعات النفس ونزعات الهوى، حداً لا يجارى، يقول
الأستاذ «مستنيون» عن هذا الكتاب،

إن المحاسبي: سما فيه بالتحليل النفسى، إلى مرتبة، لا يجد لها مثلاً في
الآداب العالمية، إلا نادراً.

وحينما قرأه المرحوم، «لستيع زاهد الكوثرى»، قال معبراً عن حقيقته
ظاهرة:

لقد كان أثر الإمام المحاسبي على الإمام العراقي كبيراً، لقد تبطل
الإمام الفزالي كتاب الرعاية، في كتابه «الإحياء»

المسائل في أعمال القلوب واجوارح:

وقد طبع هذا الكتاب بالقاهرة، فحققه لأستاذ عبد القادر أحمد عطا،
والكتاب بحوث مفصلة في الكلام عن إدخال السرور على المسلم والإسراع
بالعمل والجهار به، وطب الشبهة بالعمل أو لزوم المداراة، والكلام عن
الغرور، والحديث عن النواهل، وأعمال القلوب، والمواعظ المصلوبة،
والجدال المزدول، ولتفويض إلى الله في كل أمور، والحديث عن النفس،
وألوان الغفلة التي تعترها، وحدود النظر الحائر من الحرام؛ رحمة به حديث
عن الشذور.

وأسلوب الكتاب أسلوب علمي تحليلي، يسرى فيه الحماس، ويندو
روح المحاسبي اليقظة المتوثبة.

كتاب أدب النفوس:

وهو كتاب يفهم موضوعه من عنوانه، أنه في أدب النفوس وفيه شرح
المحاسبي الطريق التي ينخذها الإنسان لتهديب نفسه وتركبتها وهو في
رسم هذه الطريق يتبع أسنن الإسلام.

وإذا كان يرسم لطريق فإنه أيضاً يتحدث عن الصفات التي ينبغي أن
يتحلى بها الإنسان حتى يكون في مرصاه من الله وفي نعمة منه.

كتاب فهم القرآن:

ولقد كان يظن، إلى عهد قريب، أن كتاب فهم القرآن قد فُقد، وكان
لأسف عليه شديداً ثم كان السرور حينما أعلن أن الكتاب موجود وحينما

أحرقه الدكتور القوتلى فى ثوب أنيق معلقاً عليه ومقدمًا له وبشره مع كتاب «ماية لعمل» للمحاسبي أيضًا فى مجلد واحد وجزاه الله خيرًا.



أثر المحاسبي فى الفكر الإسلامى :

إن تأثير المحاسبي فى الأجيال التالية له : لا سكر، إنه من الواضح أن تلميذه الأكبر وإن لم يلتق به - كان الإمام الغزالى.

إن الإمام الغزالى، يعترف بأنه قرأ كتب الحارث المحاسبي، قال ذلك فى كتابه : «المقصد من الضلال».

ولقد قرأ أيضًا سيرة الحارث المحاسبي، وتحدث عن الخلاف الذى كان بينه وبين الإمام أحمد بن حنبل.

ثم إنه نقل عنه فى كتابه : «الإحياء» كثيرًا من الآراء والنصوص. وفى كتاب : «الإحياء» يقول عنه الإمام الغزالى، دون محفظ ولا استثناء، هذا التقدير الهائل. «المحاسبي خير الأمة فى علم المعاملة». وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس، وآفات الأعمال، وأغوار العبادات، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه»

هذه الشهادة أو التقدير من الإمام الغزالى، كان له أثر كبير فى كتاب الإحياء، فإن كتاب الإحياء : تضمن تقريبًا كتاب : «الرعاية»، وكلمة الشيخ زاهد لكوثرى، رحمه الله، سبق أن ذكرناها إذ يقول :

«لقد تبطن الإمام الغزالى، كتاب الرعاية فى كتبه الإحياء»

ولكن أثر المحاسبي كان أيضًا كبيرًا قبل الإمام الغزالى، يقول السبكي

عنه :

«عالم لعارفين في زمانه، وأستاذ السائرين، الجامع بين علمي الباطن والظاهر» ويقول الشعراقي عنه:
«إنه: أستاذ أكثر البغداديين».

لقد كان رحمة الله عليه أستاذ أكثر البغداديين، وعالم العارفين في زمانه، وامتد تأثيره إلى الإمام الغزالي، وإلى الصوفية من بعده، واستمر هذا التأثير قرناً فقرناً، واستمر تقدير العلماء الصوفية له قرناً فقرناً، حتى إذا كان القرن الحادي عشر الهجري، وكان المناوي صاحب التآليف الكثيرة المشهورة المعروفة كتب عن المحاسبي في كتابه. «لكواكب الدرية» يقول:

المحاسبي البصري: علم لعارفين في زمانه، وأستاذ لسائرين في أوانه، عالم سار بنا فضله، وصوفي طار ببله، برع في عدة فنون، وتكلم على الناس فأراهم الجوهر المكنون، وأحيا القلوب بوعظه، وشف الأسماع بدر لفظه، تصانيفه مدونة مسطورة، وأقواله مبنية مشهورة، وأحواله مصححة مذكورة، وكان في علم الأصول راسخاً راححاً، وعن الخوض في الفضول حائجاً، ولمخالفين الرائفين قانعاً وناطحاً، وللمريدين مرشداً وناصحاً
قال التميمي:

«هو إمام المسلمين في الفقه، والتصوف، والحديث، والكلام»
وقال غيره:

«له المصنفات النافعة الحجة، بحيث تبلغ نحو مائتي مؤلف، وناهيك برعائه، وكتبه في هذه العلوم، أصول لمن صنف فيها»

وقال في الإحياء:

«المحاسبي خير الأمة في علم المعاملة، وله السبق على جميع الباحثين

عن عيوب النفس، وآفات الأعمال، وأغوار العبادات، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه».

على أن التقدير الذي يجب أن نعيد تسجيله هنا: هو ما كتبه الأستاذ لويس مسيمون عن كتاب «الرعية» في كتابه مصطلحات التصوف».

«إن المحاسبي، سماه بالتخليل اسمي إلى مرتبة لا نجد لها مثيلاً في الآداب العامة إلا نادراً»

رحم الله تعالى، الإمام لمحاسبي رحمه وأسعد، ونفعنا بما تركه لنا من تراث روحي مجيد

البَابُ الأولُ

المحاسبي

- البيئة التي عاش فيها المحاسبي
- التأثيرات الأجنبية
- الأبحاث الخاصة بالمحاسبي
- منهجه في التفسير

البيئة التي عاش فيها المحاسبي

حياته وشخصيته:

ولد المحاسبي في البصرة بالعراق عام: ١٦٥ للهجرة تقريبا (٧٨١ م)، ولكنه قضى جل حياته في بغداد حيث توفي عام ٢٤٣ هـ (٨٥٧ م) ولعل دراسة البيئة التي عاش فيها المحاسبي وإيضاحها يعيننا على تفهم فكر: (أستاذ السائرين).



الإسلام ليس دين العقائد الغامضة:

فآيات القرآن تتحه مباشرة إلى بقلب والروح، ولا تحتاج للحدس في لنظريات التجريدية الضاربة في أغوار ما وراء الطبيعة

والأحاديث الشريفة التي تنير سبل المؤمنين لا يمكن أن يدعى أنها تنشئ أو تسهم في إنشاء مذهب متنافيزبقى جدلي يتناهس فيه هذا وذاك

ولا عجب: فالإسلام بعيد كل لبعد عن النفلسف العقيم، وجوهره إنما هو إسلام الإنسان وجهه لإرادة الله تعالى التي جاء القرآن وتحدث النبي ﷺ تعبيراً عنها، وإيضاحاً لها.

والمبادئ الإلهية فيها يختص بالعقيدة الإسلامية - تستخلص في سر من القرآن والحديث.

والآيات القرآنية التالية تجمل جوهرها:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.. قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾^(١).

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.. أَلَمْ، ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ، وَأُولَئِكَ يُؤْتُونَ بِمَا أُوتُوا بِمَا أُتُوا وَإِلَيْكَ لُزُومٌ وَمِمَّا أُوتُوا بِمَا أُوتُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾^(٣).

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ حَبِيبًا﴾^(٤).

واحدت التالي وحده يحمل - أيضا - جوهر العقيدة والعبادة والأخلاق الإسلامية.. فقد سأل أعرابي رسول الله ﷺ: ما الإسلام؟ فقال:

«أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله. وأن تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم شهر رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً». وهكذا كان تعريف العربي الذي يعتنق الإسلام بأحكام الدين وحدوده أمراً سهلاً ميسراً..

والإسلام معنى بالحياة الخلقية المؤسسة على محافة الله. والخشوع له.

(٣) النساء: ١٣٦

(١) سورة الإخلاص.

(٤) النساء: ١٢٥

(٢) سورة البقرة - الآيات من ١ - ٥

والمسلمون يخشون الله القدير، ويتفنون العقاب الذي يزلّه بمن يعصى أمره.

والقرآن بقص عاقبة هؤلاء الذين خرجوا عن طاعته، ويحسروا في العديد من آياته من مخالفة المبادئ الأخلاقية ومن غضب الله.

وتصوير جهنم فيه يبلغ من القوة حدًا لا يستطيع معه المتأمل فيه إلا أن يتحاشى ما يؤدي إلى غضب الخالق أو يخرج على شريعته - كذلك، فإن تصوير نهاية العالم ويوم البعث والشور في القرآن، لا بد وأن يثير القلق في النفوس الميالة إلى الشر من مغبة أعمالها.

يعول أحمد أمين في تقديمه لكتاب التوهم للمحاسبي:

«وكتاب التوهم كتاب طريف في بابه، قد بني على أساس في الدين والتصور معروف، وهو الخوف والرجاء، أو للرعب والترهب، وقد بوء هذا الأساس القرآن الكريم، فقد حوف حتى أروع، فقال تعالى: ﴿إِنْ يَطْشَ رَبُّكَ لَشَدِيدٌ﴾^(١).

وكان من قبيل الترهيب ما ورد فيه من وصف النار وعذابها وعظائنها.. وفي الصحيحين عن أنس قال:

«حطّب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، فقال: لو علمون ما أعيد لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، فغطى أصحاب رسول الله وجوههم ولهم خنين»^(٢).

ولهذا، فمن لاهل أن نفهم كيف يبكي المؤمنون خشية عند تلاوهم القرآن، وكيف يكون القرآن التقوى والورع..

(١) آية ١٢ من سورة البروج

(٢) الخنيز: بكاء مع انتشاق الصوت من الأنف

ولهذا - أيضا - بقدر كيف كان أبو بكر - رضى الله عنه - يود لو أنه خلق طيرا، بينها عمر يود لو أنه خلق عود قش^(١) أما الحسن البصرى فكان يود أن لم يخلق أبدا.

ولكن، ليس هذا كل ما فى القرآن.. فالخوف وحده يذهل الناس من التفكير فى أمر الجماعة الإسلامية، ويصرفهم عن العمل على تحقيق ما يدعو إليه نبي الإسلام، ولذلك فإنه إلى جانب الآيات السابق ذكرها تكثر أيضا الآيات التى نبث الأمل فى النفوس وتصور الجنة أبدع تصوير.. بل إن آيات الوعيد فى القرآن، مقرونة فى غالبها بآيات الترغيب. فالله القادر على العقاب هو أيضا إله الرحمة والحنان، وإلى جانب الجحيم بثرائه الملهمة تفتح أبواب الجنة، يقول أحمد أمين عن القرآن الكريم:

«وقد أمل حتى طمان فقال: ﴿قُلْ يَا عِبَادِى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾»^(٢) وفى الصحيحين أيضا أن رسول الله ﷺ قال:

(من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألناها إلى مريم، وروح منه والحنان والبار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل).

والآيات التالية خير بيان لما قدم:

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْنَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي

(١) المحاسنى: كتاب الرعاية لمعوفى الله والقيام بها.

(٢) ليه ٥٣ من سورة الزمر

الْوُجُوهُ يَشُورُ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا^(١).

﴿يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ، يَوْمَ لَا يُعْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ، إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ، إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ، طَعَامُ الْأَيْمِ، كَأَلْهَرٍ يَتَلَى فِي الْبُطُونِ كَعَلَى الْحَمِيمِ، حُدُوهَ فَأَعْيَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ، ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ، ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ، إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ، إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ، كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ، يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ، لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَّاهُمْ عَذَابَ الْحَمِيمِ، فَضَلًّا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ﴾^(٢)

وفي القرآن غير الآيات السابقة الكثير الذي لا يقل عنها وعدًا ووعدًا.

ولقد اتبع الصوفية - ونخصر بالذكر منهم لمحاسبي - المنهج القرآني في الدعوة، وسوف تعرض فيما بعد لهذا الموضوع تفصيلاً، ويمكنني هنا بإنبات أن هذا المنهج قد أتى بحبر الشار في جذب القلوب إلى الإيمان. كان الناس في فجر الإسلام تبيض صدورهم بأسعوى، وخشيته الله، وبالأمل في الدنيا والآخرة، ولا يعيرون دقائق مسائل لفلسفية اهتماماً يذكر.

لم يكن مخطر في باهم، أن يتساءلوا عندما ينأملون في الله تعالى، كيف؟
أو: لماذا؟

(١) الكهف آية ٢٩

(٢) آية ٤٠ - ٥٧ من سورة النحل.

كانت عقيدتهم البسيطة تتلخص في خشية الله وتقواه، وفي الأمل في رحمته، وإذا ما جئنا لبعض إبي الخروح عن الطريق لسوى كانت صلابته أى بكر أو ذرة عمر كعبه برده إلى الصواب.

هذه البيئة الدنية يربها لأشدها، كانت وسوف تبقى أبداً المثل لأعلى للمجتمع الإسلامى، ومن يمارى مسلم فقط في أن خير اليهود وأعمها برأ وتقوى، كانت زمن السبي والخلفاء الأول.

عرضنا ما تقدم لبرزه ما طرأ على لإسلام في أعقاب فخره هذا من تيارات عاصرها المحاسبي، تيارات كانت من الأسباب الأولى لرد الفعل الصوفي الذي اردد تحملاً بزيادة تأثيراتها على الفكر الإسلامى ومجتمع المسلمين.

وبل هذا يعيننا في إدراك ما أراده المحاسبي، وما عمل من أحله، وهو المفكر الذى حتل مكان صدارة بين الرعل الأول من صوفية الإسلام.

كان مولد المحاسبي في مغرب خلافة المهدي، وهو من أوئل الخلفاء العباسيين، وكان قد بلغ من عمر خمس سواب، عندما تولى الخلافة: هارون الرشيد، وكانت الأمة الإسلامية حينئذ غنية بالمفكرين البارعين، وخاصة في رحاب العاصمة بغداد.

نذكر منهم على سبيل المثال:

مالك، المتوفى سنة ١٢٩ هـ.

وأبو يوسف: المتوفى سنة ١٨٢ هـ.

وابن الحسن: المتوفى سنة ٢٠٤ هـ.

والشافعى: المتوفى سنة ٢٠٤ هـ: في الشريعة.

وتذكر منهم:

العلاف: المتوفى سنة ٢٢٦ هـ

والعظام: المتوفى سنة ٢٣١ هـ

والجاحظ: المتوفى سنة ٢٢٥ هـ: في الإلهيات والأدب

وأبو نواس: في الشعر.

والكرخي، والحافى، وذو النون في التصوف

ولا ننسى عدو المعتزلة للدود الإمام ابن حنبل: المتوفى سنة ٢٤١ هـ.

وبجرد ذكر هذه الأسماء يكفى للدلالة على عمق الحياة الفكرية في هذه

الفترة.

وإننا لندهش عندما نتصفح كتاب المهرست، لكثرة الكتب التي ألفت،

أو ترجمت، سواء أكنّا بصدد الطب أم بصدد الفلك، وسواء أكنّا بصدد

الدراسات المادية أم الروحية، فإن الدراسات والبحوث تسير في حماس

بالغ متواصل.

إننا نشير بذلك إلى الفوارق بين البيئة الدينية في هذا العصر الذي أخذ

في الدراسة الدقيقة المعقدة، فابتعد في حو لعقيدة الإسلامية عن الروح

السهلة التي سادت في بيئة فجر الإسلام..



لم يهتم المحاسبى بالعلوم المادية أو العلوم البحتة التي يبس من ورائها

تهذيب أو إصلاح للنفس، ولم تدخل هذه العلوم في مجال تفكيره وتأملاته،

وإنما استغل قلبه بكل ما كان من الأمور التي تتعلق بالبيئة الدينية.

فعاداً كانت عليه تلك البيئة؟ أو على الأصح: ماذا كان في تلك البيئة

من عوامل أثارت ثائرة الضمائر الثقية، وأنبئت هذا القدر الوافي من

المتصوفين؟

لهذا كانت يثمه بأفقه اعتقيد، ودات مفارقات كثيرة
 لم تخل من مدعى الألوهية على غرار «يا بك الحراساني»^(١) لدى
 وصلت أصداء الحدل بين أنصاره ومؤيديه حتى بغداد.
 ولم تخل من الشيعة المتطرفين الذين يرفعون علياً إلى درجة الإله، ومن
 الشيعة المعتدلين، الذين برغم اعتدالهم يعتبرونه أرفع درجه من بني
 البشر، وأحق بالخلافة من الخلفاء الثلاثة الأول.
 وكانت تعص بالفرق الدينية إلى حد أحصيت معه ثلاث وسبعين،
 طبقاً من مؤرخي الملل ولحن الحديث المعروف.

والذي يهنا على الأخص من كل هذا هو شأن الفريقين الدينيين
 لدين دخل في جدل عيف بالغ لعنف، وانقسمت الأمة من ورائها حزبين،
 وانتهى الخلفاء أنفسهم إلى التدخل تأييداً لفريق منها أو للآخر.
 وعلى سبيل المثال، كان الخليفة المأمون نفسه يكتب ويبرهن، ويقدم
 الحجة دفاعاً عن أحد لفريقي، بينما يرمى بأنصار الفريق الآخر في
 غياهب السجون.

هؤلاء كانوا: المعتزلة من ناحية، وأهل الحديث من الساحة الأخرى.
 وقد نسير إلى القول بأن هذا الخلاف يكاد يكون خلافاً طبعياً. كل من
 يجد في نفسه ميلاً إلى الفلسفة والفكر الخاص فهو معتزل. وكل إنسان
 يحافظ بحترم البصوص ولا يقبل اسفكير الخاص فهو من أهل الحديث.

وكانت جماهير الأمة بطبيعة الحال في جانب أهل الحديث
 وبدأ الصراع في بداية عهد الخلفاء الأمويين، ولكنه لم يبلغ ذروته إلا في

(١) الفهرست لابن اسديم ص ٤٨٠ ص ٤٨٣ ط القاهرة ١٣٤٨ هـ.

خلال الفترة التي عاشها المحاسبي، عندما دخل في حلبة المعركة ضد المعتزلة العنيد، أحمد بن حنبل.

وتاريخ الفريقين لا يمتد هنا، وكذلك عرض آرائهما تفصيلاً، فسوف نتناول تلك الآراء في الفصول الخاصة بالنظرية الدينية، ولكننا نريد على الأخص إيضاح التعارض، بين هذه البيئة التي عاش فيها المحاسبي، وبين بيئة عصر الإسلام الأول.

ولقد رأينا كيف بلغت تقوى الله وبساطة لعقيدة أرفع الدرجات لدى المسلمين الأول، وكيف وصلت لروح الدينية إلى القمة في بيئتهم ولا غرو أن كانت تلك البيئة غاية رجاء لضماير المتدينة. على المكس من ذلك - في عصر المحاسبي - اندفع المعتزلة إلى النظريات المجردة في الإلهيات، وأرادوا - فيما زعموا - تصحيح مفهوم الإله، وفي رأيهم أن المفهوم الديني لدى الجمهور مفهوم فاسد يجب تصحيحه، وراحوا يعملون في سبيل هذه الرأي واستخدموا المنطق، وكانوا أهل منطق يوناني محيدين، وتحمسوا لفكرة لتطهير، فلم يتورعوا عن إثبات النتائج العجيبة لمطلقهم هذه، وادعوا أنها غاية لفكر الرفيع. وإن بدت لجماهير الأمة ولأهل الحديث، وللمتصوفين، تناقضات وبدعاً وكفرًا كانت بعض هذه النتائج تقول:

«إن خالقيه الله قد انتهت إلى حد لا يقدر أن يخلق شيئاً آخر».

وكانت تقول:

«إن العبد قادر على أشياء لا يقدر الله عليها».

وتقول: «بمحبة على الله أن يعمل لعبده ما هو خير له»^(١).

(١) اعتقاد من مسلمين لفخر بن عبد الرزاق ط الطاهر سنة ٩٣٨.

ولقول بمثل ذلك - والقاتلون به من قادة الفكر - كان أمراً لا يقبله صميم ديني مشيع بخشية الله ونقواء. خاصة وأن الأمر لم يقتصر على تلك المقولات.

فالإله في تصوير المعتزلة ليس له من صفات، إنه لا يمكن أن يرى، ولا يمكن أن يلمس... وهو ليس إلى أعلى، وليس إلى أدنى، وليس في اليمين ولا في اليسار، وليس له يد أو عين.

ولقد صاح رجل من الناس عند سماعه لهذه النظريات على لسان أحد المعتزلة:

«لعل هؤلاء أن يزعموا بعد ذلك أن إله في السماء».

وهذا الرجل - ولا شك - كان يعبر عن مكنون رأى جماهير لأمة، وعندما انتهت المعتزلة في هذا شأن إلى تطهير مفهوم الله بزعمهم اندفعوا بحماسهم إلى مجال آخر، إلى أصحاب النبي ﷺ، هؤلاء الذين قال عنهم:

«أصحابي كالتحوم بايهم اقتديتم اهتديتم».

هؤلاء الصفوة الذين يوليههم لجميع أرفع مقامات الاحترام، والذين تروى في مناقبهم أحداث لا تحصى ولا تعد، سواء منها الصحيح أو لمؤلف عن طيب قصد.

فماذا فعل بهم المعتزلة؟

لقد اندفعوا في المحوم عليهم، وانتقاد أعمالهم، والتهجم على سيرتهم، وكان هذا العمل - في حد ذاته - غاية في الإثارة، فما باله وهو طرف من أطراف عديدة في نسيج أعم وأشمل.

وكان أيضاً - في حد ذاته - كافياً لإثارة إسان بلغ من رقة الإحساس ما بلغه المحاسبي الذي كان يخشى الله ويتقيه ويحبه، والذي كان يقول عن

أصحاب النبي ﷺ: إنهم سرح الأرض ومصاييحها، وزهرة الدنيا وزينتها،
 يقدمون بالفصل على خواص الأمم السالفة، واسامون عداً بالطاعة في
 الآخرة خفف الأنبياء عليهم السلام، وأثمة الحق، وحمية العلم، ومعادن
 الحكمة، ومناهل التقوى، والقوام بأركان الدين وشرائعه، لذين بين الله عز
 وجل فضلهم بباطن الحكمة على لسان نبيه ﷺ، فقال عز وجل:
 ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ، تَرَاهُمْ
 رُكُوعًا سُجَّدًا، يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا، سِيمَاءُ هُمْ فِي وَجْهِهِمْ مِنْ أَثَرِ
 السُّجُودِ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ خَشْيُكَ لَكَ مِنْ أَتْبَعِكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢).
 وقال عز وجل: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ
 الشَّجَرَةِ﴾ (٣).

فمدح أصحاب رسول الله ﷺ، في مواضع كثيرة من كتابه، وهم أفضل
 أهل الأرض بعد الأنبياء عليهم السلام، وأعمالهم أفضل لأعمال
 وشرفها، ومقاماتهم أرفع المقامات وأعلامها، ولذلك قال النبي ﷺ:
 «لو أبق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصفه».

وقال النبي ﷺ:

«خير أمتي أولها».

وقال ﷺ:

«خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم».

(١) آية ٢٩ من سورة الفتح

(٢) آية ٦٤ من سورة الأنفال

(٣) آية ١٨ من سورة الفتح

وقال ﷺ:

«إن الله أحقر أصحابي على جميع الأمم».

وقال ﷺ:

«خير الناس القرن الذين بعثت فيهم».

وهذا يكثر في السنة عن رسول الله ﷺ.

وهذا ما كن يذكره المحاسبي عن الصحابة مضيئاً إليه أن الأحاديث في شأنهم كثيرة، وكان شهد لأحدهم - وهو أبو بكر - بأنه أدى الأمانة التي عهد بها بمثل ما أدى الأنبياء أماناتهم..

وفي جانب الآخر، كن أهل الحديث أهل اتباع محافظون، يسرون على نهج لتفسير الذي يكاد يكون حرفياً للتصوص - ولا يستطيعون - وذلك في رأي الصوفية على الأقل - النفاذ إلى الروح العميقة للكلمة الإلهية ولحديث لبوي، فلا يرون فيها سوى الثوب الخارجي، رغم حماسهم البالغ وصلاتهم.

كن هناك إذن في جانب مريق يزرع إلى لفلسنة، بل يعال في انتفلسفه وفي الجانب الآخر مريق النصيين..

وعلى القريبين ثارت المضائير لدينية الرقيقة، ومنها نسا كل هؤلاء الصوفية في ذلك العصر، وكان المحاسبي من الأممهم.

ولسوف نحد في أسيئة لاجتماعية والبيئة الدينية اللتين عاش فيهما محاسبي سبباً آخر لاردهار التصوف، ولكن علينا قبل ذلك أن نزيل شيئاً من اللبس الذي قد ينشأ من حديثنا السابق.. ذلك أننا جعلنا لصوفية في موقف الاستقلال تجاه أهل الحديث..

وهناك بعض العلماء يقرب بين الاتجاهين والواقع أن لصوفية أقرب.

في كثير، إلى أهل الحديث منهم إلى المعتزلة، وإتينا ليجد بين صفوف الصوفية بعض المحدثين، وتفرقتنا إذن إنما هي بين لصوفية والمحدثين الشكليين أو من يسمون بالحنويين.. ذلك أن ميولها كانت معارضة مثلها يتعارض أهل الشكل وأهل الروح، ومثما يتعارض المتشددون وأهل الرفق واللين.. قالصوفية - على النقيض من أهل الحديث الشكليين - يستطيعون بما أوتوا من إدراك عميق لأسرار القلوب أن يتفهموها، وينفذوا إلى عللها ويحددوا لها المعاذير.. وكلمة العلاج عند قتله معروفة ولا زالت حير البرهان على ذلك: «اغفر لهم» -.

وبالإضافة إلى ذلك فإن أهل الحديث لحنويين كانوا أعداء الصوفية عبر التاريخ.. يقول الأستاذ ماسينيون متحدثاً عن المحاسبي: «ومنذ عام ٢٣٢هـ - ٨٤٦م اضطر إلى التوقف عن التدريس بسبب رد الفعل العنيف الذي كان محرم كل اتصال بعلم الكلام، ولو جاء الأمر من رجال مثل المحاسبي لم ينجسوا لأساليب المعتزلة في المنطق والجدل إلا ليقاوموهم».

أما السبب الآخر في نشأة الكثير من المتصوفة فهو ما سميته هنا بـ (الصراع) - الصراع العنيد من أجل السيطرة السياسية وأيديئية، أو من أجل لقضاء على العفبات التي تحول دون المذاقات، تلك التي وجدت تربتها الخصبة مع الفتوحات الجديدة.

أما في المجال السياسي، فقد كان الصراع بين الفرس والعرب يريد فيه كل فريق أن يكون له اليد العليا في أمور الدولة، وخدمت بسببه لمؤامرات والدسائس في بلاط الخلفاء.

كذلك كان هناك صراع الشيعة للقضاء على الخلافة القائمة بمسها. وهو صراع صامت حفي ولكنه بالغ النشاط..

وأما في المجال الديني فالأمموف أكثر تعقيداً.

كان لمعتزلة يريدون السيطرة، وكان أهل السنة يريدون السيطرة، وكان الخوارج يريدون السيطرة، كما كانت كل العقائد الدينية التي بدت وكان الإسلام قضى عليها - تتربس في أثواب جديدة، وتصبو هي الأخرى إلى العودة للحياة..

كل ذلك كان يعنى في مرحل المناقشة والمخاض والجدل، وانتهاز مختلف الفرق كل فرصة مواتية، وجرت لخليعه نفسه إلى التدخل في فتحها، وكان من العسير على الخليعه نفسه أن يفرض رأيه، بل كثيراً ما كان عاجزاً عن ذلك العنف المعارضة وصلابتها.

وكانت هناك أيضاً، طرفاً في الصراع، «الشعوبية»، ونظرياتها تدور حول أمصلية الأخناس أو الشعوب.. من الأفضل ومن الأكفأ، العرب أم اللاعرب؟^(١)

في هذا الموضوع كتبت امصول واندراساب المطولة، واشترك الأدباء والشعراء في الجدل يشجعهم على ذلك الأمراء والفائدة..

ولعل الجدل الذي بهم بحثنا أكثر من غيره كان هذا الذي دار بين هؤلاء الذين تعرفوا على رخاء احماة الحديد بعد القنوحات فانغمسوا في ملذاتها، وأعرفوا فيها، وبين أصحاب الزهد والخلق الصلب الذين هبوا مقاومتهم.

فقد كان هناك شعراء على شيء كثير من المحون - أمثال أبي نواس - يحبون الحياء ملذاتها الدبوية، وحوهم تلتف حاشيه من أناس كرهوا التزمت - فيما رعموا - واشتد في الأخلاق، ولكتهم سبب

(١) أحمد أمين ضعى لإسلام ج ١ ص ٤٩ فما بعدها ط القاهرة ١٩٣٣

مراكزهم الاجتماعية لم يستطيعوا الكشف عن حقيقة نفوسهم. لذلك عاونوا وأيدوا الشعراء سرًا، وشاركوا من ورائهم في الخفاء في المعركة ضد صلاة المتكلمين والفقهاء، ولا أدل من ديوان أبي نواس - على مجون الشعراء - وعلى حصوبة خيلهم فيما يتعلق بالملذات، وكذلك على تنوع أساليبهم في الهجوم على الفقهاء، فهو يقول مبتدئًا بحدى قصائده:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بالقي كنت هي الداء
وكانت هذه الصراعات الشاملة للسيطرة في المجال لسياسي أو أدبي، ثم تلك الحرب الضروس بين أهل المادة وأهل الروح سببًا في نشأة كثير من النزعات الصوفية أو في إحيائها.



كان رد الفعل الصوفي في هذه البيئة شيطانيًا غاية في النشاط، وكان الندوات والخطب والكتب بالإضافة إلى القدوة العملية، وسيده الصوفية إلى بلوغ الهدف.

ولكن: ما هو هذا الهدف؟..

لقد كان هدفهم أن يعيدوا المسلمين إلى حظيرة الإيمان الصحيح، إن محمدًا ﷺ هدى الوثيين وحل بهم أهل دين، ورفع إلى أسمى الدرجات قيمهم الأخلاقية، وبعث فيهم الإيمان بمثل التقوى الخالصة، وكان مجتمع المسلمين في عهده لمثل الأعلى، ولكن هذا المثل الأعلى شابه الشوائب من بعده، ووجب إنقاذه وإعادة بهائه إليه بمثل ما كان له في سابق الزمن. وهذا ما أرادته أهل التصوف: إعادة المسلمين الناهضين إلى الإيمان، وإلى أصول دينهم القويم..

نك هي الأمانة التي ابتغوها لأنفسهم، وتلك هي لغية التي جاهد من أحلها المحاسبي.

ولقد حضر ابن حنبل معه إحدى السنوات التي كان يتحدث فيها هذا الصوفي، حضرها متخفياً، وروى أنه اتفعل لحديثه بالبكاء، واهرت له مشاعره حتى إنه فقد الوعي^(١).

وكان المنهج الذي اتبعه المحاسبي في تأليفه لتحقيق غايته منهجاً مزدوجاً امتثالاً بالقرآن: «الترهيب» و «الترغيب»، ومؤلفه «كتاب التوهم» مشبع بدهيه هذا، يصور فيه، في قوة العقاب الشديد الذي يستظر أهل الشر في هذه الدنيا، ولكنه في مقابل ذلك يبدع في ذكر ما خصص في الجنة من نعيم لدخيرين، وهذا المنهج القرآني المختصب أني أيضاً بشماره الوافرة عند لجوء المحاسبي إليه، فكانت كتبه - على حد تعبير معاصريه «كتب عبرة»^(٢).. ولكنه في منهجه لم يقتصر على الترهيب والترغيب، بل إنه لبيدع في إنشاء أساليب الشفاء والوقاية لنفس الإنسانية في سعيه إلى تطهير القلوب من كل أنماط النفاق والرذيلة، من كل ما هو شر لا يرضاه الله - وإلى تحصن المؤمن ضد خبائث النفس وسبلها المتنوعة، وإلى الكشف عن منابع الشر، وكيف يتردى فيه الإنسان، وإلى البحث عن الوسيلة لايقائه إن أمكن، أو للخلاص منه والنجاة..

ولن يدرك القارئ مدى نفاد بصيرته الباحة، ومدى معرفته بحبها النفوس، إلا بالإطلاع على مؤلفيه: «كتاب الرعاية لحقوق الله والقيام بها» و «كتاب بدء من أناب إلى الله تعالى»..



(١) تاريخ بغداد، ج ٨، ص ٢٦١ - ٢١٨ ط: القاهرة.

(٢) ابن الجوزي، تليس إليس ص ١٦٦ ط القاهرة سنة ١٩٢٨

وبعد أن عرضنا فيما سبق للبيئة التي عاش فيها المحاسبي، نود هنا أن نتأمل شيئاً في شخصيته وحياته

أما عن حياته الخارجية، فلا نعرف عنها - للأسف - شيئاً كثيراً، وطفولته وشبابه فترتان مجهولتان.

وأما عن الرجل في نضجه شيخاً وكهلاً، فلم تصلنا سوى نوادر قليلة، ولكن شخصيته رغم النقص الظاهر في الوثائق بشأنها، تبرز لنا من خلال هذه النوادر، وتشف من ثياب تعاليمه إن أمعنا فيها النظر. وشخصية الرجل ساطعة مسيطرة: فهو صاحب عبقرية خلاقة، وهو رجل أصول^(١)، وهو إسان صريع بالغ الصراحة، ومخلص عميق الإخلاص ولرو في هذا المقام بعض النوادر التي تتعلق به:

كان الجنيد مثال الصوفي التقى المحافظ المتحزن، وكان يميل إلى حياة العزلة بعيداً عن ضوضاء المجتمع، فراره المحاسبي يوماً ودعاء إلى السير معه وبعض الرعاق في الصحراء، فكره الجنيد الدعوة خشية الاتصال بالناس والسير معهم، ولكن المحاسبي انطلق به غصياً وقال له: كم نقول لى: أيسى في عزلتى، لو أن نصف الخلق تقربوا منى ما وجدت بهم أساء، وبو أن النصف الآخر نأى عنى ما استوحشت لبعدهم^(٢).

وكان المحاسبي شديد الحاجة فاجتاز بالجنيد يوماً وهو جالس على بابه، قال الجنيد: قرأيت في وجهه زيادة الضر من الجوع، فقلت له: يا عم لو دخلت إلينا نلت من شيء عندنا فقال أو تفعل؟ قلت: نعم، وتسرى بذلك وتبرنى، فدخلت بين يديه ودخل معى، وعمدت إلى بيت عمى، وكان

(١) أبو نعيم لأصفهاني حلية الأولياء ج ١ ص ٧ ط: القاهرة.

١٩٣٢ - ١٩٣٨

(٢) حلية الأولياء ج ١ ص ٧ ط: القاهرة.

أوسع من بيتنا، لا يخلو من أطعمة فاخرة لا يكون مثلها في بيتنا سريماً، فجئت بأنوع كثيرة من الطعام، فوضعت بين يديه حمد يده وأخذ لقمة فرفعها إلى فيه، فرأيت يلوكلها ولا يرددها، فخرج وما كلمني، فلما كان بعد بعينه، فقلت: يا عم سررتني ثم نعست علي، فقال: يا بني، أما القاعة فكانت شديدة، وقد اجتهدت أن أنال من الطعام الذي قدمته إلي، ولكن بين وبين الله علامة، إذا لم يكن عند الله مرضاً أرفع إلى أنقى منه قوة، فلم تقبله نفسي، فقد رميت بتلك اللقمة في دهليزكم وخرجت.

ودعا المحاسبي تلاميذه يوماً إلى بيته، وكان عنده عصفور بصفر أحياناً صغيراً حاداً، ودخل أحد التلاميذ، فبعث العصفور بصفيره الحاد، فانزعج التلميذ وصرخ، وعتد أنه قام المحاسبي وتناول سكياً، وسار إلى التلميذ يريد ضربه به. وتدخل التلاميذ الآخرون وهددوا من ثائرة 'أستاذهم' (١)

ولكن: على ماذا كان غضب الأستاذ وثورته!..

لقد ضن إذ خاف التلميذ من صفير العصفور أنه ممن يؤمن بمذهب الحلول وأراد يقتله في الحال أن يقصى على الكافر.

الحلول؟..

إله المذهب الذي لا يمكن السكوت عليه.

إله المذهب الذي يثير لدى محاسبي رد فعل هوري بالعنف وهذه لبادرة الأخيرة تبين - في حلاء - مدى إحساسه المرفف بكل ما يتعلق بأمور الدين، كما تبرز سرعة تأثره - فيما يسمع أو يشهد - بكل ما من

(١) الهجویری، كشف المحجوب ص ١٨٢ - ١٨٣ من ترجمة بيكولسون ط.

بین سنه ١٩١٩.

شأنه أن يجرّح معتقداته الدنيوية المتأصلة، وكذلك مصارحته دنيًا إلى الرد
العملى الحاسم.



وكان المحاسبى أيضًا صاحب عبقرية فائقة

إنه أول من نشأ ونظم ما يمكن أن نطلق عليه: «علاج النفس» أو
«العلاج النفسى بلشر»، وإنه لأستاذ فى هذا المجال. ومعرفة العميقة
لأسباب وآثار ووسائل علاج الرذائل التى تنتهى إلى ارتكاب الذنوب قد
تدعو إلى الظن بأن المحاسبى فى شبابه صارع مثلها، وعذب عليها.
ولما بلغ ما يبلغ فى العمر والنهوى تحدث عنها عن تجربته وإدراك شخصى
للعوامل النفسية كيف تثور وكيف يمكن للإنسان أن يتعذب عليها بعون الله
دون أن يقع فيها.

ولكن شيئًا من هذا لم يثبت لدينا، ولو أن الأمر كان هكذا لانهر
أعداؤه هذه الفرصة المواتية للتهجم عليه؛ ولكنهم لم يفعلوا، ولم يجدوا إلى
الثيل منه فى سيرته وأخلاقه سبيلًا.

وإننا لنصطّر إلى افور بأن بصيرة المحاسبى النفاذة - فيما يتعلق بخبايا
لنفوس البشرية - هى السبب الحقيقى لكل هذه الألعية فى تناول
موضوعاتها..

وكان الحسن البصرى قد لمس فى بعض مؤلفاته بحار النفس البشرية،
ولكن ما قاله عنها لا يمكن وصفه بأكثر من أفكار مشتتة لا وحدة أو
اتصال يذكر بينها.

وكما يقول الأستاذ ريتز، وهو على حق:

«إن المحاسبي في الواقع هو منشئ مبادئ التحكم لأخلاقي المنظم في الذات في إطار التنوي الإسلامية^(١)».

* * *

وتنسب أيضا إلى محاسبي صفة أخرى أنه كان: «رجل الأصول» يقول ذلك ابن خلكان^(٢) ويحدد البعدادي تلك الأصول بأنها: «أصول الديانات»^(٣) ومن المعروف أنه إذا أطنقت كلمة الأصول فيها تدل على البحث في علم الكلام، بيد أن المحاسبي بسبب علاجه للأصول ونألفه في علم الكلام قد اكتسب عقله تنظما وتنوعا، ونخرجنا من هوصي التفاصيل المستتة إلى الأحكام العامة، وهذه الأحكام قد تظهر عرضا في مناسبة ما عند بعض المفكرين، ولا يكون لها من مغزى خاص، ولكنها لدى محاسبي وفيرة موازية، وتدل على عمق وشمول إدراكه للموضوع الذي يتناوله بالبحث، وعلى معرفته الثامة الدفينة به، وعلى أن النتائج التي يخلص إليها صدره عن تفكير ناضج مترو، تعد ألمى بذلك أصبحت هذه لسانج من بعده أحكاما أساسية.

إنها أحكام عبقرية مبتكرة لانجدها - على حد علمنا - عند أحد سواه، ولمضرب بعض الأمثلة تدعيا ونوصيحا لما نقول.

«لفرض» أمور معلومة في الإسلام. وروايات المسلم قد حددت في غير ما غموض.

فالفرض ليس فيه من متشابهات أم «القل» فهو شيء عام وليس

(١) هلموت ريتز: الإسلام ج ٢١ ص ٣٢.

(٢) ابن خلكان رقيت الاعيان (طبعة بولاق سنة ١٢٢٥ هـ).

(٣) الخطيب البعدادي - تاريخ بغداد ج ٨، ص ٢١١ - ٢١٨.

هناك إجماع تام فيما يتعلق بما كان يقوم به النبي ﷺ نقلاً، أو مجردى عنه المسلمان على هذا.

بيد أن المحاسبى يحسم المسألة بطريقة قاطعة جذرية فيقول كل فرض مقرون بقل، والنفل أنشئ أساساً لكمال الفرص. وإن إثبات مثل هذا الحكم يقتضى دراسة شاملة للدراسة الإسلامية ومعرفة بها في كل تفاصيلها، تدعو إلى الإعجاب. وقد أثبت المحاسبى في قضية طال فيها الجدل حول الخويع^(١) وسوف نعود إليها في لفصل الخاص بالزهد من هذا الكتاب.

والى القارئ مثال آخر بشأن تفكير المحاسبى المشبع بإرادة النقيض تارة الجدل حول مسألة ما يؤذن للمؤمن بسماعه في غير إثم. فحسم المحاسبى الجدل بدرجع بالقضية إلى قضية أخرى أكثر وضوحاً، فقال: «ما لا يؤذن لك بقوله فلا يؤذن لك يَص بسماعه»

وهكذا، وفي غير ما إسهاب أو إملال، قضى على الميمه وانقيبه وعيرها من المحرمات صراحة في القول.

وختاماً لحديثنا في هذا الشأن نسوق حكماً أخيراً للمحاسبى، إذ يقول: «واحمل لنفسك غاية من كل عمل تحب فيه أن تلاقى الله».



وكتبة «المحاسبى» لم تعلق بالحادث عشوائياً بل إنها الكنية التي تشير في وضوح إلى لطريق الفكرى، لهذا الإنسان المحدث العميق، الإخلاص وإخلاصه في رأينا - من أبرز جوانب شخصيته، ولهذا نتوقف عنده قليلاً

(١) محاسبى كتاب المسائل في الزهد (مخطوط حدر الله) ص ١٥

وكيف لا يكون المحاسبي مخلصاً؟

أحباً في المال وأحباء أندلسي؟ إنا نعلم يفيثا أنه رغم فقره عذر رفض ميراثاً لا يستهان به من أبيه لأسباب دسيسة رآها^(١)

أم حماية لنفسه من الاضطهاد؟

لقد حارب في عنف عنف ولم يتنازل عن آرائه.

وقد اضطهد سوات طوال، وحرم من التدريس في الفترة الأخيرة من حياته.

لا. إن المحاسبي كان يخشى الله ولا يعرف لفاق. وأسلوبه في الحديث إلى لقلوب أقوى برهان على ما نقول.

ويتحدث محاسبي في كتبه عن: «الإخلاص» ويؤكد ضرورته للإنسان باعتبار أساس كل خير، وفي ربه أن لا ثواب عند الله لعمل لم يصدر عن نية خالصة.

أما «الرياء» الذي يعرض له في فصول مطولة من كتابه «لرعاية» فالحاسبي يوحف منه ريقحه ويعمل بكل وسيلة، وبكل قواء، على انقضاء عليه في المجتمع، وهو دائم التردد في كتاباته لحديث:

«إنما لأعمال بالميت، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لذيها يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(٢).

وكذلك الحديث:

عن عمر بن الخطاب قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ، ذات يوم إذ

(١) اسمعني: كتاب لأتصاب، ص ٢٠٩ (طبعة سن ١٩١٩).

(٢) رواه البخاري ومسلم

طلع عليهما رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبته إلى ركبته، ووضع كفيه على فخذيه قال يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ:

«الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً. قال: صدقت.

قال: فعحيناله، يسأله ويصدقه.

قال: فأخبرني عن الإيمان؟

قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره.

قال: صدقت.

قال: فأخبرني عن الإحسان؟

قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

قال: فأخبرني عن الساعة؟

قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل.

قال: فأخبرني عن أمارتها؟

قال: أن تدد الأمة ربته، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء، يتطاولون في البنان.

قال: ثم اطلق، فلبثت ملياً ثم قال لي:

يا عمر أتدرى من السائل؟

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»^(١)

والمحاسبى يعتبر «الصدق» وسيلة إلى مرضاة الله. ولندكر هنا بعضاً من أحاديثه الوفيرة في هذا الشأن:

«علامة الرجل الذى أدرك إرادة الله:

أن يبتغى خيراً من عمله، عمله خير من كلامه، وهو دائم التأمل فى الله»^(٢)

«عدم أن الحكيم الذى رشح عميدته يرعى فى لصدق، بحاجبة غصب الله»^(٣)

«تحريف الدين من انحراف القلوب»^(٤).

ولا حاجة بنا فيما نطرح - إلى تأكيد خلاص المحاسبى أكثر مما فعلنا، فإحلاصه واضح للعيان، ساطع فى كل مؤلفاته وفى كل أعماله.

وقد تفرى بعض الدراسات الصوفية السطحية بالمقارنة والقرن بين المحاسبى والغزالى، والنظر إلى الثانى منها، على أنه تأثر بالأول تأثراً فائقاً فعلى غرار «كتاب الوصايا» للمحاسبى ألف الغزالى كتابه الرائع، «المتعد من الصلال».

والواقع أن الغزالى يفدر المحاسبى حق قدره. وقد قرأ كتبه، وهو يستشهد بالكثير من نصوصه فى مؤلفه: «إحياء علوم الدين». غير أن

(١) رواه الإمام مسلم فى صحيحه.

(٢) المحاسبى: «رسالة المسترشدين» ص ٢٤.

(٣) المحاسبى: «رسالة المسترشدين» ص ٢٤.

(٤) المحاسبى: «رسالة المسترشدين» ص ٢٥.

لغزالي، قرأ ودرس أيضاً مؤلفات متصوفين آخرين أمثال أبي طالب المكي،
والجنيد، والشبلي والبسطامي^(١)».

ولمسائل المصلة بين المتصوفين كثيرة، وقد تلقى عبقرية لغزالي في
طريق البحث والإنشاء مع فكر المحاسبي المأه، أما فيما يتعلق بكتابي
ابوصايا ولتقد فميل المفكرين إلى التأريخ لحياتهم الشخصية ميل طبيعي
يرتبط بمطرفة حب البقاء والرغبة في تخليد النفس.

أما فيما يتعلق بشخصيتهما، فالغزالي والمحاسبي مختلفان، إنه لا يمكننا
تصور الغزالي إلا أشعرياً صوفياً، أو شاعراً عاطفياً، إنه إنسان وديع طيف
رفيق الإحساس، متردد بعض التردد، احتاح إلى ستة أشهر ليسخذ قرار
الرحيل عن بيته، وإن رسخ اليقين لديه بوجوب ذلك، ثم لم يرحل
إلا حين اضطر إلى الرحيل اضطراراً، وتردد كثيراً في الإفصاح للناس عن
نيته الحقيقية في هجرة بغداد حيث كان يقيم، وتعلل بالسفر إلى مكة بيما
كان غرضه الشام^(٢).

وعلى العكس من ذلك، كان المحاسبي مثال الثوري، ولقائد المطاع.
كان رحل الانفعال المصحي، ولقرار الحاسم، والروح المسيطرة القوية
المراسي؛ فلما حملته مقاديره إلى النصف لم يثبت أن بعد فبه إلى مصاف
لزعامة الأولى، ومع كل ذلك فبه لا يمكن إنكار أثر المحاسبي في الغزالي،
والغزالي نفسه يعترف بذلك ولا ينكره.

ومهما كان بين الصوفية من اختلاف في كثير من لواحي فإن وجوه
التشابه بينهم كثيرة ومن هنا كان بين لغزالي والمحاسبي اختلاف وشابه
وهذا طبيعي.

(١) الغزالي - المقدم من الضلال، ص ١٢١ ص ١٢٣ (طبعة دمشق سنة ١٩٣٤)

(٢) الغزالي، انشد من الضلال ص ١٢٦ - ص ١٣٠

التأثيرات الأجنبية

ثبت لدينا بقيتنا من قراءة مؤلفات المحاسبي، أنه كان ذا ثقافة عربية إسلامية حاضرة، ولا تقل هذه الثقافة في أصلاتها العربية الإسلامية، عما كانت عليه ثقافة ابن خنبل مثلاً، وهو لدى يتهم قط - على حد علمنا - بأي تأثيرات أجنبية.

ونذكر بادئ ذي بدء، أن المحاسبي عربي أصيل.

ثم إنه يبني أحكامه على الدوام على كتاب الله، وأحاديث النبي ﷺ، وكان شعاره: شعار الحسن:

«إن أردت أن تعرف نفسك فاخترها بالقرآن».

كان هذا الشعار في قلبه على الدوام، يعطيه ويردده، ويستوحيه ويطبعه كان على معرفة عميقة بالقرآن، يتوهم ويرجع إليه في كل حين يسترشد به ويحتكم إليه، ومع ذلك فقد طى بعض الذين كتبوا عن المحاسبي أنه وقع تحت تأثير نياراب فكرية وأجنبية مسيحية على وجه الخصوص، ويعبر بروكلمان عن ذلك بقوله:

«أول نموذج أدبي معروف لدينا في التصوف من النزعة المسيحية القديمة إلى الزهد، يمثل في أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي^(١)». ويستشهد أوتوسنبسيس من تاحيته بكتاب المستشرق نيكولسون، «تراث الإسلام» فيقول:

(١) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي ج ١ ص ١٩٨ (طبعة ١٩٨٨)

«الأستاذ تيكلوسون يقدر لكتاب الرعاية، رفته وأفكاره الميسرة، ولكنه يقرر أن المحاسبي في هذا الكتاب يستند الكثير من المصادر اليهودية والمسيحية في سبيل الهداية^(١)».

وتؤم الأستاذة: مارحاريث سميت أيضا بذلك^(٢)، كما يؤمن به لدكتور زكي مبارك^(٣)، الذي أثار رأيه اهتمامه باعتباره رأى عربى فى عربى، ولكن تبين لنا أن زكى مبارك لم يدرس المحاسبي إلا من خلال بعض النصوص التى وردت فى مؤلفات الخزالي.

وبريد هنا أن نفصل القول فى هذه لقضية التى أثبتت حول المحاسبي وهى قضية تتعلق عامة بالتأثيرات الأجنبية فى التصوف الإسلامى. وعلماء المستشرقين لم يتفقوا على مصدر هذه التأثيرات الأجنبية، وإن قالوا إنها كانت السبب الرئيسى فى نشأة التصوف الإسلامى.

بعضهم يرى علبة التأثير الفارسى، والبعض الآخر يضع لمسيحية فى الصف الأول من المؤثرات، وهناك من يقول بسبق الأثر الهندى وعلى الأخص منه أثر البوذية.

ولا يحىو الأمر من دعاة الرعم بعود الأفلاطونية الجديدة إلى التصوف الإسلامى.

إلى آخر النظريات الكثيرة المعروضة أمامى فى هذا لمحال. ولكن ما هى حقيقة الأمر؟ وما هو مصدر التصوف الإسلامى؟ لا نريد هنا مناقشة النظريات المذكورة، فذلك عمل يخرج عن نطاق

(١) أوبوسبيس: إسلاميات ج ٦ ص ٢٨٢ ص ٢٨٦

(٢) مارحاريث سميت. «صوفى من أوائل الصوفية فى بغداد، ص ٦٠، ص ٨٢

(٣) زكى مبارك التصوف الإسلامى ج ٢ ص ١٧٧ ص ١٧٩

دراستنا، ولكننا نود أن نذكر في هذا المقام بما أثبتته الأستاذ ماسينيون في قوة ومستنداً إلى البراهين اللغوية، والتاريخية العاصلة، من أن التصوف الإسلامي نشأ أساساً من التأمل في القرآن^(١).

أما فيما يتعلق بالمحاسبى بالذات فقد تأملنا طويلاً في السبب أو الأسباب التي يمكن أن تكون قد حمت الذين تعرضوا له إلى القول بوقوع تأثير مسيحي عليه.

لم يثبت لدينا أنه عاشر المسيحيين بصفة خاصة، لم يعاشرهم على أي حال أكثر مما عاشرهم رجال من أمثال الإمام بن حنبل

ولم يثبت لدينا أنه درس الأناجيل بصفة خاصة، فهو في ذكره لها إنما يورد المصوص التي جاء بها سابقوه من الكتب المسلمين، وعندما يتحدث عن المسيح بطريقة مباشرة، فإنما يستمد حديثه من القرآن.

والإمام أحمد بن حنبل في مؤلف واحد من مؤلفاته، هو «كتاب الزهد» يجمع من كلمات المسيح أكثر مما اجتمع في كتب المحاسبى كلها

وقد أورد ابن حنبل بين دفتري المؤلف المذكور فصلاً في نصائح المسيح، وفصلاً آخر في حكمة المسيح، وثالثاً في زهد المسيح.

ومن الأمور ذات المغزى، أن الأحاديث المنسوبة إلى المسيح في الزهد أقل رفعة وقوة من تلك الواردة من مصادر عربية خالصة

والمفارقة في كتب ابن حنبل بين الفصول التي يعتمد على أحاديث عربية خالصة وبين تلك التي تعتمد على مصادر مسيحية، دراسة تفيد الكثير في هذا المجال.

(١) بوبس ماسينيون دراسة في أصول اصطلاحات الفقه للتصوف الإسلامي، طبعة باريس سنة ١٩٢٢

وقد رأينا أن السبب في القول بالتأثير لمسيحي لدى لمحاسبي أسباباً ثلاثة هي:

- ١ - قضية الكسب الحلال.
- ٢ - كلمة: «حكماء» التي كثيراً ما يستخدمها لمحاسبي.
- ٣ - الأمثال والمواعظ المسيحية كحكاية باذر الحبوب.

أما قضية الكسب الحلال - فسوف نتناولها تفصيلاً فيما بعد، ونكتفي الآن بالقول: بأن الصوفي أياً كان، وفي أي بيئة وجد، يستنهم على الدوام، في كل حطاء حبه لله، ويوقن على الدوام بأن كل ما في هذه الدنيا إلى زوال، وفي إحساس الصوفي المخلص عداوة طبيعية دائماً لكل ما هو: حاد مادي، أو غنى دنيوي.

والصوفي يثور بطبعه على كل ما يرى فيه عقبة مباشرة أو غير مباشرة - تعوقه عن الاتصال بالله.

إنه يكره العوامل التي تنهيه عن التأمل في ذات لعبود، وحياته يحب أن تتركس كلها وعلى الدوام للعبادة، والصوفي لا يطلب - أو على الأصح، يجب أن لا يطلب لنفسه شيئاً من هذه الدنيا، بل عليه أن يفهر نفسه، ويكبح حماح شهوته ليتحرر من كل طمع في دنياء، فيحلو إلى الله.

لذلك نرى أنه من طبع الصوفي بحماية القسم المادية لهذه الحياة الدنياء، وأخصها بالذكر. السعي لثبث إلى المال وليس هذا فيما نعتقد - بالأمر المقصور على المسيحيين وهو ما يدعون إلى القول بأن لقضية المذكورة ليست دليلاً يعتمد عليه أو يؤخذ به.

ومسألة «الحكماء» تسم بشيء من الغموض وقد يرى البعض أن لكلمة نعي لفلاسفه أو المسيحيين، ويتناول الأسناد ريتز مثلاً هذه القصة

فيفصرها على معنى معين وينفى من معاني الكلمة لكثير^(١)، وإنما لا نرى هذا الرأي، والسبب ساطع الوضوح فالقرآن يحدثنا عن الحكماء، في آيات كثيرة مثل قوله تعالى:

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٢)

وقوله سبحانه وتعالى:

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٣)

وقوله سبحانه وتعالى:

﴿... وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا نَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ لِيُعْظَمَ فِيهِ، وَتَقْوِ اللَّهَ، وَعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٤)

وعبرها.

ومترجمو معاني القرآن الكريم، إلى اللغات الأوروبية يقابلون كلمة: «الحكمة» بلفظ عام لا يرجعها على وجه الدقة، وعلى أى حال، فهذه الكلمة لا تعنى ما يقصد بالحكمة الفلسفية سواء منها المفهوم لروقي أو غير.

وإذا جمعنا آيات القرآن إلى فيها ذكر للحكمة، فسوف يتضح لنا أن المقصود معنى خاص هو: المعرفة الدينية الصادرة عن نهضة الربانية.

(١) هلموت ريتز: مخطوطات الحارث بن أسد المحاسبي ص ٥

(٢) سورة البقرة ٢٦٩

(٣) ١٢٩ من سورة البقرة

(٤) ٢٣١ من سورة البقرة

ولقد أدرك المفسرون ذلك، وصرح به بعضهم؛ وهذا في رُبما هو المعنى الحقيقي للحكمة في القرآن

ولكن ماذا كان يقصد المحاسبي منها، وهو القائل عن القرآن.
« أنه يحوى تفسير وعلم كل شيء، ويجب استدكاره ليل نهار،
والعمل على تفهمه وتطبيقه»^(١).

وبريد أن نبيه القارئ إلى مسائل ثلاث يرى ضرورة عرضها في هذا
المقام:

الأول. أن المحاسبي ألف كتاباً في «أخلاق الحكيم»، والكتاب للأسف
ضائع، ولكن المحاسبي يخبر في موضع آخر^(٢)، أنه عرض فيه «تفصيلاً»
لية ارتكاب الذنوب، وهل هذه الية ذنب أم لا

وفي هذا الكتاب المخصص للتعريف بالحكيم يحكم المحاسبي في القضية
بجلاء ووضوح حسب المفاهيم الإسلامية، ونحن على يقين من أنه في وصفه
لأخلاق الحكيم ودراستها وتحليلها، أو في عرضه لها مثلاً لكلل اشخصية
الحالية من شوائب الشر، لم يستمد بحثه من خلال أوصاف حكام مسيحيه
أو الفلاسفة، وإنما - وكان هذا أمراً طبيعياً - وحد صفات الحكيم في
القرآن، ووجد مثاله في النبي والصحابة

والثانية: أن المحاسبي في كتابه «المسائل في أعمال القلوب والجوارح»
يعرض القضية «هل الكلام خير من السكوت» فيذكر رأى زيد، ومفاده
أن الكلام خير، ثم يضيف «قال حكيم عن رأى زيد: إن زيدا عرف أن

(١) المحاسبي كتاب أدب النفوس ص ٩٠ (مخطوط جاز الله)

(٢) المحاسبي: كتاب المسائل في أعمال القلوب والجوارح، ص ٩٢ مخطوط حاراقه.

كثرة الكلام ضرر، ولكن صررها أقل من ضرر السكوت»^(١).
 هل ناقش المسيحيون والفلاسفة آراء زيدا؟ وهل وصلت أصداء
 نقاشهم حتى المحاسبى؟ إننا نشك في ذلك كثيراً

والمسألة الثالثة: أن المحاسبى يقول في مناسبة أخرى:
 «إذا نوى رجل عمل خيراً، أثابه الله حسنة واحدة إن لم يتمه، فإن أتمه
 أثابه الله عشر حسنات وهذا ما يقول به بعض الحكماء»^(٢).

والأمر هنا يتعلق بمسألة محددة في الإسلام. وفي رأينا أن المحاسبى لم
 يكن ليصدر في معالجتها عن آراء فيلسوف أو مسيحي، هذا بالإضافة إلى
 أن كلمه: «حسنة» الواردة هنا كلمه إسلامية خالصة.

وإذا لتساءل بعد ذلك: ماذا كان يعنى المحاسبى بكلمة «حكما» إنه
 يروى في بداية كتاب الوصايا كيف وحد القوم الدين مهتدى بهم بعد طول
 معاناة وقتق:

«قوم رأيت بهم علامات النفوس، وعنى النفس، يرعون حقوق الله
 ويفصلون الحياة الأخرى على الحياة الدنيا».

وبواصل المحاسبى سرد فضائل هؤلاء القوم، والذي يعيننا هنا أنهم
 كانوا من المسلمين، وإن لم يذكر أسماءهم كما أنه لم يورد أسانيد الأحاديث
 المروية في كتابه

يبد أن هؤلاء القوم كانوا هداف له فيما يتعلق بأمور الدين الإسلامى،
 وحصيلته تعاليمهم - التى صممها كتاب الوصايا - حصيله إسلامية خالصة.
 ويقول المحاسبى:

(١) محاسبى كتاب السائن فى اعمال لقلوب واخوارح ص ١٣٢ مخطوط
 جازقه. (٢) محاسبى: الزهد ص ١٣.

إن القوم المذكورين كانت هديهم «المعرفة لصادرة عن العناية الربانية في أمور الدين».

وقد ذكرنا فيما سبق أن هذا هو المعنى القرآني لكلمة: «حكمة» فهل هؤلاء هم الذين يعنيه المحاسبي بالحكماء؟
بنا لا تقطع بذلك، ولكننا نريد هنا فقط أن نبطل حجة القائلين بأن الحكماء ليسوا سوى المسيحيين، أو الفلاسفة، وعلى أي حال، فإن كلمة «حكمة» بمعنى المعرفة الصادرة عن العناية الربانية «يستخدمها المحاسبي في كتاب «الرعاية»، كما يذكر في هذا الكتاب حديثاً للحسن البصري يعطى للكلمة نفس المعنى.

ولو سلمنا بأن من بين الدس الدين تعنيهم كلمة حكماء: بعض المسيحيين، فهل يفرض هذا أن المحاسبي قد تأثر بالمسيحية؟
إنه أمر لا نقره؛ فالأحدث التي ينسبها إلى الحكماء: إما إسلامية خالصة، أو هي حاملة لغزى عام مستخدم في البيئة الإسلامية وليست المسيحية على حد سواء.

وقد يعتمد البعض، أمثال الأستاذة: مارحريت سميث^(١)، إلى المعل في هذا الصدد باستخدام المحاسبي للأمثال والمواعظ مستنديين بالذات إلى حكاية باذر الحبوب.

ولكن هذه القصة في الواقع لا تدل على اتجا، بعينه، بل إنها تروى عبرة شائعة، ذاعب في سائر الأمم، وبالإضافة إلى ذلك، فإن المحاسبي لم يوردها إلا توصيحاً لآرائه.

إنه لا ينحذ قط الأمثال أساساً للرأي، وإنما يذكرها لمحض التفصيل والإيضاح.

(١) مارحريت سميث - صوفي من أرائل صوفيه بغداد ص ٨٣

وكل الأمثال التي ترد لديه فهو قد استمدّها من مسلمين آخرين.
 فأسباب لقول بالتأثير المسيحي على الصوفي الذي يعيننا ليسب إدين
 بالأسباب المقنعة، لذلك نعتقد أنه لا مناص من تأكيد ما سبق أن عرضناه
 بشأن ثقافة المحاسبي: من أنها كانت ثقافة عربية إسلامية خالصة.
 ونضيف إلى ما تقدم أن من الأمور ذات المعزى: أن المحاسبي لا يرى
 في المسيحيين غير قوم ضلوا عن سبيل الله^(١). ثم هو - مع تقديره الرفيع
 للمسيح نبياً - يرى أنه م يطلع من مراتب السمو الروحي أعلاها، معتمداً
 في ذلك على الحديث التالي:

«لو أن إيمان عيسى كان أقوى لطار في السماء بدلاً من أن يمشى على
 الماء».



ومع ذلك كان صاحبنا محل نقد عفيف؛ وقد اضطر في أواخر حياته أن
 يتوقف عن التدريس.

وثبت هنا أولاً أن الانتقادات التي وجهت إليه لم تتعرض في شيء إلى
 إحلاصه، ثم إنها لا تحمل أي اتهام له بالخروج عن الدين.
 وإنا لنرى في هذه الانتقادات شريفاً للمحاسبي، ولا أدن عن ذلك من
 تلخيصها، وهي أساساً من شقين:

الأول منها القول بأن منهج المحاسبي في علاج النفس يعتبر نوعاً
 من الاستحداث لأشياء لم تتناولها سابقوه أمثال مالك أو الثوري.
 وهذا النقد - إجمالاً للقول - لا يثبت إلا أنه كان ذا عبقرية مبتكرة
 المعية^(٢).

(١) المحاسبي: مختصر كتاب فهم الصلاح ص ٥٤ مخطوط حاراقه.

(٢) ابن الجوزي: تلييس إبليس ص ١٦٦ ط القاهرة سنة ١٩٢٨

والثاني: وكان ابن حنبل على رأس المنتقذين للمحاسبى في هذا الصدد - بوجره في أن المحاسبى في دفاعه عن لعقده وحرره على الدين يعتبرهم من الخارجين على الدين، استخدم نفس أساليب المتكلمين في الجدل.

وموضوع النقد في نظر مستفديه أنه عني في كتاباته بأن يعرض نظريات أعدائه قبل أن يشرح في هدمها

وكان الرأى عندهم أن عرص آراء هؤلاء الفوم الخارجين على الدين - ولو من أجل تيسير إبطال حججهم - أمر غير مقبول^(١)، وهذه الانتقادات في الواقع مردها إلى حماس المحاسبى وإخلاصه للدين دفعه به إلى عرص الآراء الخارجيه قبل كل شيء سحاج أصحابها في غير ما نحن أو تضلل.

(١) ابن الجوزى تلبس إبيس ص ١٦٧ ط القاهرة ١٩٢٨، وكذلك لعلى المسند من الضلال ص ١٠٩

الأبحاث الخاصة بالمحاسبى

كتبه وترتيبها التاريخى:

يقول المحويزى، مؤلف: «كشف المحجوب».

إن المحاسبى رعيم إحدى الطرق الصوفية الاثني عشر وأنه مفكر د.
قدر كبير.

ورغم ذلك: فالمحاسبى لم يزد اهتمام المستشرقين بشكل ملحوظ، ولهم
العذر فى ذلك، فأهدافهم لا تتفق مع دراسته، إذ هو على طرف نقيض من
نظرياتهم حول أصول التصوف الإسلامى، ولما كانت التأثيرات الأجنبية
بعيدة عنه كل البعد برز لديه وتجلت فى صورته مله الثقافة العربية
القرآنية الإسلامية.

لذلك رأوا تجنبه وإبقاءه فى الظلام، وإن بذل الأستاذ ماسينيون بعض
الجهود المشكورة لبيان فضله وقدره.

ومن الأمور ذات دلالة الواضحة فى هذا الصدد أن الأساد
بيكولسون ألف أربع كتب فى إسلام والعرب^{١١}، منهم ثلاثة فى التصوف،
والرابع فى تاريخ الأدب العربى وهذا الأخير يتناول أيضاً لتصوف فى
مناسبتين منه ولم يذكر مرة واحدة اسم المحاسبى وهو يعرض له فى

(١) بيكولسون صوفية الإسلام - مرسلات فى التصوف الإسلامى - فكرة الشخصية فى
التصوف - تاريخ أمم العرب

كتاب خاص «تراث الإسلام» ولكن في سطور مختصرة للغاية. والمستشرقون عامة لا يتحدثون عن المحاسبي سوى عرض، يتحدثون عنه في كلمات سريعة لا تعتمد على دراسة مطولة، أو براهين قوية، ومقادها؛ أن برعته الصوفية كانت على الأخص متأثرة بالمسيحية. يقولون هذا وينتقلون إلى مواضيع أخرى، وكأنهم يهربون من المحاسبي لأنهم يشعرون في مكوثهم أنهم أن الإقاص في دراسته تبطل حججهم.

وكان للأستاذ عاسينيون - قبل غيره من المستشرقين - الفضل الحقيقي في التعريف بالمحاسبي. لقد عرض له في مواضع كثيرة من كتابه «مأساة لحلاح» ثم خصه بقدر كبير من البحث في كتابه «دراسات في أصول المصطلحات الفقية للتصوف الإسلامي»

وفي عام ١٩٣٥ نشرت الأستاذة مارجريت سميث كتاباً شاملاً عن المحاسبي، أفدنا كثيراً من قراءته، حيث أنها قامت بأبحاث واسعة في مختلف مكاتب المخطوطات و انتهت إلى اكتشاف وثائق هامة عن هذا الصوفي أدت إلى اتجاهات جديدة نحو مصادر الدراسات الخاصة به وقد عرضنا - وسوف نعرض فيها إلى من بحثنا لبعض الأفكار والآراء التي بنت عليها مؤلفها.

ونشر الأستاذ أونوسيس ورقات ثلاث، من مخطوطة من كتاب للمحاسبي اكتشفت في المكتبة الشرفية لباكيبور بالهند^(١).

كما أصدر الأستاذ هلموت ريتز كتاباً من ثلاث عشرة صفحة يتضمن

(١) أونوسيس في «دراسات إسلامية» الجزء السادس ص ٢٨٣ - ٢٨٦

مخطوطاً آخر له وجد بمكتبة إستانبول، وعنوانه: «كتاب بدء من أناب إلى الله تعالى».

أما الأستاذ ارثر آربري فقد حقق ونشر «كتاب التوهم» للمحاسبي. هذا محمل ما قام به المستشرقون منذارات فيما يتعلق بالمحاسبى، وهو ليس بالكثير إن قورن بإنتاجهم الأدبى والعلمى الهائل بشأن ابن عربى مثلاً.

وقبل أن تنتقل إلى بيان مؤلفات المحاسبى، ونتناولها بالتحليل مع ترتيبها ترتيباً تاريخياً وموضوعياً، نريد أن نعرض ملاحظات الثابتة بشأن بعض هذه المؤلفات.

١ - سبب إلى المحاسبى. «كتاب البعث والشور»^(١) ونحن على يقين من أنه ليس للمحاسبى، وذلك للأسباب الآتية

(أ) لقد ألف المحاسبى فى نفس الموضوع كتابه الرائع المشوق. «التوهم» وليس من المعقول أن يكون قد سطر إلى جانب مؤلفاً فى مثل هزال: «كتاب لبعث والشور» المنسوب إليه.

(ب) كتب التوهم يعبد إلى وصف القيامة والحساب والحجيم والحزاء المخيف المحصص لمن عصى الله، ثم يأخذ فى بيان لسعادة لقي تنتظر فى الجنة كل من رعى حقوق الله وبعد ذلك يأخذ بيد القارئ فى رفق وغفل لمسير فى موكب الأظفار إلى مشهد الصفاء، مشهد لذات الإلهة التى بها وحدها تكمل السعادة^(٢).

أما فى كتاب «البعث والشور» المنسوب إليه فترتيب الأحداث مختلف

(١) مخطوط بمكتبة باريس

(٢) لويس ماسينيوس. دراسات ص ٢٢٣

وغير مسطقي، والحديث عن رؤية الذات الإلهية يأتي في الفصول الوسطى منه، وكان الأولى أن يكون وصف هذه المرتبة الأسمى من السعادة في خاتمته.

(ج) وأخيراً، فالكاتب بالغ الهرال، يدعو إلى السخرية، فيه من الخرافات عن المسلمين ما لا يصدق عقل عاقل، وبالتالي لا يجوز على تسطيره رجل رشيد: جبريل يهكي على أمة محمد ﷺ - وحينئذ تعطف عليها، ومالك حارس المحميم يسأل عن أخبارها، ولا تدري كيف تتحمل لبيب النار. لا ليس ذلك من فكر وعمل المحاسبي، وهو ما يدعونا إلى الجرم بأن «كتاب البعث والشور» لم يصدر عنه، وبأن نسبته إليه محض تحجب واعتراء.

٢ - يذكر الأستاذ «ريتر» في بحثه لذي أشرنا إليه سابقاً أن «كتاب النصائح» منسوب إلى المحاسبي، وأن أمر هذه النسبة يحتاج إلى مزيد من الدراسة.

ولعله سبيان قد يدعوان للشك في نسبة المخطوط إلى محاسبي: الأول منها، أن بالصحيحة ٢٢ للمخطوط أمر يسترعى الانتباه، إذ نقرأ فيها أن جلساء المحاسبي قالوا له عندما رأوه سككت عن الحديث: «يا أخانا - وأنت البر ياخوانه - لقد احتججت في النصيح لنا، وهولك الصدق» ثم طلبوا إليه أن يزيدهم من حديثه، وأن يفصل لهم ما تحجب معرفته لتطهير إيمانهم.. «عندئذ قال لهم عبد الله» إلخ.

والأمر الذي يسترعى الانتباه هنا هو ذكر المحاسبي في سياق الحديث، مما يدعو إلى الظن بأن الكتاب صدر عن أحد تلاميذ المحاسبي ممن حضر جلسته، وسجل مختصراً لحديثه.

ولكننا نعلم أن المحاسبي دأب على كتابة ما كان يلقى من دروس، محتفظاً فيها بالأسئلة التي تلقى إليه وبأجوبته عليها، وليس أسلوب الحوار هذا يقرئ أو يستقرب في مؤلفاته

والسبب الثاني: الذي قد يشكك في نسبة «كتاب النصائح» إلى المحاسبي، أن به هجوماً على ابن عوف الذي كان من صفوة أصحاب النبي ﷺ. ومنل هذا الهجوم من رجل مثل المحاسبي يحترم ويحب هؤلاء الصحابة في عمق وإخلاص أمر عجب. ولسوف نتحدث فيما بعد عن تفصيل هذا الهجوم ومبرراته، ولكن الشك في نسبة المؤلف إلى المحاسبي لهذا السبب يتلاشى سريعاً، إذ نجد أن الغزالي - وهو أيضاً يحترم ويحب أصحاب النبي ﷺ في عمق وإخلاص - يورد ذكر هذا الهجوم بالذات على ابن عوف في كتابه الإحياء^(١).

إنه يورده، ويوافق عليه، ويمتدح له المحاسبي في حماس وكان الغزالي حجة في النقد لفلسفي، وإذا هو امتدح المحاسبي لفصل من كتاب النصائح، فقد أثبت نسبة الكتاب إليه، وهذا في رأينا فصل الخطاب في القضية، ولكننا نحب أن نضيف ما يلي:

إن ذكر المحاسبي لنفسه في مؤلفاته أمر جرى عليه أسلوبه في النقاش والعرض، وله أمثلة كثيرة غير الذي ذكرناه.

- إن الأفكار التي يعبر عنها في كتاب «النصائح» لا تخرج عن الإطار المعروف لانتباهاته.

٣ - وقد تفصل الأستاذ «ماسينيون» باطلاعنا على بضع ورفات من

(١) الغزالي: الإحياء، ج ٢، ط ٢٢٩، ط ١: ١٣٤٦ هـ.

مخطوط «كتاب مهم القرآن»^(١) جمع فيها المحاسبي آيات من القرآن تتعلق بموضوع يبحث فيه، وهو يفسر ويشرح الآيات التي يراها أكثر مطابقة لأحاديث النبي.. ثم يأخذ في شرح الآيات الأخرى التي قد تبدو لأول وهلة غير مطابقة، والتي قد يرى فيها محادلوه حجة لهم.

إنه في الواقع بحث في الإلهيات.

٤ في النصوص الخاصة بمؤلفات المحاسبي نجد ذكر الكتاب له بعنوان «كتاب الكف عما سحر بين الصحابة» ولكنها لا ترى معنى لكلمة «سحر» ونعتقد أنه يجب قراءتها «شجر» ليستقيم المعنى.

ويروى السمعاني^(٢) نقلاً عن ابن شدهان أن المحاسبي ألف كتاباً يقال له «كتاب الدماء» وأنه يشرح فيه كيف أن الدماء التي سالت بين أصحاب النبي لم تصر بوحدة العقيدة للأمة الإسلامية.. ويروى ابن شدهان - أيضاً - أنه وإخوان له اعتمدوا على كتاب المحاسبي هذا.

وإننا لنرى - كما ترى لأستاذة «مارجريت سميث»^(٣) أن «كتاب الكف عما سحر بين الصحابة» و«كتاب الدماء» المذكوران، ليسا في الواقع سوى مؤلف واحد من مؤلفات المحاسبي، رغم اختلاف عناوينهما..

وتدس تسمية الكتاب في الحالين على أنه يعرض للخلافات التي ثارت بين الصحابة في الفترة الأخيرة من عهد عثمان وأدت إلى قتله، ثم إلى النزاع بين علي من ناحية، وبين عائشة ومعاوية من ناحية أخرى.

(١) ذكره المحاسبي في فصل من كتاب العظمة المخطوط ص ٢٧

(٢) السمعاني - كتاب الأنساب ص ٥٣٩

(٣) حرقى من أوائل صومية بغداد ص ٥٨

وكانت هذه الخلافات في عصر المحاسبي موضوع نقد مرير، وعلى الأخص من جانب المعتزلة الذين ألغوا باللوم على أصحاب النبی.. ويمكن التعرف على موقف المحاسبي بالنسبة إلى هذه القضية من خلال مؤلفاته الأخرى، إذ لا شك في أنه أراد تيرئة دمة الصحابة، وتطهيرهم من كل ذنب.

فهو يقول - مثلاً - عن الذين يتهمون على عائشة «أم المؤمنين» «إتهم قوم ضلو»^(١).

وهو يثور لعثمان ثالث الخلفاء، ويذكر نقلاً عن أبي قلابة أن فلة عثمان إنما قتلوا عبدة»^(٢).

وبكرر العبارة في نفس الصحيفة دوماً داع حقيقى إليها في المعنى. ثم هو يروى بعد ذلك في نفس الكتاب، نقلاً عن قائل لم يذكر اسمه: «مارجوت شراً لعثمان إلا وقع على الشر، ولو رجوت قتله لقتلت أماً»^(٣) وكان المحاسبي لا يذكر علياً إلا على أنه من أصحاب النبی ذوى الفضل الكبير..

وقد رأينا فيما سبق كيف كان تقديره لصحابة عامة.

٥ - يروى ابن الحاح^(٤) أن المحاسبي في كتابه «رساله الإرشاد» يقول: إن الغناء حرم على المسلم كتحریم أكل الدابة ابئة التي لم تذبح ذبهاً شرعياً.

ولقد استنتجت من هذا أن رسالة «الإرشاد» المذكورة هي نفس كتاب

(١) الرعاية ص ٦٦٦

(٣) الرعاية ص ١٤٥

(٢) الرعاية ص ١٤٠

(٤) المدخل ص ٢٦٦ ط: القاهرة.

المسترشد» المعروف، للمحاسبي.. وأعدنا قراءة الكتاب الأخير فوجدنا فيه تأكيداً لاستنتاجنا من نص الكلمات بذاتها التي استشهد بها بن الحاج.

٦ - بشر الأستاذ «أوبوسبس»^(١) الورقات الثلاث الأخيرة المتبقية من مخطوط بعنوان «كتاب لصبر والرضا» للمحاسبي؛ ويقول المباشر بشأنها:

«لم أجد في المصادر المتاحة لي أي ذكر لكتاب الصبر والرضا هذا» ونحن نعتقد أن الكتاب المذكور لم يكن يحمل هذا العنوان، وإنما سمي أصلاً بـ «كتاب الرضا».

ولما كان البحث في الصبر مقروناً بالبحث في الرضا، فالأرجح أن العنوان قد حُرف، يدلنا على ذلك أن المحاسبي في كتابه «المسائل في أعمال القلوب والحوارج» ص ١٣٨ يقول:

إله ألف «كتاب الرضا» ولا نعمل أن يكون - بعد ذلك - قد ألف كتاباً آخر في الصبر والرضا.



وبعد الملاحظات التمهيدية السابقة بشأن مؤلفات المحاسبي، نورد فيما يلي لمحات موجزة لما وصلنا إليه منها:

- ١ - كتاب الرعاية لحقوق الله والقيام بها؛
- تساءلنا يوماً: لو فقدت سائر مؤلفات المحاسبي - باستثناء «الرعاية» فهل يكفينا هذا الكتاب دليلاً على فكر مؤلفه؟

(١) دراسات إسلامية ج ٦ ص ٢٨٢ - ٢٨٦

وكاد الجواب على هذا التساؤل أن يكون بالإيجاب..

فالواقع أن كتاب «الرعاية» يحتوى على المخطوط العريضة لكتب المحاسبي المسماة بـ «التوهم» و «الرهد» و «المكسب» و «بدء من أناب إلى الله» وهو يحتوى على كتابه «لمسائل في أعمال القلوب» و «آداب النفوس» ليس فقط في خطوطها العريضة، ولكن في بسط أكثر تنظيمًا وأكمل منطقًا.

ثم هو يحتوى أيضًا على جوهر الآراء التي عبر عنها في كتاب «الوصايا» يحتوها مع زيادة في احرص على تحديد المعاني وترتيبها

ومن خلال هذا المؤلف وحده، يمكننا التعرف على المحاسبي في علوم الدين، وعلى المحاسبي في الأخلاق، وعلى المحاسبي في معرفة النفس الإنسانية.

ولو فقدت «الرعاية» لأمكننا التعرف من كتبه الأخرى على المحاسبي في مجال النظر في الأخلاقية، بيد أن هذه الكتب الأخرى لن تغنينا شيئًا كثيرًا في تحديد ووضاح قدر المحاسبي كمستكشف لأسرار النفس الإنسانية، ومعالج لها.

لقد كتب المحاسبي مؤلفه هذا مبتغيًا هدفًا جوهريًا هو: أن يبين للإنسان ما يجب عليه اتباعًا وتنفيذًا لإرادة الله.

ولكنه لم يمتد إلى هذا الموضوع مباشرة، وإنما اعتمد أن الإنسان يحتاج، بادئ ذي بدء، إلى نصائح رشيدة قبل لسيير به إلى العاية المرجوة، نصائح يفتح لها قلبه، ويطلق عمله واعيًا لتحديث.

لهذا يقدم لكتابه بنصائح في حسن الاستماع، ثم يعرض موضوعه،

لا شارحاً مفسراً، ولكن ميثاً ضرورة إخضاع الإنسان نفسه لإرادة الله، وهو الأمر الذى ينبع من «التعوى» ويؤدى بالإنسان إلى القيام بما أمره الله به، وبجانية ما نهاه عنه؛ وما أمر الله به من معروف وكذلك ما نهى عنه. والمحاسنى فى «الرعاية» لم يحاول حصر وسرد أوجبات والمحرمات، وإنما هم قبل كل شيء بـ «المهج» الذى يهجه الإنسان فى تطبيقه للأوامر والنواهى عملياً بإخلاص وتطهر.

وللوصول إلى هذه الغاية التى يلاحظ المحاسنى أن الناس يتعمدون عنها شيئاً فشيئاً على توالى الأيام وفى كل مكان، فهو يرسم لهم طريق التوبة وما يتبعها من عودة الإنسان إلى الله.

وعندما يصل الإنسان إلى مدارج التوبة، ويوى مخلصاً الطاعة قد يكون مع ذلك فى صراع دائم مع ما يمكن أن نسميه بـ «عناصر الشر» التى قد تضلّه فى غفلة منه عن سواء السبيل. فهذه العناصر دائمة الیقظة، وهى دائمة التمس لفريستها فى الإنسان الضعيف بطبعه.

ويرى المحاسنى أن عنصرى الشر هما: النفس عنصرياً داخلياً، وإبليس العنصر الخارجى الذى ينفذ من النفس إلى الإنسان بيوحى له بالشر، والمحاسنى يحذر منهما، ويبين شدة مكرهما، ولا يكتفى بذلك، بل يحذر الإنسان من عوامل الضلال، مثل إخوان السوء، أو مجتمعات الفساد.

ومعرفة عناصر وعوامل الشر لا تكفى - فى رأى المحاسنى - لأن تجعل الإنسان أهلاً للقيام بالعمل كما ينبغى له، لذلك فهو يعرض الأساس الذى بدونه لا يثاب المرء على عمل. ذلك لأساس هو «الإخلاص» ومقابلة للإخلاص، فو يحدث أيضاً تفصيلاً عن الشيء الذى يلغى ألا وهو الرياء.

والرياء فيها يحدثنا عنه لا ينبغي العمل بحسب، وإنما هو إلى جانب ذلك من أكثر ما ينقص البشر.

والمحاسنى بهم ما ينقص البشر، ويذكر منها أهمها، وهى فى نظره بعد الرياء: الكبر والعجب والعرى والحسد.

ثم هو لا يكفى يشرح العوائب الوحيدة لهذه السيئات، وإنما يبين أسبابها وكيف يكون تجنبها والعلاج بها.

وفى الفصل الأخير من «الرعاية» يرسم المحاسنى للإنسان برنامجاً يسير عليه «فى الليل والنهار» وينهى كتابه بالصيغة التى يمكن استخلاصها من الحديث التالى:

«مأذنبان جائعان أرسلا فى غم بأفسد لها من حب الرجل للمال والشرف فى دينه».

وهكذا، فإن فرحة الرجل بتكريم الناس له لما يظهر من برء وتقواه هى الخدعة الكبرى.

ويوضح بما سبق أن المحاسنى هتم فى كتابه أكبر الاهتمام بعرفة أسرار القلوب.

ويمكن لقول بأن المحاسنى لم يسطره ألا لتطهير القلوب وتخليصها من الآفات، وتحريرها من كل ما عدا الله، أو من كل ما يعوقه عنه تعالى،

وختاماً لهذا الموحى عن الرعاية، نعود إلى ذكر الأستاذ ماسينيون فى تقديره لها، إذ قال بعد ذكر «قوت لقلوب» للمكى، و«الإحياء» لغيرالى

«.. ولكن أيا منها لم يصل إلى ما وصل إليه المحاسنى، فى تسلسل أحوال النفوس وفى منهج علم النفس لتجريبى»^(١)

(١) لويس ماسينيون: دراسات فى ٢١٦

٢ - كتاب الوصايا^(١) :

يسكون هذا المخطوط من ٥٦ ورقة، وهو من بعد «المرعاية» أضخم مؤلفات المحاسبى، الموحود بين أيدينا، أما من ناحية قبضته لأدبية فلا نرى أنه جدير بأن يوصع في الصف الأول من كتبه، والعنصر النفيس فيه، أن المحاسبى يعرض لمحات من حياته، ويشف عن حيرته وقلقه خلال بحثه عن الطريق الذى ينبغى عليه اتباعه، ثم هو يتضمن نقداً عنفاً لاذعاً بلغنى عامة، وغنى ابن عوف بالذات ولكنه مع ذلك تعد مشوش، يفتقر إلى المنطق وبراهينه ظلت ضعيفة رغم اجتهاده، وقد لوحظت بعض التناقضات في هذا الجزء من الكتاب.

ومن لأمر ذات المعزى الواضح أن أحاديث كثيرة يعتمد عليها في هذا المقام، ليست بذات سند قوى، ولا تعد من مجموع الأحاديث الصحيحة.

وقد خصص المؤلف قراءة الملث الأول من الكتاب للموضوعات السابقة، ويشتمل بعدها مباشرة على مسألة التشف في الحياة معاًبلاً بها الفصول الخاصة بالغنى.

وهذا الموضوع بطبيعة الحال فرصة مواتية لهجوم محدد على لغنى لم تكن لتفوت صاحبه، ثم هو يتحدث عن الإسراف ادى ينهى الله عنه في مختلف أشكاله، وعن اليخل، فيقول:

«إن البخیل یعید عن الجنة».

ونصح بالاعتصام في مخالطة الناس فهي مصدر لارتكاب الذنوب

(١) مخطوط بالمتحف البريطانى رقم ٧٩٠٠ وطبع حديثاً بالقاهرة.

إلا من تعاونوا بالمخالطة على البر والتقوى.

وفصول الوصايا تتوالى بعد ذلك - فيوصي المحاسبي بأن يأخذ المرء حظه من المتاع الحلال، وأن يحذر إبليس، وأن يتجنب أغات القلوب مثل الكبر والعجب، وأن يتأمل في حقوق الله ويرعاها، وأن لا ينساق في الجدل أو يتهور في البحث في قضايا لإلهيات التي بعثت الفتنة بين المسلمين، وأن يتغنى الأحاديث التي تصل العبد بالله، وأن يجتهد في أداء ما يرضى الله، وأن يلزم نفسه بالصلاة في موافقتها، وبالصوم والمح، وأن يطهر نيته، ويحبتب ارتكاب الذنوب، ويدعو الله سرًا، ويتفكر في كتابه على الدوام، ويتخلص من المال الحرام.

وبعد ذلك يعود المحاسبي لمرة الثالثة - مما يدعو الدهشة - إلى حديث العنى، لا للهجوم والنقد، ولكن لبيان جوانب الحرام منه، ويذكر في هذا الصدد قول أحد الصحابة:

«إذا كان الكسب حلالاً فالعمل طاهر»^(١).

والفصل مبحث في نفس القضية وفي حقوق الله في المال ووجوب الإنفاق في سبيل الله.

ويحتم الكتاب بحديث السكر الواجب لله، ويوصى بأن يكون العمل خالصاً لوجهه لا ابتغاء الثناء والتكريم.

٣ - كتاب أدب النفوس^(٢)؛

وهو مخطوط يبحث في نفس مباحث «الرعاية» وتحليل الجواب

(١) ص ٣٤ من مخطوط الوصايا.

(٢) مخطوط جاز الله مكتبة إستامبول رقم ١١٠١

النفسية فيه أفل عمقاً، وإن كن يزع إلى التصوف بصورة أوضح من «الرعاية».

٤ - كتاب المكسب والورع والشبهات^(١):

وهذا المخطوط من المؤلفات الأساسية للمحاسبي لقد كتبه في فترة متأخرة من عمره.

لذلك فهو يعكس آراءه في القضايا الكبرى بعد طول اختصار لها في فكرة:

قضية لكسب الذي لا يرقضه إن كان حلالاً.

وقضية الورع.

ثم قضية الشبهات.

وأهمية الكتاب الخاصة ترجع إلى ما يظهر فيه من معرفه صاحبه الوسعة لآراء الغير، وإدراكه التام لها، بحيث يجلى لنا ما بينها من دقائق الخلاف.

إنه يذكر فيه أربع مرات الإمام أحمد بن حنبل، وهذا دليل إخلاص المحاسبي، وصفاء نفسه، فهو قد اختلف مع بن حنبل، ولكنه مع ذلك ينظر إليه نظرة المقدر لأهمية آرائه.

ويبرز لنا المحاسبي أيضاً في هذا الكتاب قلق أهل اتقوى في عصره بالنسبة إلى ما هو حلال وإلى ما هو حرام أو متشبه.

(١) مخطوط جاز الله بمكتبة إستانبول رقم ١١٠٦.

٥ - كتاب ماهية العقل ومعناه^(١)؛

يبحث هذا الكتاب في جوهر العقل، ويشرح ماهيته ووظائفه وفائدته. وقد نشر أخيراً في لبنان تحقيق الدكتور حسين القوتلي.

٦ - كتاب المسائل في أعمال القلوب والجوارح^(٢)؛

ويبحث في لقضايا الخاصة ببعض مشاعر القلوب وبعض أعمال الجوارح، ولا توحد وحدة بين المسائل التي تتناولها. إنه يعرض لعمل الخير ابتغاء مساعدة الغير وإسعادهم، ويعرض لعمل الخير سرّاً، ولأثر المجلس وغيره في التفريق بين الناس، ولتقوى الله، ولوسائل تطهير العمل، وللواقف وللتفويض، ولعرفه ومراقبه النفس، وللمغفرة، ولتسيان الفروض والمحرمات ولما هو حلال أو حرام في النظر إلى المرأة.

وينتهي الكتاب بمسألة النذر لله وما يتصل به من أحكام.

٧ - كتاب التوهم^(٣)؛

وقد سبق أن تحدثنا عنه.

٨ - كتاب المسائل في الزهد^(٤)؛

قد يوهم عنوان الكتاب بأن المحاسبي خصه للبحث في الزهد فقط

(١) مخطوط جاز الله بمكتبة ستامبول رقم ١١٠١.

(٢) مخطوط جاز الله بمكتبة ستامبول رقم ١١٠١.

(٣) مخطوط بمكتبة أكسفورد رقم ٦١١ وطبع حديثاً.

(٤) مخطوط جاز الله بمكتبة ستامبول رقم ١١٠١ وطبع حديثاً.

ووقع الأمر أنه يبدأ بعرض مفهوم الزهد وأصوله وأسبابه ودواعيه، ثم يتطرق إلى الموضوعات التالية:

القصد في الكلام.

لتأمل بألوانه.

ما يجب على العبد من الشكر لله.

الفروض والنوافل

ال فقر.

إبليس ومكرهه وكيف يكون لتخلص منه.

الحسد والكبر وأسبابها

الصدق في صورته المختلفة.

الرياء ومظاهره.

طاعة الله وكيف يعمل الإنسان لتقويتها وتطهيره، ولعوامل التي تقوصها، مثل سوء رغبة النفس.

ويبحث بعد ذلك في أفضل العبادات.

وفي هذا المقام يخصص المحاسب دراسة هامة لمسألة العطف على الفقراء ومساعدة من يحتاج إلى الرعاية، ويقول:

«ن لله في غنى عن عبادك، وتفضلها عنه مساعدتك للغير».

ثم ينتقل المؤلف إلى إسداء نصائح النفسية للمعلم والمتلميذ.

وعرض لصلاة ومكانتها، وكيف تقام في مواقيتها، وللنزوع إلى الشر أو إلى الخير، والتعريف بهما تعريفاً دقيقاً.

ثم يعود إلى ذكر إبليس؛ هل هو يعلم بعمل الإنسان مستقبلاً أم لا؟ هل هو يدعو إلى الخير أم لا؟

وفي نهاية الكتاب يأتي حديث الزهد للمرة الثانية تحقيقاً لعنوان الكتاب، فيخصص بالحديث فصلاً عن الزهد فيما يتعلق بالطعام.

٩ - كتاب بدء من أناب إلى الله تعالى^(١)؛

وهو كتب صغير الحجم، نافذ الفكرة عميقها، ويتناول بالبحث الطريق الذي يجب أن يسلكه للوصول إلى الحق، هؤلاء الذين ارتكبوا الذنوب وقست قلوبهم لخلوها من التقوى، وعصوا أمر الله، كما يعرض للوسائل والمبادئ التي تعين على مقاومة النفس وتدفع بالإنسان إلى الصراط المستقيم.

وميزة هذا الكتاب: أن المؤلف يشرح فيه للنفس قصولاً غاية في الأهمية، وهو يصورها وكأنها كائن مستقل يزرع بطبعه إلى شر، وفي مقابلة النفس تقف نية الإنسان، وهي التي تقوى وتضطرب لابتعاد النفس عن سبيل الله. والمحاسبي هنا يعمل في براعة ياهرة على تحذير الإنسان من سكر النفس حتى تسيطر الأولى على الثانية فتجنتها عبث الحياة الدنيا، وتعيدها إلى سبيل الله، وهو الفاية العظمى.

وقد صور هذا الصراع بين الإنسان ونفسه في تعبيرات تبلم أحياناً أقوى دوحات لتأثير.

١٠ - فصل من كتاب العظمة^(٢)؛

يختص هذا المخطوط بمسألة وحدة الله، والله واحد. ليس في الإمكان أن يكون اثنين ولا ثلاثة

(١) مخطوط حار الله بمكتبة استامبول رقم ١١٠١

(٢) مخطوط حار الله بمكتبة استامبول رقم ١١٠١.

وبراهين المؤلف على ذلك: تعتمد على وحدة وتالف الخلق، وكل مخلوق له مكانه المعلوم، وغرضه المعلوم.

إن كل مخلوق يعتمد على مخلوق غيره، وهذا المخلوق يعتمد بدوره على آخر.

فالعالم سلسلة، وإن تكسرت إحدى حلقاتها تكسرت السلسلة. وهو الدليل على أن خالق الخلق واحد وهذا هو البرهان المعتاد للمحاسبى في التدليل على وحدة الله

والانسجام الذى يسود العالم جميعه سببه واحد، وهو الله وما وقع من كوارث على الشعوب القديمة التى رفضت التوحيد هو البرهان فى رأى المحاسبى على هذا التوحيد.

١١ - مختصر كتب فهم الصلاح^(١):

وهو مخطوط يبحث فى شعائر الصلاة، والإعداد الروحى لها من المؤمن، حتى يحقق العاة المطلوبة، ألا وهى تقوى الله.

١٢ - كتاب فى المراقبة^(٢):

وهو مخطوط يتعلق بمسألة المراقبة، وقد قسم المؤلف هذه المسألة إلى بنود أربعة:

(أ) معرفة الله

(ب) معرفه إبليس.

(١) مخطوط بدار الله بكتبة إستانبول رقم ٩٠٩.

(٢) ويسمى أيضاً «شرح المراقبة» مخطوط القاهرة ث ١ س ٣.

(ج) معرفة النفس.

(د) معرفة ما يجب عمله وكيف يكون الإخلاص في العمل.

وعرض أيضًا للصفات العشر التي يتصف بها أهل المراقبة، والتي يصلون بواسطتها إلى مدارج روحية عليا، كما يتحدث عن المية وعن النوبة.

١٣ - كتاب إحكام التوبة^(١)؛

وهو يبحث في قضايا التوبة، كما يدل على ذلك عنوانه. وسوف نعرض له تفصيلاً فيما يلي عن الفصول:

١٤ - كتاب المسترشد^(٢)؛

وهو كتاب يمكن وصفه بأنه مجموعة نصائح لا يكاد يرتبط بعضها ببعض وتهدف إلى إنارة السبيل في مسائل الدين من يتغنى ذلك.

١٥ - كتاب العلم^(٣)؛

ويمكن أن نسميه بـ «كتاب المعرفة».

والمحاسبي يقسم هذه المعرفة إلى ثلاثة أقسام:

(أ) معرفة الحلال والحرام.

(ب) معرفة ما يتعلق بالحياة الأخرى.

(١) مخطوط القاهرة ت س ٣.

(٢) مخطوط القاهرة ب س ٣. وطبع بيروت طبعة أنيقة فاحرة تخفى (عبد الفتاح أبو غدة).

(٣) مخطوط مكتبة ميلانو رقم ٢ م ٤٦٠.

(ج) معرفة الله.

والمؤلف يقسم المؤمنين أيضًا فريقين: فريق ظاهره التقوى وهم عدم وفريق الذين يسعون إلى التطهر من كل ذنب خفى.
والمخلاصة التي يؤكدتها: أنه لا يمكن الجمع بين حب الحياة الدنيا ومحبة الله، فلا بد من الاختيار.
أما المحاسبي: فقد اختار الله منذ البداية.

١٦ - كتاب الصبر والرضا^(١):

وهذا المخطوط يبحث في أهم مبادئ الزهد: الصبر على ما يكتبه الله، والمخضوع التام لإرادته، وقد فقد هذا المخطوط فيها عدا الورقات الثلاثة الأخيرة منه التي نشرت.

١٧ - «المعرفة»:

وأوله. «ما استعان أحد على نفسه وإحراز ديه بمثل المراقبة». شرح فيها المعرفة لله ولغيره» ووجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة الأزهر.

١٨ - رسالة في التصوف:

بالمكتبة ليلدية بالإسكندرية ضمن مجموعة هي الحادية عشرة منها.

مؤلفات مفقودة:

هناك كتب للمحاسبي لم ينبق منها شيء يذكر مثل:

(١) مخطوط بملكتيه الشرقية بحديه بالكيور رقم ١٠٥.

«كتاب التنبية» الذي تحتفظ مكتبته إسمابول برقع ورقة مخطوطة منه.
أما الكتب التالية فهي مفقودة بأكملها.
«كتاب أخلاق الحكيم» الذي ذكره المحاسبي في «المسائل في أعمال
القلوب والحوارج» و«كتاب الدماء» الوارد ذكره في كتاب «الأنصب»
للسمعاني، والذي تحدثت عنه فيما سبق.

وقد ذكر أبو علي بن شاذان يوماً كتاب الحارث في الدماء «فقال. على
هذا الكتاب عول أصحابنا في أمر الدماء التي حرب بين الصحابة^(١)، وفي
هذا الكتاب يتحدث المحاسبي عن وقع بين الصحابة من القتال، وقد ذكره
أبو علي الفضل بن شاذان المتوفى سنة ٣٥٠ هـ في كتابه: «الكف عما شجر
بين الصحابة» الذي قرأه الذهبي واقتبس منه الياقبي كثيراً عن ثروة ابن
عوف في كتابه (دروس الرياحين في مناقب الصالحين) وكتاب «نشر
المحاسن الغالية» ج ٢ ص ٣٨٢ - ٣٨٣

و «كتاب التفكير والاعتبار» لمشار إليه في (الفهرست) لابن النديم

الترتيب التاريخي لمؤلفات المحاسبي:

ترتيب مؤلفات المحاسبي ترتيباً تاريخياً، أمر نعتز به عقبات كثيرة
فالأدباء لم يذكروا شيئاً مما قد ينير السبيل في شأن هذا الترتيب
ولمستشرقون لم يحاولوا القيام به أصلاً.

أما المؤلفات ذاتها فلا نجد فيها إشارات تعيها أو تاريخاً يستدل منه على
الفترة التي كتبت فيها.

وبن عرض هنا محاولتنا لوضع هيكل هذا الترتيب التاريخي، وكان

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ٢١١، وتهذيب إسهديب ج ٢ ص ١٣٤، ١٣٦

هدف منها تفسير التناقض - أو على الأصح، التطور في موقف المحاسبي الخاص بالكسب وإثنا ليعترف بأنها محاولة مبدئية، ولكن عذرها في ذلك بأنها أول محاولة من نوعها بشأن كتب هد الصوفي.

ولفكرة الأولى التي أسسها عليها هذا التصنيف تصدر من أن المحاسبي لم يولد صوفيًا، لقد تصوف على مراحل - ميل إلى التصوف، ثم نزع صوفية تقوى شيئًا فشيئًا، ثم الوصول إلى قسم التصوف بعد سنين طويلة يقول الأستاذ ماسينيون في هذا:

«يبدو أن المحاسبي تدرج في تكوينه على يد معلمين مختلفين، ولم يتعق بأحد منهم تعقًا حاصًا، كما يبدو أنه لم يتحول إلى التصوف إلا في فترة متأخرة، وتحت تأثير أزمة نفسية»^(١)

وبن برى أن المحاسبي لم يحول فجأة وبطريقة حاسمة إلى التصوف، فكتبه لا تدل على شيء من هذا، ولكننا نعتقد مع ذلك أنه لم يرتفع إلى أعلى مدارج صوفه إلا في فترة متأخرة

وي رأينا أن المحاسبي سر في بدء حياته، كمؤلف، على الأساليب الشائعة لدى كتاب عصره، ولم يخرج عنها في شيء كثير

ورغم ظهور النزعة الصوفية لديه في هذه السنين المبكرة، فإن المؤلف يغلب عليه طابع الكتاب من علماء الدين، وقد اتحدنا نموذجًا لكتب هذه المرحلة كتابه: «هم القرآن» وهو الذي يناقش فيه فصائل الدين والإلهيات.

إنه كتاب جدل لا يفرق عن غيره من كتاب علماء عصره، ويتقدم المحاسبي في مسالك التصوف، ويتقدم في العمر، فيصل إلى

(١) لويس ماسينيون - دراسات ص ٢١٢

مرحلة الضوح، تلك لقي يعتمد فيها الإنسان على حصيلة وافرة من التجارب وتشرف فيها قوه الفكرية على أوج قدراتها.

ويصل حينئذ إلى درجة عالية من النصف، اسمي - بكل تأكيد مما اتصف به في بدء حياته الفكرية،

ولكن الأمر الذي يميز لفترة الثانية هذه، هو ما يبرز في مؤلفاته من مقدرة رائعة على التحليل النفسي.

والنموذج الجلي لكتبه حينئذ هو: «الرعاية» والتصوف فيه ليس بالشمول الذي نجده مثلاً في كتاب «الوصايا»، ولكن براعته الفائقة في تحليل لأفاق التي تضل النفوس، وقدرته الفكرية البالغة أرفع الدرجات في تناول هذه الآفات، ودقة إدراكه لأسبابها وآثارها، ووسائل علاجها، كل ذلك لا يتأتى معاً لرجل في مقتبل شبابه الفكري، أو في مرحلة كهوله انقوى العقلية.

وفي السنين الأخيرة من حياته، يصل تصوف المحاسبي إلى أعلى قممه: ونسب مؤلفاته في هذه المرحلة بطابع الوصايا الصوفية الموجهة إلى هؤلاء الذين يسعون نحو السبيل لسوى، وهي لا تقتصر إلى التحليل النفسي، بيد أن هذا التحليل يصبح ركائنه رجع الصدى لمؤلفات المرحلة السابقة.

والنموذج الذي يمثل كتبه حينئذ هو: «الوصايا» الذي يقصد في بدايته كيف وصل إلى الطريق المستقيم، ثم يأخذ في النصيح بما يجب عمله، وبما يجب تجنبه للوصول إلى هذا لطريق.

والكتاب لا يوحى في تأليفه وأسلوبه بالكثير من الجهد المنظم المتواصل.

إن المحاسبي لا يعنى فيه حتى بإثبات أسايد الأحاديث التي يروها هل يكون ذلك لضعف في الذاكرة لديه؟ أم لأنه أصبح هو المرجع الذي

لا نزاع فيه، والذي لا يبازع، يؤمن الناس بمجرد كلمته، ويؤمن هو نفسه أن لا حاجة به إلى البحث عن الأسانيد وذكرها؟
 مهما يكن من أمر، فكتاب «الوصايا» أقل عمقاً من كتاب «الرعاية».
 يرى إذن أن المحاسبي تدرج في مراحل ثلاثة:
 الأولى منها: كانت تأليفه خلافاً على نهج تأليف معاصريه.
 والثانية: مرحلة التحليل المعسى الذي يبرز، ويتطلب الجهد والتحرية
 ونضوج الفكر.

ثم أخيراً فترة: التأمل الديني والصوفي.
 ولم تغل أي من هذه المراحل من التصوف، ولكن التصوف تدرج فيها بشكل واضح غاية الوضوح.
 ولا نقول بأنه كان هناك تحول مفاجئ جذري من مرحلة إلى أخرى،
 فلا شيء يدل على هذا في مؤلفات المحاسبي، بل ندحظ وجود علان
 قوية، تربط كل مرحلة بالأخرى.

كذلك لا نقول بهذا التقسيم على فترات متساوية.
 ونرى أن المرحلة الأولى استغرقت من بدء حياة المحاسبي الأدبية
 لذي لا نستطيع تحديده - إلى حوالي سن الثامنة والثلاثين من عمره.
 وقد يكون هذا الرأي مجازاً لجدل، وقد ننهم فيه بشيء من المجازفة
 ولكننا أدخلنا في الاعتبار عاملاً هاماً هو ظروف التعليم والدراسة في عصر
 المحاسبي، والعقبات التي كانت تعرض طريق طالب العلم، خاصة فيما
 يتعلق بالحصول على الكتب.

أما المرحله الثانيه، فنميل إلى ترجيح أنها امتدت حتى سن الخامسة
 والستين، أو أكثر قليلاً، ذلك أننا نعلم أن المحاسبي عاش حتى الثامنة

والسبعين، وغاب الظن أنه كان على صحة طيبة.

وتعرض فيما يلي بعض الملاحظات التي سوف تدعم ما ذكرناه، وإن لم تعط الحجة القاطعة:

هناك قصبتان تتناقض فيهما مواقف المحاسبي، ولا تفسير لهذا الساقص إلا لم تأخذ في الاعتبار المبدأ الذي بسبب عليه تصنيفا.

القضية الأولى: قضية الكسب فهو يميز الكسب في كتاب، ويتحرج منه في آخر. وسوف تعرض تفصيلاً لهذه المسألة في مناسبة تالية والحل الذي اهتدينا إليه يقوم على ضوء من هذا الاختلاف في الفكر.

أما القضية الثانية: فهي تختص بالجدل في الدين والإلهيات، وكان هذا النوع من الجدل السبب الأكبر في الخلاف مع الإمام أحمد بن حنبل، ولكننا نرى المحاسبي في كتب أخرى يوصي بتجنب الجدل في الدين والإلهيات ويذمه، فما تفسير ذلك؟

كان هذا الجدل مُرَّ شائعاً في عصر المحاسبي، وقد شارك فيه خلال المرحلة الأولى من حياته الأدبية، ولكنه فيما بعد - وبفضل التجربة التي عاشها - اقتنع بأن الجدل لا يزيد الناس إلا خلافاً.

وهذا التحليل لمنطقي للاختلاف الظاهر في آراء المحاسبي يؤيد - ولا شك - ما قلناه عن الترتيب التاريخي لمؤلفات المحاسبي.

كتاب الوصايا:

وهو يروى فيه كيف ألقه بعد النظر في عدد لا يحصى من الطرق المختلفة، وبعد أن درس تفسيرات وشروح العلماء وأطّل التأمل في أحوال الأمة والمذاهب الشائعة، وبعد أن كاد يستسلم لليأس لما رآه من فتن بين الناس ودعاء لدى أصحاب الرأي، ولكنه لم يقطع عن التفكير والتأمّن

وعن امتحان الناس وتجربة أمورهم. ولم ينقطع بحثه عن المرشد الهادي. وهو لم يوفق من أول وهلة في التعرف على هذا المرشد، فانتابته القنق حشيه أن يقوته العزم قبل الوصول إلى العاية، واستنحت نفسه حادًا في اببحث أكثر من ذي قبل:

وفي النهاية: نراه يلتقى بقوم أهل تقوى، ويتخذ منهم أدلاء إلى هداية، ويداوم على محالطتهم لينهل من لدنهم المعرفة.

وقد جعل مما تعلمه منهم شعارًا له، فلما انتهى أجلهم بالموت، رأى من واجبه وحثًا عليه أن يواصل الدعوة التي أقاموها بأن ينشر من حوله ما تعلمه على أيديهم.

إنها في الواقع حياته كلها، تلك التي يقصها عليا المحاسبي في هذا الكتاب، ولا مفاصل من أن يكون قد خطه في آخر سنيها.

وهناك دليل آخر ممدى في كتابه «الرعاية» الذي اتخذناه مثالاً لمؤلفات المرحلة الثانية.

ذلك: أنه يذكر فيه بابك، ويقفهم من حديثه عنه أنه مات. ونحن نعلم أن بابك توفي عام ٢٢٦ للهجرة، وباتتالي فالمحاسبي كتب هذا المؤلف بعد أن بلغ السادسة والخمسين من عمره.

وهذا الدليل بطبيعة الحال لا يحدد لنا تاريخ المؤلف عام التحديد، ولكننا نكرر هنا ما سبق عرصه من أن «الرعاية» تتأثر بشاط عكري مندعي لا يتأى في إساح رحل يشرف على الكهولة الفكرية.

والملاحظ من ناحية أخرى أن الكتاب لا يتضمن أى إشارة إلى أحداث لاحقة للتاريخ المذكور.

ولا نريد هنا أن نحاطر بترييب كل مؤلفات المحاسبي، فهذه الأمر

بحاج إلى أدلة أخرى أكثر دقة من تلك التي ذكرناها، كما يحتاج إلى دراسة أعمق لأسلوب المؤلف حتى يمكن تحديد ما نسميه بـ «الكتب الانتقالية» أي تلك التي تصل بين مرحلتين من مراحل حياة الصوفي. ونحن نكتفي بأن نثبت تصنيفنا التاريخي لما نحدده من مؤلفاته أكثر إيصاح لمرحل حياته الأدبية الثلاثة التي عرفنا بها.

مؤلفات المرحلة الأولى:

إن إنتاج تلك المرحلة التي نتحدث عنها من حياته، هي باديات هذا النمط من الجدل في الدين والإلهيات الذي شغله فترة ما، وأثار عليه حملة ابن حنبل، والمحاسبي يستنكرها في كتبه الأخرى التي وصلتنا وفي رأينا أن موقفه لا يختلف عما قام به الكثير غيره من علماء المسلمين؛ انشغلوا خلال فترة من حياتهم بمسائل الإلهيات والجدل فيها، ثم تركوا هذا الأمر في مرحلة تالية، وبدعوا على ما عملوا، ومن ذلك الإمام الرازي.

ما هي مؤلفات هذه المرحلة؟

إن التمثيل لمؤلفات هذه المرحلة من لصعوبة يمكن وذلك لفقد كثير من كتب المحاسبي.

من مؤلفات المرحلة الثانية:

- «المسائل في أعمال القلوب والجوارح»

- «الرعاية»

- «بدء من أدب إلى الله تعالى»

- «كتاب دُب النفوس»

ملاحظات بشأن كتابي: «المكاسب» و «التوهم»:

«كتاب المكاسب» للمحاسبي، يقدم لنا براهين تبلغ الغاية في قوتها المنطقية.. والأدلة التي يعرضها تأييداً لنظرياته، أو تلك التي يستخدمها لبيان خطأ غيرها من النظريات، تعتمد على تنظيم وتسلسل نادوين. والكتاب عامة يتحلى في تأليفه تركيز ذهني فائق، ونشاط فكري متصل، وهو يحوى من الآراء المختلفة المتنوعة - مع بيان درجات تفاوتها الديمية، ومن ذكر لأسماء ومراجع لا تحصى - ما يدل دلالة واضحة على أن عقل المحاسبي في فترة كتابته كان في أوج نشاطه.

لذلك ترى أنه ليس من مؤلفات المرحلة الثالثة، وهو أيضاً ليس من مؤلفات المرحلة الأولى بالدليل القاطع: فالمحاسبي يذكر فيه الحقيقة المأمون على أنه قد مات، ونحن نعلم أن المأمون توفى عام ٢١٨ للهجرة، وبالتالي يكون المحاسبي ألف كتابه بعد ثلاثة وخمسين من عمره، ولم يبق لنا سوى ترجيح أن «المكاسب» من مؤلفات المرحلة الثانية من حياته كاتباً..

أما كتاب «التوهم» فهو ممتاز بأسلوبه البليغ، وإن الوصول إلى مثل هذه المرتبة من البلاغة، مع اليسر في التعبير، يحتاج إلى ممارسة للكتابة زمناً طويلاً، وهو الأمر الذي دعانا إلى عدم اعتباره من مؤلفات المرحلة الأولى..

ويدفعنا هذا الاعتبار إلى ترجيح أن الكتاب أنشئ في بداية المرحلة الثانية من حياة المؤلف الأدبية..

من مؤلفات المرحلة الثالثة:

«كتاب الوصايا».

منهجه في التفسير

نرى الكثير من المتصوفين يحالفون الفقهاء في بعض الآراء، ويراد فريق منهم أن يصفى شرعية على منهجه في التفسير، فأنشأ ما سمي بالمعنى «الظاهر» والمعنى «الباطن»... ورجع بالبحث - في سبيل ذلك - إلى قصص الخضر وموسى، وتاريخهما في القرآن - في رأى هؤلاء المتصوفين يبرر هذا الموقف من لتفسير، ولكن يتضح مما قالوا أنهم غالوا وشطوا في الاعتماد على: «المعنى الباطن».

فابن عربي - مثلاً - كان بارعاً في ذلك وتفسيره في «ديوان ترجان الأشواق» غودج خالص للمنهج المذكور.

ونريد هنا أن نتبين ما إذا كان المحاسبى يلتزم بمعنى النصوص، أم هو على العكس من ذلك يحاول أن يعرض عليها ما يراه. فإن ما يسمى بالمعنى «الباطن» ليس في الواقع سوى تفسير للنصوص بما يتفق والآراء الشخصية، وكان هذا مذهب الإسماعيليين والباطنية عامة، كما نريد حسم قضية التأثيرات الأجنبية لدى المحاسبى فإن كان يلتزم بأسسه التراماً صريحاً فلا محل - إطلاقاً - فيما يخصه للقول بها أو التساؤل عنها.. يذكر المحاسبى في كتابه «المسائل، في أعمال القلوب والحوارج» الجملة التالية عن أبي الأحوص:

«لكل آية من القرآن ظهر وبطن، وحد ومطلع^(١)».

(١) محاسبى المسائل ص ١١٦ تحقيق عبد الناصر عطا سنة ١٩٦٩

ويفسر هذا بقوله:

أما ظاهره فملاوتها، وأما باطنها فتأويلها، وأما حدها فمنتهى فهمها..
وعند هذه الخلة هرق الله سبحانه بين الكافرين والصادقين فمن تلاها، أو
من صادق بلغ منتهى فهمها، لأن أقل الصدق من المرید المؤمن بعد الإيمان
بالآية أن يفهمها عن ربه، وإن لم يعمل بها. وإنما قصر الناس عن فهمها
لقلة تعظيمهم لقائدها..

وأما مطالعها. فمجاورة حدها، بالعلو والتعمق، والفجور والمعاصي
فمن ذلك قول الله عز وجل: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾^(١).
وتبين لنا هذه الفقرات من كتاب المحاسبي كيف كان المؤلف يشرح
لفظ «لباطن» شرحاً يختلف كل الاختلاف عما سبق ذكره.

وفي بعض لصفحات من كتابه «أدب لنفوس». يحذرها المحاسبي من
الاعتماد على العقل فيما يتصل بالسنة، فالسنة لا تكتسب بالعقل، إنها
تكتسب بالتمثل بالرسول ﷺ، وبالحضوع لكلماته أقرآن، واتباع
استن الشريعة، والاسترشاد بسير الخلفاء..

ولا أدل على مدى تمسك المحاسبي بالنص من الفقرات التالية من
فصل من كتاب الرعاية نعتبره النموذج الأمثل لمنهج هذا الصوفي، وهي
لا تبين عظم احترامه للنص فحسب، وإنما يعرض مبدأ الحق الواجب
للحوء إليه في حال الشك.

ويتحدث المحاسبي في هذا الفصل عن سرور العبد عندما يظهر عليه
من عمله قبل فرائعه منه وبعد فرائعه، وهل يحبط هذا السرور ثواب العمل
العمل عبد الله أم لا؟ ثم هل هو مذموم أم محمود؟..

(١) آية ٢٢٩ من سورة البقرة.

والفقرات التي نوردتها من الفصل المذكور تتعلق خاصة بسرور العبد
لثناء الناس عليه قبل الفراغ من العمل، وهي على شكل حوار مثلها في
ذلك مثل سائر فصول الكتاب، يقول المحاسب:

قلت: فإن اطلع عليه من قبل أن يفرغ من العمل فيسر بذلك
قال: ذلك مخنف فيه أحيط أم لا؟ إن كان سروره من حب المنزلة
والحمد..

قلت: أفليس قد روى عن النبي ﷺ في الحديث أن رجلاً قال
يا رسول الله، أسر العمل لا أحب أن يطع عليه فيطلع عليه فيسرقني
ذلك.

قال: لك أجران: أحر السر وأحر العلانية.

قال: هذا الحديث لم يقل فيه فيطلع عليه بعد فراغ منه أو قبل فراغ
منه، وقد يجوز أن يكون علم به قبل أن يفرغ منه، ويجوز أن يكون بعد
فراغه، فإن يكن قبل الفراغ من العمل فذلك أشد، وقد اختلف في ذلك:
فما لت طائفة: لا شيء عليه لا يضره السرور منه بالعزم المتقدم لله عز
وجل بالإخلاص الذي به دخل العمل، وروى هذا الحديث، وحديثاً عن
الحسن أنه قال: ربهما سروران، فإذا كانت الأولى لله عز وجل لم يضره
الثانية

وقالت فرقة: يحبط عمله إذا كان قبل الفراغ منه، لأنه قد نقض العزم
الأول وركن إلى حمد المخلوقين، ولم يحتم عمله بالإخلاص، وإنما يتم العمل
بخاتمته..

وكذلك يروى عن معاوية رحمه الله، عن النبي ﷺ: «إن العمل

كالوعاء، إذ طاب آخره طاب أوله». أي العمل بخاتمه، وبالله التوفيق.
والحديث قد روى: «من رأى عمله ساعة حبط ما كان قبله»،
ولا معنى لهذا عندهم إلا ما سألت عنه من سرور هذا بالرياء قبل أن
يفرغ من العمل، فقد رأى عمله ساعة فحبط ما كان قبله، ولا معنى لهذا
عندهم إلا ما سألت عنه من سرور هذا قبل أن يفرغ من العمل، فقد
رأى عمله، فقد حبط ما مضى منه وما بقي إلا أن يتمه على غير ذلك
العقد.

وأما حديث الحسن، فإنما روى إذا كانت الأولى لله فلا تهدمه الثانية..
أي لا تكسره..

وأما ما روى في الحديث الآخر: لا يصره، فهذا معناه، ألا يدع العمل
ولا يصره الخطرة وهو يريد الله عز وجل، ولم يقل: إذا عقد على الرياء
بعد عقد الإخلاص، لم يصره.

وأما حديث النبي ﷺ في مسألة السائل، قال: يا رسول الله،
فيسرنى من قبل حب المحمدة، فيكون فيه حجة، وقد يمكن أن يكون
إذا لم يصرح لم كان سروره - لمعان كثيرة.

قلت: فما تقول أنت؟

قال: كنت لا أقطع عليه بالحبط، وإن لم يتزيد في العمل، ولا آمن عليه
الحبط، فكنت أقف لاختلاف الناس في ذلك، والأغلب على قلبي أنه يحبط
إذا ختم عمله بالرياء.

وأما اليوم فقد تبين لي ذلك، فأنا أقطع به، لأنه عمل على الرياء من
أول قدم، وحسن عمله به، وقد أحبطت السنة عمل المرأى، وهذا قد حتم
عمله بالرياء..

قلت. فما تقول في الحديث الذي روى عن النبي ﷺ؟

قال. قد أحيرتك بما يمكن أن يكون به سروره لاطلاعهم، فإن يكن للنعمة أو لطاعتهم فيه أو للقدوة فله أجران أجر للعمل، وأجر سروره، لأن سروره طاعة بربه عز وجل إذ ظهر عمله، فسر ليفتدى به، فأخبره النبي ﷺ أن له أجر ما ظهر من عمله فسر ليفتدى به.

وإن كان سروره لحب الحمد والثناء فذلك عقد الرياء فلا أجر له بصح في الكتاب ولا في السنة تأويل من تأوله

وإن السائل سأل عن ذلك فأجابه النبي ﷺ، وإن الأمة مجمعة على الكتاب والسنة أنه ليس فيها أن الله عز وجل يأجر على الرياء، ولا يقول ذلك أحد من علماء الأمة.

وإن أحسن حال المرائي أن يعفى له عما اعتقد من الرياء ويبقى له أجر عمله ولا يحبط، كما تأول من ترخص في ذلك واحتج بحديث الحسن أن ذلك لا يضره، فأما أن يقول أحد له أجر عمله وأجر سروره بالرياء فذلك مالا يقوه أحد، فإن احتج بالحديث فإنه لا يحتاج أن الله عز وجل يأجر على الرياء.

والنبي ﷺ قد جعل له آخرين. أجر السر، وأجر العلابية، فأحسن أحواله أن يكون قال له. لك أجر ما أسررت، ولا يضرك ما ظهر..

وأما أن يكون له عن عقد لرياء أجر ثان فالذي لم يراء بعدما أطلع عليه، وأخلص لله قلبه، ونفى خطرت الرياء عن قلبه، أحسن أجراً، والمرئي أعظم أجراً، له أجران على قياس هذا القول، وذلك مالا يقوله مسلم بعقل.

فلولا أن الرجل كان في مسأله ما يدل على أن سروره كان طاعة لربه وإن لم يكن له بذلك علم، وأشقى من اطلاعهم، وسروره به لقله عنده، فلا يمكن أنه كان سروره إلا ببعض ما ذكرنا من النعمة أو لطاعة من أطلع عليه فيه، أو لأن يقتدى به

وقد روى عن عبد الرحمن بن مهدي أنه قال: إنما معنى هذا الحديث أنه أراد الفدوة، وقوله: أجر العلانية يدل على ما قال عبد الرحمن، لأن سروره سرور عما أعلن من فعله عندهم، فإن اقتدوا به كان له مثل أجرهم كما قال النبي ﷺ «من سن سنة حسنة فعمل بها كان له مثل أجر من يعمل بها» والله أعلم بما أراد.

غير أن الكتاب والسنة لم يدلّا على أن له أجراً على الرياء، وأن الله عز وجل لم يجعل المرائي أعظم أجراً من المخلص.

وبأول بعضهم في ذلك، مهم عبد الرحمن بن مهدي، أنه قال: إنه قدم على ما اعتقد من الرياء، فلذلك جعل له النبي ﷺ أجرين. أجراً على طاعته وأجراً على توبته.

وقد أخطأ من قال ذلك، لأن المرائي إذا ندم على ريائه أجر على توبته، وحبط عمله إذ قد أحبطه بالرياء، والحديث مع ذلك علمه من يرويه غير متصل، لا يرفعه إلى أبي هريرة، وأكثرهم يوقعه على أبي صالح^(١)، وهم من يرفعه إلى أبي هريرة، والله أعلم بحقوق الحديث أم لا، فإن كان محفوظاً فلا وجه له إلا ما ذكرنا. وإلا تركنا السنن بالتناقض له، وخرجنا من إجماع العلماء.

وقد يمكن أن يكون أطلع عليه بعد العمل قسر به، ولم يعلم لم كان

(١) وأبو صالح: كذاب

سروره؟ فأخبره النبي ﷺ أن سروره بذلك لا يضره، وأن له أجرين جر له على عمله، وأجر له فيما ظهر للعباد أن يعملوا بمثل عمله، فيؤجر فيهم إذا اقتدوا به، فدعاه النبي ﷺ إلى أن يكون سروره بالأحر فيهم لا بالرياء.

وإننا لنترك للقارئ أن يستخلص من هذا البص من «الرعاية» ما يراه، ولكننا نود هنا إثبات الملاحظات التالية:

إن المحاسبي في عرصه للفضية يذكر مختلف الآراء.

لا يقطع في المسألة بغير يقين، فإذا ما ثبت لديه الرأي لا يتردد في الحسم.

- يربط القضية الخاصة محل المناقشة بقضية أخرى أكثر شمولاً ولا تقيل الجدل، وهي هنا ضبط عمل المراني

- إذا رأى في تفسير معين للحديث ما يخالف لسنة عامة، وناقض ما جاء بكتاب الله عمداً إلى شرحه، دون إخلال بقواعد التفسير، بحيث يتفق مع المبادئ الثابتة المأخوذ بها.

- يهتم اهتماماً واضحاً بالإستناد..

هذه الدقة في التفكير، وهذا الإخلاص في العرض، يبينان لما مدى تعلق المحاسبي بالسنة، وتطبيقاتها في غير أحرف أو إعراض.

المَبَابُ الثَّانِي

فِي الْعَقِيدَةِ

• اللَّهُ

• موقف المحاسبى من الفرق

• المحاسبى والمذاهب

• الفرض والنقل

• القيامة في تصور المحاسبى

الله

(أ) مفهوم فكرة الله:

كتب المحاسبى كثيراً في مسألة وجود الله. ولكن البراهين التي عرضها في هذا الشأن لم تصلنا بكامل تفاصيلها.

وفي القرآن نجد دليلين على وجود الله:

الأول منها: يخاطب العقل، ويقوم على أن لكل معلول علة وأن الخلق لا بد له من خالق.

والثاني: كأنه يخاطب الصغير فيسأل مثلاً:

﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؟﴾^(١).

ونحن لا نعلم إن كان المحاسبى قد أتى بغير ذلك من البراهين، ولكنه على أي حال كان يرى أن شرط النجاة الأول للإنسان هو معرفة الله بالوسائل التي مكنه الله من معرفته بها.

وهذه الوسائل في رأى المحاسبى تكمن في خلق العالم وفي تنظيمه وفي قدره الله على منح الحياة للمخلوقاته وإماتتها.

أما ما وصلنا مما كتبه المحاسبى عن وحدانية الله، فهو كثير. ويبدو أن هذه المسألة كانت من شواغله الكبرى، مثله في ذلك مثل الكثير من

(١) آية ١٠ من سورة إبراهيم

المسلمين. وعظم شأن هذه أسئلة لدى المسلمين عامة يرجع إلى ما أولاها إياها القرآن والنبي من صدارة.

وكان لابد للإسلام من أن يهتم بقضية وحدانية الله، لأنه قد نشأ في بيئة الوثنية الشائعة بين عرب الجاهلية، ولذلك حارب الإسلام تعدد الآلهة، وسأل الكثير من مداد العلماء في الحديث عن قضية التوحيد؛ ومن أجل القضاء على كل الآثار الوثنية، وندفاعاً عنهم في تطهير مفهوم توحيد الله، رفض المعتزلة القوم بصفات الله، محالفين في ذلك رأي أهل السنة، بل اعتبر المعتزلة هذه الصفات بالشكل الذي صورها أهل السنة نوعاً من تعدد الآلهة، إن استزلة اعتبروا الذات والصفات وحدة واحدة.

ويتحدث المحاسبي عن مسألة الوجدانية في الكثير من مؤلفاته وعلى الأخص في الفصل المتبقى من «كتاب العظمة» الذي يتناولها بصورة خاصة، والصفحات المحفوظة من «كتاب التنبيه» التي نغمرنا فيها. بأنه بحث الموضوع أيضاً في كتابه: «مهم القرآن».

وهناك برهان يعتمد عليه المحاسبي في أغلب ما كتبه حول الوجدانية: وهو البرهان المبني على الانسجام لدى بسود العالم في سائر أرجائه.

إن كل الموجودات في هذا العالم إنما وجدت لغرض محدد، وكل جزئية منه إنما هي أساس لجزئية أخرى ترتبط بها، وهذه بدورها أساس لأخرى، فكل جزئية تخدم أخرى وتخدمها أيضاً جزئية غيرها.

فإنبات مثلاً إذا كان الغرض منه وجود الحيوان، فهو نفسه لا يمكن أن يكون له وجود إلا بالتراب ولا توجد له حياة إلا بالماء وبالتالي: فالكل سلسلة وكل حلقة من السلسلة لازمة حتماً لفألف المجموع.

ويتحدث المحاسبي في استفاضة عن ارتباط الكل بالكل، فيشمل بيانه

السماء نفسها وما في السماء، كما يشتمل الأرض، وما على الأرض من الأشياء.

ثم بين أن هذا التآلف لا بد من أن يكون به خالق واحد، إذ لو كان هناك خالق ثان لما وحد التآلف. فهذا اجتماع اثنان وجد الاختلاف بالضرورة بين إرادتهما حيث يطلب كل منهما أن يكون به الملك كله ولا يتأتى بغير ذلك الكمال.

ومن لم يطلب ذلك منها فهو إذن يقبل الوصف بأسفضان، والناقص محتاج، والمحتاج مخلوق.

ومن ناحية أخرى، فمن أراد منها للملك والكمال وأدركهما مع الآخر منها، وبالتالي فليس ممكناً أن يكون هذا الآخر هو الإله.

وهذا لآخر، إذ أراد الملك والكمال ولم يدركهما فهو عاجز، ولو كان عاجزاً عما يريد لنفسه فلا بد وأن يكون عاجزاً عما يريد به بالسبب إلى الغير.

وإذن مسجن أمام أمرين لا يصح إلا واحد منها إما أن يكون كلاهما قائداً، وإما أن يكون أحدهما قادراً، وفرض إمكان أن يكون الاثنان قادرين محال، لأن كلاهما يطلب الكمال بنفسه وتحقيق إحد الإرادتين يستلزم قماء الأخرى، وتحقيق الإرادتين معاً محال، لأن كلاهما يطلب الملك كله.

فمن قبيح إلا إله واحد، والقول بالتوفيق بين اثنين محال فيما يتعلق بالإله، لأن التوفيق لا يتأتى بغير تنازلات متبادلة، أي أن يتنازل كل طرف عن شيء ما.

وهذا محال بالسبب للإله، وهو من أمر مخلوق

ويقدم المحاسبي دليلاً آخر على وحدانية الله من الكوارث التي حلت بالشعوب الأولى وجاء ذكرها في القرآن، وقد حلت الكوارث بهذه الشعوب لأنها لم تصدق بما جاء به الأنبياء وهم يدعونهم إلى التوحيد. فالمحاسبي يؤمن بوحود الله وبوحدانيته وهو أيضاً يؤمن بخلود. ويؤكد هذا الخلود دائماً ولكن براهينه على ذلك لم تصلنا في المؤلفات المتبقية عنه



أما فيما يختص بصفات الله، فلم نجد في كتبه التي وصلتنا تفصيلاً صريحاً مواقفه من الجدل الذي ثار حول هذا الموضوع بين المعتزلة وأهل السنة، ولكن رأيه مع ذلك يتضح لنا في يسر لسببين:

الأول منهما: أنه يرفض ما قال به جهنم في هذا الأمر^(١).

ومعروف أن جهنماً كان ينكر الصفات ويرى أنها منتصفة في جوهر الذات الإلهية^(٢)، ويرفض المحاسبي أيضاً آراء المعتزلة الذين أخذوا بهذه الفكرة.

أما السبب الثاني: فهو موقفه المحدد كل التحديد من الجدل الخاص بخلق القرآن، وهي المسألة التي سوف نعرض لها فيما بعد.

وإن رفض آراء جهنم والمعتزلة في صفات الله، ثم الأخذ بالرأي القائل بأن لقرآن غير مخلوق، أمران لا يدلان إلا على أن المحاسبي كان يؤمن بوجود الصفات مع الذات، ويتفق في موقفه مع أهل السنة وعلى أي حال، فالشهرستاني يؤكد لنا هذا، حيث يذكر أن المحاسبي من الذين جاهدوا

(١) المحاسبي، (برعاية)، ص ٢٤.

(٢) الشهرستاني: كتاب الملل والنحل ج ٢ ص ٩١.

صد المعتزلة بشأن الصفات، وأنه اعتمد في ذلك على الآيات التي تقول بها، وأنه يتفق في الرأي مع مالك وابن حنبل^(١).

ولم نجد كذلك في مؤلفات المحاسبى التي وصلتنا تفصيلاً موقفه من المشبهة.

ولكننا نرى إمكان تحديد هذا الموقف بما يلي

إنه يرفض رأى جهم الذى يعارض المشبهة.

ولكنه في نفس الوقت يرفض رأى المشبهة ويؤمن بأن الله لا شبيه له.

وكان هناك رأى وسط بمثله مالك وابن حنبل، لا يأخذ بما يقول به

المشبهة، ولا ينقيض ما يقولون به. أى يرى جهم. وهذا الرأى الوسط

يتلخص في أن الله في القرآن يقول: بأن له اليد والعين فمن تصدق بذلك

كما أنه ليس هناك ما يدعو إلى تفسير هذه الآيات بالمجاز، ونحن

لا نعرف ما أراد الله بقوله هذا؛ والإيمان لا يحتم علينا أن نعرفه.

إن ما يحتمد الإيمان هو التصديق بأن الله لا شبيه له، وهذا ما تصدق به.

فإذا رفض المحاسبى رأى المشبهة ونقيضه، لم يبق له إلا أن ينضم

إليه الرأى الوسط وهو، الأمر الذى يؤكد لنا الشهرستانى بقوله: إن

المحاسبى في هذا المجال يتفق في رأى مع مالك وابن حنبل^(٢).



هل الله في كل مكان؟

كاست هذه المسألة مثار جدل بين المعتزلة وأهل السنة.

(١) الشهرستانى: كتاب الملل والنحل ج ١ ص ٣٦، ٣٧

(٢) لشهرستانى كتاب الملل والنحل، ج ١ ص ٩٧

أما فيما يتعلق برأى المحاسبى بشأنها، فقد تفضل الأستاذ ماسبيون،
باطلاعنا على نص لهذا الصوفي محمده^(١).

وفي القرآن أدب كثيرة هسرت تفسيرت مختلفه، وفي النص المذكور
للمحاسبى بره يجمع لآيات التي تقول بأن الله في أعلى، أو في السماء،
ويتحد هذه الآيات أساساً لمذهبه، ثم يفسر الآيات لأخرى - التي تقول
مثلاً: بأن الله معنا حيثما كنا - تفسيراً يتمشى مع هذا المذهب.
والمحاسبى يرى أن الله في السماء على عرشه، وليس الله حالاً في
الأشياء أو المخلوقات هو مالك الملك، فوق العالم، لا نظير له في جلاله
ورفعته، وقوله إنه معنا، لا يعنى كونه معنا بداته، وإنما هو معنا بعلمه



وفي نفس الفصل المذكور، يقول المحاسبى صراحة بأن الله ليس في
أى من مخلوقاته

وهذا يسير لما الطريق، ويمسر موقفه من وحدة الوجود.
وهو في كتابه: «امسان في أعمال القلوب والجوارح» يروى الحديث
اتتالى:

«من عادى لي ولياً فقد اذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب
إلى مما احرصه عليه، وما يرال عبدي يتقرب إلى بالوافل حتى أحبه فإذا
أحبته كتب سمعه أبدي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش
بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعذني لأعبدنه»^(٢)

(١) فصل من كتاب «فهم القرآن» سر ضمن كتاب «تبييه لنبية والعبى، في الرد
على المدراس والحنلى» المطبوع بالقاهرة ص ٣٦٧
(٢) وراء الإمام البخارى.

ويقول المحاسبي، بن الحديث معناه أن الله يزيد عقل العبد وحسبه قوة حتى يزيد من عبادته له بطاعته، ولكنه لا يعنى بأى حال أن الله كائن بذاته فى سمع العبد أو فى بصره: تعالى الله عن ذلك وقد رأى البعض نصيب فكرة وحدة الوجود لدى أغلب المتصوفين المسلمين.

ويسرنا هنا بوجه خاص أننا نستطيع نفيها نفيًا قاطعًا بالنسبة إلى المحاسبي على الأقل.

وما سبق ذكره يتبعه أيضًا أن المحاسبي لا يؤمن بحلول الله فى الإنسان. وهذا الرأى بالنسبة إليه ليس بالرأى العارض، وإنما نراه يكرره فى مواضع أخرى.

وتذكر على سبيل المثال تفسيره للحديث القدسي-

«يا بن آدم إن تقربت إلى امرأ تقربت إليك شبرًا، وإن تفرت إلى شبرًا تفرت إليك ذراعًا، وإن تعربت إلى ذراعًا تفرت إليك باعًا، وإن أتيت سعيًا أتيتك هرولة»، يقول المحاسبي فى هذا الحديث.

«وإنما هذا على حسن لمعونة، وسرعة الإجابة، والهداية بالعدد والتوفيق، والاكتف بالعصمة^(١)».

ويذكر نفس الحديث فى موضع آخر^(٢) فيقول إنه يعنى العون والتوفيق، ثم يضيف أن الله لا ينزل إلى أحد سواء كان العبد تقياً أم كان عاصياً.



(١) من «الرعابة» ص ١٢

(٢) فى المسائل فى أعمال القلوب والنجوارح ص ١٢٨

والمحاسبى يرى أن الله الاختيار فى كل ما يريد. ولا حق لخلقه عليه وهو يقصد بحديثه هذا المعتزلة الذين يقولون بأن للناس على الله حقوق، وبأن الإنسان الذى فعل الخير سوف يكون له ثواب، وبأن الله يتحنن عليه منح أفضل ما عنده للمخلوقات البشريه إذ يقرض عبده ذلك العدل والحكمة. «فكرة الصلاح والأصلح».

أما المحاسبى فيقول: إن الله يفعل ما يريد. يفر أو لا يفر حسب ما يشاء. فالعالم من خلقه، والعالم مكنونه، وموقعه من هذه المسألة هو فيها يبدو - الموقف التقليدى.

فهو يقول بأن الله هو الكمال مطلق وبأن عدل الله لا يد أن يكون كمال العدل، ثم يكرر أن الله هو الرحمة وهو الكرم لا يبتلى العبد إلا ليريدته تقوى ويريدته هرباً، فالأمراض مثلاً ليست إلا وسيلة لتطهير الإنسان من ذنوبه والمحسن اى امر به هدوها أن بحث قلبه على البحث عن سبل الالتجاء إلى الله.

ولكن إذا كان الله هو الرحمة، فكيف يكون البلاء العظيم.
وهو عصير الله الذى يؤدى بالإسار إلى الحميم؟

يسخص المحاسبى من هذه المشكلة بقوله مثلاً: إنا من ملك الله، وإذا تصرف الإنسان فى شيء من ملكه فلا يقال له هذا ظالم أو هذا سر؟ وعلى أى حال فقد حقق أهل السنة لتوفيق بين القول بعدل الله، ولقول بأنه يفعل ما يشاء، فقد «أ: إن العدل الإلهى معناه: أن الله يفعل ما يشاء، بإرادته ويعلمه فى ملكه ولا كان الأمر كذلك فظلمه إذن محال ونحن نعتقد أن المحاسبى لم يخرج عن هذا الرأى.

هناك اتجاه إلى الموازنة بين مفهوم المسلمين لله ومفهوم المسيحيين له

فيما يختص بحبه لمخلوقاته: حيث يبرر الله في المفهوم الإسلامي - كما يزعمون - إلهًا شديد العقاب، بعيدًا كل البعد عن مخلوقاته، ويبرز في مفهوم المسحيين إله رحيم وعطف لا ينفك ويبحث عن لسان الضال ليهديها.

والواقع أن القرآن يستخدم - في سبيل استعادة العاصي إلى الطريق السوي - التهديد بالجزاء والوعد بالثواب. وإن وُصف الله بأنه شديد لعقاب، فهو إلى جانب ذلك لعفور الرحيم المحب لعباده ولا ندرى لأي غرض يدأب البعض في عرضهم للمفهوم الإسلامي، على تفصيل جانب الوعيد فيه، وكتمان جانب الوعد الجميل، فيزداد الخلاف بين أتباع الدين الإسلامي وأتباع المسيحية.

وليس لنا هنا أن شرح هذا الأمر أو أن نقول فيه رأينا الخالص، ولكننا نريد فقط أن نعرض لما قاله المحاسبي في هذه القصيدة، إذ يحدثنا ما يلي في كتابه: «ماهية العمل»^(١) فيقول عن الله سبحانه:

بدعوك إن أدبرت، ويقبلك إن رجعت، ومحمدك على حظك، وينني عيبك عما وهب لك، ومحضك على النظر لنفسك.

إفما يُعرضك ليُصحِّحك - إن عقلت - ويفقرك ليغنيك. وينعك ليعطيك يمنك لقبيل افئفى لترضى فيعطيك الجريل الباقي، ويعيبك ليُحييك، ويفسك ليقبلك، ويدويك بالأمراض لتبرأ من سقم الدوب، ويعمك بالأوجاع ليعسلك من درن لخطانا ويعركك بالبلاء يلدن قلبك لطلب الفور.

ابتدأك بالنعم قبل أن تسأله، وثناها بعد ما صيغت شكره، وأدامها بإحسانه مع دوام الإعراض منك عنه^(٢).

(١) ماهية العمل للعارف المحاسبي ص ٢٣٧

ولسوف نريد من إيضاحها لموقف المحاسبي عند عرضنا لمفهوم الحب لديه فيما يلي من هذا البحث.

ويرى المحاسبي: «أن العقل عن الله تعالى لا عاية له، لأنه لا غاية لله عز وجل عند العاقل بالتحديد، بالإحاطة بالعلم بحقائق صفاته، ولا بعظيم قدر ثوابه ولا عقابه، إذ لم يعانها.

ولو عاين الله جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه بصفاته لما أحاط به علما. ولكن قد دفع اسم الكمال على الأعلى في الأسماء في العقل عن الله تعالى، لا العقل بأكمل الذي لا يحتمل الريادة.

ألا براه عز وجل بقول برسوله ﷺ: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^(١) وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾^(٢).

وروى عن الملائكة أنها تقول يوم القيامة:

«رب ما عبدناك حق عبادتك».

فلا أحد يساوي الله عز وجل في العلم بنفسه، فبصرف عن عظمته تعالى كمال صفاته كما يعلم الله عز وجل عن نفسه.

فأعظم العاقدين عنده، العارفين عقلاً عنه ومعرفة به، الدين أقروا بالعجز، إنهم لا يبلغون في العقل والمعرفة كنه معرفته»^(٣).

وفي القرآن:

﴿إِلَهٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، لَا يَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ، لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ

(٣) العقل وفهم القرآن ص ٢٦٩، ٢٢٠

(١) طه آية: ١١٤

(٢) طه آية: ١١٠

أَيْدِيَهُمْ وَمَا خَلَقْتَهُمْ وَلَا يُمْحِطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمُوتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

(ب) الله والعالم:

خلق الله العالم لا من شيء^(١)، والعالم ليس بحالده، والدليل على عدم خلود العالم عند المحاسبى هو الدليل الشائع لمؤسس على القول: بأن الحركة الملازمة للمخلوقات ليست بحالدة.

فهو إذن يبرهن على عدم خلود العالم بعدم خلود الحركة^(٢).

وحقق الله اناس في العالم، ولم يتركهم لعقلهم يهديهم ويرشدهم إليه، بل أرسل إليهم الرسل، هداة للحق وخاتمهم النبي محمد ﷺ.

وهؤلاء الرسل جميعاً من البشر، وهم خير البشر، ولكنهم لا يتصفون بغير صفات البشرية. والمحاسبى لا يرى في محمد سوى بشر، أوحى الله إليه بالرسالة طبقاً لما جاء في القرآن والحديث: ولم يطر إليه قط على أنه أكثر من بشر، إن محمداً ﷺ كان عبد الله ورسوله اصطفاً، لوحبه وختم به أنبياء^(٣).

جاء بالرحمة لبني الإنسان جميعاً، الذين يتبعونه منهم والذين يتوبون عنه على حد سواء.

فأما الذين اهتموا بهديه فلهم الجنة ورضوان من الله، ومن كن منهم يركب الذنوب فسيديقه الله العذاب، ثم يعفو عنه وهو الغفور الرحيم بعدده.

وأما الذين تولوا فلم يرل الله هم في حياتهم الدنيا من الكوارث مثل

(٣) كتاب العظمة، ص ٢٧

(١) البقرة: ٢٥٥

(٤) المحاسبى: استرشد، ص ٢١

(٢) الرعاية، ص ٥

ما أنزل بالشعوب الأول التي ضلت عن سبيله وعصته^(١).

والأدلة التي يعتمد عليها المحاسبي إثباتاً لنبوة محمد ﷺ، هي الأدلة الشائعة لدى المسلمين: فالقرآن معجزة، لم يستطع بشر أن يأتي بمثله أو يثل سورة منه.

ثم هناك المعجزات الأخرى التي حصلت خلال حياة النبي ﷺ، وذلك التي وقعت بعد مماته، أي الأمور التي تنبأ بها وتحققت فعلاً. وقبل ذلك كله فهذه ذكر الله لمحمد بأوصافه في الكتب السماوية لسابقة على القرآن^(٢).

ولكن المعجزات في هذا العالم لا تقع في كل مناسبة وبغير مناسبة. والمحاسبي يصح لها حدوداً. ورأيه هذا جدير بالتقدير والإعجاب؛ خاصة إذا علمنا أن أنصار الصوفية بالذات كانوا أكثر القائدين بالكرامات تحمساً، وكانوا يرونها في كل أمر، وإذا تصفحنا الكتب الجامعة للتراجع ولاسيما تلك التي ألّفت في عصور تدهور التصوف الإسلامي - لوجدنا أنها لا تكف عن ذكر الكرامات بغير حساب.

أما المحاسبي فيرى أن الأنبياء وحدهم يختصون بالمعجزات وهي من دلائل نبوتهم، وأنه ليس للبشر من غير الأنبياء أن يأنوا بالمعجزات، ويتحدث عن إبليس في «كتاب المسائل في الزهد»، فينكر معرفته بأسرار قلوب الناس:

«... لأنه لا يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور إلا الله رب العالمين، فهذا علم وصف الله به نفسه، فلا يعلمه أحد إلا من وصف من رسله. قال الله تعالى:

(١) المحاسبي: كتاب العظمة، ص ٢٨

(٢) المحاسبي: كتاب العظمة، ص ٢٨

﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا، إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾^(١).

وليس الشيطان من رسل الله عز وجل.

وقال عيسى عليه السلام:

﴿وَأَبَيْتُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْجِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾^(٢) فما في القلوب أحفى

بما في البست.

ومن حجج السبيى عليهم السلام أنهم يخبرون من يدعون بما يحدثون به أنفسهم عما يعلمهم الله عز وجل، ولو كان الشياطين يعلمون (دخائل الناس) ما ثبتت حجج السبيى، معاذ الله أن نقول هذا. ولو علمت ما في القلوب، كان ما في الأرحام أظهر مما في القلوب^(٣).

ويقول المحاسبى فى «كتاب المراقبة»: إن من يزعم أنه رأى أمورا تتعلق بالحياة الأخرى أو بالله أو برشته، ومن يزعم أنه رأى الله فهو كاذب، ومن زعم أنه رفع إلى السماء وكلم الله، أو زعم أنه أوحى إليه فهو صال يريد أن يصل الناس، ومن زعم أنه رأى الملائكة والجنات فهو كاذب.. وعليك مجانبة من يقول بمثل ذلك.

ويكرر المحاسبى نفس المعنى فى كتب أخرى له.



عن القرآن:

أنزل الله القرآن على محمد ﷺ، والقرآن ليس بمخلوق، وهنا يتجلى

(١) سورة الحن: آية: ٢٦، ٢٧

(٢) آل عمران آية: ٤٩

(٣) المسائل فى أعمال القلوب والجوارح ص ٨١، ٨٢

موقف محاسبي من مسألة الصفات، التي منها تتفرع مسأله خلق لقرآن، وهو يرى أن القائمين بحلق القرآن قوم ضالون^(١).

ويقول بكلا باذى:

إن رأى لمحاسبي في كلمات الله أنها من صفات الله القديمة ولم تحقق^(٢)، ولكن محاسبي الذي يؤمن بأن القرآن لم يخلق يرى في نفس الوقت أن الأحرف، التي تكون كتاب الله مخلوقة^(٣).

وفي القرآن تفسير كل شيء^(٤)، والفرق بين القرآن وبين كلام البشر كالفرق بين الله وبين المخلوقات^(٥).

ولمحاسبي يوصى على الدوام بالسؤال في القرآن، وبالخضوع لأحكامه وأوامره في الأعمال.

وهو يرى في القرآن والرسول بياناً من الله للبشر، كما يرى أنهم تحذير منه حتى يعلم المالكون حقيقة أمرهم^(٦).

ولكن، هل نحن أحرار في اختيار سبل نجاتنا، وهل في إمكاننا أن نهتدي إلى معرفة ما هو خير لنا؟

أما فيما يختص بإمكانية المعرفة، فالمحاسبي يرى أن لعقل الذي منحنا الله قادر على التفكير، وعلى معرفة حقيقة ما أرله الله، كما يرى أن كل إنسان بلغ سن الرشد، ومن الله عليه بالعلم والكتب، وأبصره بخفيه ابدى

(١) الرعية ص ١١٦

(٢) أدب النفوس: ٩٥

(٣) التعرف: ٢٩

(٤) أدب النفوس: ٧٠

(٥) مسألة الخلاص للمسيون ص ٢٩

(٦) رساله المسترشدين: ٢٦

بشهاد بالخالق، قد تحمل مسئولية ناتجة من أنه عاقل^(١) والله لا يهلك قوماً إلا ويدكرهم ويحاطب عقلهم بما يفهم من غير..

وإذا كان الله قد من علينا بالعقل فلكي يحاطبنا بواسطته^(٢) ولكن المحاسبي يرى أن عمل العقل بالنسبة للوحي يجب أن يقتصر على التبشير بما أنزله الله، وأن دوره ليس أن يستيد بالفكر، ولكن أن يثبت صحة ما أنزله الله^(٣)

هل لنا الاختيار في العمل والسلوك عامة؟

هل لنا الاختيار في الخير والشر؟

أم أننا لسنا سوى آلة في يد المقادير؟

لواقع أن إيصاح موقف المحاسبي من هذه التساؤلات أمر شاق، كان كل نشاطه وعمله ابتغاء إصلاح الظروف الأخلاقية للناس، فهل كان للناس اختيار في اتباعه هو بالذات؟

وإن لم يكونوا كذلك، فلماذا بذل جهده لإصلاحهم؟ ومن ناحية أخرى فهو يدم المعتزلة لفولهم بالاختيار، ثم هو يقول:

«وسوف نعرض لهذا الموضوع تفصيلاً فيما يلي من بحث»

إن الله علة كل عمل، وإنه لا شيء إلا من الله وبه^(٤) بل إننا نجد من بين كتاباته ما يعني أن مصير الإنسان أرادته الله له، وحدده أولاً خيراً كان أو شراً^(٥).

(٤) لرعاية ص ٩٧

(١) ماهية العمل. ١٠٥

(٢) المحاسبي: ماهية العمل ص ٢٠٦، ٢٠٧ (٥) ماهية العقل ص ١٠١

(٣) المحاسبي: ماهيات العمل ص ١٠٨

ومن الأمور ذات المغزى: أن المحاسبي في رفضه لمذهب جهم دم شطره الخاص بوحدة الذات والصفات لا ذلك الذي يعلق بالحبر والاحتثار^(١) وبالإضافة إلى ذلك؛ فالشهر ستاني - الذي يضم المحاسبي للسفيين - يخبرنا بأن السلفيين كانوا جبريين، يؤمنون بأن كل نعمة وكل كرامة من الله^(٢).

ومع ذلك نجد المحاسبي مصرّاً في دأب على السعي لإصلاح الناس، ونجده يهتم اهتماماً فائقاً بالوعظ والإرشاد، ويصرح بأن ذلك فرض واجب على المسلم.

فلا مأس وثمره هذا من القول بأنه لم يأخذ بالجبرية على إطلاقها

(ج) ما ينتج عن معرفة الله:

رأينا فيما سبق أن قدرتنا على معرفة الله محدودة ولكن ما هو نتاج هذه المعرفة في الحدود المتاحة لنا؟.

يقول المحاسبي:

«إذا تم عقل المؤمن عن ربه أمرده عروحل بالوحد له في كل المعاني، فعلم أنه مالك له لا غيره، وأن عتيق ممن سواه، فتواضع لعظمته، واستعبد وحضع لجلاله، ولم يدل لمن سواه، وعقل عنه أنه الكامل بأحسن الصفات، المنتزه من كل لاهاب. منعم بكل الأبدى والإحسان، فاشتد حبه له، لما يستأهل لعظيم قدره، وكريم فعاله، وحسن ياديه.

وعقل عنه أنه لا يملك نفعه وضره في دنياه وآخرته إلا هو، فأمرده

(١) الرعاية ص ٢٤.

(٢) الشهرستاني: كتاب الملل والنحل ج ١، ص ٥٤.

بالخوف والرجاء وحده، وأمن به، وأيس من جميع خلقه
فهو موحد له إد عقل وحدانيته وتفرده بكل معنى كريم، ووصف
جميل، وجلال وعظمة، ونفاد قدرته، ومضى إرادته، وإحاطة علمه، وقديم
أزليته وأوليته.

فإذ كان كذلك زایل الكبر على (العبد) خضوعه لحلال مولاه فتواضع
للحق، ولم لا يحضر مسلماً لشده معرفته بصغر قدر نفسه، ولما جى من
لذوب على نفسه، ولعلمه بأن خواصم الأجل بسوء العواقب وحسن
لحظة من الشقاء والسعادة، فد سبى بها العلم وتفذت فيهما المشيئة.

فقد أمن من عرفه كبره وبعيته، وقد عقل عن الله حل وعز حجبته عن
خلقه وأعداره إلى خلقه بأنه ليس هم بطالم، وأنه قد بدأهم بالرحمة قبل
العقوبة وقد سبقت (منه) الأيادي قل الشكر، طویل الحمد، دائم الثناء،
جميل السر، مقيل العثرات، مخبئ إلى من تبعض إليه، متقرب إلى من
مباعد منه، وعقل عنه أمره وآدابه وأحكامه، وعقل داء لهوس ودواءها

فمن عرفه أمل ابرسد منه، وأن يحيا بمطقة، ويعمل عن الله حل ذكره
بتأديبه له.

وعقل عن الله عز وجل ما عظم من قدر ثوابه في حنته بدومه، وطيب
العيش فيه، وروال الآفات والمكدير والتنغيص والنقص عنه، وأنه فوق
ما تحب لهوس، لا يحسن أحد أن يحظر بباله ذكر كثير بما أعد فيها.

وقد قال الرسول ﷺ:

«أعد الله عز وجل في حنته ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر
على قلب بشر».

وكفاك بالله تعالى واصفا عما أعد لأولياته، إذ يقول عز من قائل:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخِيئَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾^(١)

فقد أخبرنا أنه جاور في الكمال، والتعظيم وقره العيون، وصف الواصفين، ومعرفة العارفين، وذكر الذاكرين لجميع النعيم، فعظم في قلبه حوار مولاه، وما أعد فيه لمن أتاب إليه وأطاعه، فشخص إليه بعقله، فاتصل ما استودع قلبه من لعلم بذلك لمشاهدته بعقله حتى كأنه رأى عيه وكما قال حذرتة.

«كأنى أنظر إلى عرش ربي يارزاً وإلى أهل الجنة يتزاورون»

وكما قال الحسن وذكر أولياء الله في الدنيا، فقال -

«صدقوا به فكأنما يرون ما وعدوا رأى العين».

فما اتصل عقبه بمشاهده ذلك حن رشتاق، فلما حن واشتاق تعلق قلبه واشتعل، فلما اشتعل قلبه بالسوق إلى جوار ربه سلا عن الدنيا قلها عنها ولم يفكر في دار الدنيا - أين هي من جوار ربه إذ يقول عز وجل: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾، في الدنيا والآخرة^(٢).

قبل في التفسير: تفكروا فيها فعلموا أن الدنيا دار هباء، وأن الآخرة دار حراء وبقاء - فعقل بعث ربه لزوال الدنيا وفنائها، وأن كل ما أخذ منها لغير القرية إلى ربه في حوار ناقص من درجات القرب، وكمال النعيم في جوار ربه، وأن فيه الحساب والسؤال عن نعيمها بالحس عن السبق في أوائل الزمن إلى جوار ربه ومولاه، وأنها مشغلة له عن الاشتغال بربه ما دام فيها حتى ما يعدله من الأنس بربه وحلاوة مناجاة سيده فارتفع قلبه عنها وتغنى أن لو استغنى أن يتداول معها شيئاً فلم يجد بداً من الأحذ منها ما يغويه على طاعه ربه خوفاً أن يمسك عن القوت فينقطع عن عبادة ربه.

(١) اسجد، اهـ. ١٧

(٢) من سورة البقرة، ٤١٩، ٢٢٠

فكان يصيبه منها اقوت من الغذاء، ولم يتكلف ما جازُ بشفقة القوت من
عدائه وستر عورته، وإن تكلف طلبه لم يتكلف إلا لقرية إلى ربه، فإن ابتلى
منها بما فوق عدائه، وستر عورته من مش ميراث أو غيره فمبذول كله لربه
بمرح بإخراجه، ويعتم أن يمكث عنده أقل من طرفة عين

وعقل عن الله تعالى آياته في تدبيره وحكمته في آثار صنعته، ودلائل
حسن تقديره، فعلم أنه بقدرة نافذة قدره، وبحكمة كاملة أتقها، وبعلم
محيط اخترعها، ويسمع نافذ سمع حركاتها، ويبصر مدرك لها دبر لطائف
حلقها، وغوامض كوامنها، وما ورثه حبيبها وسوايرها.

فاستدل بذلك أنه الإله العظيم لدى لا إله غيره، ولا رب سواه،
فكان جميع الأشياء عين يعتبر بها، ويحلُّ ويُعظَّم لما يرى ويسمع (من) مولا
وسيده، فدام ذكره، ورأيت عن الله عز وجل غفلته، وغفل عن الله تعالى
أنه ما يبلغه غاية العلم به، ولا بلطائف محابه، والعرب إليه، ولهم لما كنه
به، فكان مع سيده اجتهاده، ودوام اشتغاله بربه، غير مارك ولا مسقط عن
طلب الاردياد من العلم بربه، والترديد في الفقه عنه أعلى في قلبه، وأعظم
عنده قدر من الاردياد من كثير أعمال المواصل، إذ عقل عن ربه أن أقل
قليل المعرفة يورث التعظيم والهيبة، ويبعث على الاجتهاد، ويورث
إطاعات، والشغل عن جميع العباد.

وعقل عن الله تعالى أنه ابتداء عباده بالرحمة والتفصل والإحسان بعد
تقديم العلم منه لهم أنهم سيعصونه ويخالفون أمره، فلم يبعه ذلك عن
ابتدائهم بالنعم ولتحسن والرحمة والإحسان. وحمل أفضل أوليائه عنده،
أرحمهم بخلقهم، المحسن على عباده لأصحابه لبريته، وهم رسله الدعون
إلى نجاتهم، والمحنزون لهم من هلكتهم، المسجلون منهم الأذى،
والمحنزون عليهم بالرحمة والنصح والإشفاق، مع أداهم لهم، وتكديهم

إياهم. واستهزأهم بهم، لا يكافئونهم بمثل ما نالوا منهم، ولا يصبرهمون
عن الإشفاق عليهم إذ سمعوا الله جل ثناؤه يصفهم، إذ قالوا لنوح.
﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٦٠)

وقالوا لهود.

﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾^(٦١)

ثم وصف جوابها فقال نوح:

﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي
وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ، أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ
عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٦٢)

وصف رد هود عليهم فقال

﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ
رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ. أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ
مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ، وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَرَادَّكُمْ فِي
الْحَلْقِ بَصْطَهُ، فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾^(٦٣)

أي تظفرون بثوب الله إن قبلتم مني، فأخبرهم بعد تسفيهم له، أنه لم
ينتصرف من أجل ذلك عن اسصحة لهم لعلهم يفلحون.

وقال إبراهيم عليه السلام.

﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَافِرٌ رَحِيمٌ﴾^(٦٤)

(٦٠) الأعراف آيات: ٦٧ - ٦٩

(٦١) إبراهيم عليه: ٣٦

(٦٢) الأعراف آية: ٦٠

(٦٣) الأعراف آية: ٦٦

(٦٤) الأعراف آيات: ٦١ - ٦٣

وقال النبي ﷺ، ووصف نبياً من الأنبياء شهد قومه فهو يمسح الدم عن وجهه وهو يقول:

«رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

وروى أن نوحاً عليه السلام، كان يخففه قومه حتى يغشى عليه، فإذا أفاق قال:

«رب اغفر لقومي إنهم لا يعلمون».

وفضل النبي ﷺ، صديق هذه الأمة عليها بالرحمة لها، فقال:

«أرحم أمتي بها أبو بكر».

فلما عقل عن الله عز وجل، ما ابتدأ العباد به من الرحمة، وأنه خص أعظم خلقه عنده قدرًا، وفصله بها على جميع العباد.

ألزم قلبه رحمة الأمة فأحب محسبهم، وأشفق على مسيئتهم، ودعا إلى الله سبحانه إذا أمكنه - مديهم، ولم يدحر مالا عن فقيرهم، ففضل ماله عليهم مبدول، والمواساة في قوته منهم المجهود، من سأله منهم ما يقدر عليه لم يتبرم بطلبه، ولم يصجر بإعطائه لرحمة التي لهم في قلبه، ومن آذاه وأساء إليه لم يجد في نفسه كراهية للعفو والصفح عنه، يعذّبهم جميعًا كأفرب الخلق منه. كبيرهم مثل أبيه، وصغيرهم كولد، وفرته كأخيه، فكل هؤلاء يحب الإحسان إليهم، وأن لا يفارق قلبه الشفقة عليهم.

وعقل عن الله تعالى عظيم قدره، وقدر ما يطلب من ثوابه، وما يخاف من عقابه، وعظيم الأيادي وكثرة النعيم عنده، وأن جميع خلقه من أهل سمواته وأرضه لو دأبوا جميعًا واجتهدوا عمر الدنيا كلها وأبدًا ما أدوا شكر نعمه ولا أدوا ما يحق في عظمتهم.

فكيف بالحلول في حوار، واستجابة من عذابه؟

فقد عقل أي رب يعبد، وأي ثواب يطلب، ومن أي عقاب وعذاب

يهرّب وأى نعيم يشكر، والشكر أيضا ممن هو، ومن من به؟
 فلما عقل ذلك كله عن ربه استقر واستصغر جميع دؤوبه واحتشاده،
 لعظيم ما عقل من جميع ذلك»^(۱).

(۱) العقل وفهم القرآن ص ۲۲۱ - ص ۲۲۹

موقف المحاسبي من الفرق

كان للفرق في الإسلام منبعان:

أولها: السياسة التي نشأت عنها فرقتان: الخوارج والشيعة، إثر مشكلة الخلافة، وهي مشكلة سياسية أساساً وإن استترت بالدين.

وثانيهما، يرجع بالتحديد إلى الخلافات الدينية التي نشأت عنها المعتزلة والجهمية والمرجئة.

وفي مواجهة كل هذه الفرق كان يقف أهل السنة. ويرى أن المحاسبي اندفع في حماس بالغ في الجدل ضد فرق عصره، وعلى الأخص المعتزلة.

وبين أيدينا نصوص ثلاثة^(١) في مؤلفاته تدم فرقاً مختلفة. أما فيما يتعلق بالخوارج والشيعة، فمن السير تبين أسباب ذمه لها. لقد كان شعار الخوارج: لعن عثمان وعلى، وجعلوا ذلك أمراً يسبق ما عداء ثم كانوا يكفرون من يرتكب الكبائر، ويرون من الواجب على الناس أن يخلعوا كل خليفة لا يبيع السنة^(٢)، ونحن نذكر أن رجلاً مثل المحاسبي يخلص الاحرام للصحابة، لم يربذا من الحملة على الذين ينالون منهم.

(١) الأول والثاني في «الرعايا»، ص ٢٤، ١١١، والثالث في «كتاب الوصايا»

ص-٢

(٢) الشهرستاني- كتاب الملل والنحل، ج ١ ص ١٢٤

ونراه في «كتاب لمكاسب»^(١) يأخذ برأى على في الخوارج وكان على يقول:

«لا بد من إمارة برة أو فاجرة، حتى نستقر وحدة لأمة، وتتصرف أمورها».

وكان الخوارج دائمى الثورة على الخليفة، يشيرون في الناس الفتنة لأدنى القضايا شأنًا.

ولم يكن المحاسبي وهو المسلم الذى يصبو إلى عو وزدهار الأمة الإسلامية - ليقف موقف اللامبالاه أمام عمل فرقة: أدت هذه الأمة، ولم يجد غضاضة في إيدائها ما قدر لها ذلك.

إنه يسمى الخوارج بـ «الحرورية» وغالب الظن أنه يقصد بهذا الاسم حديثاً احتلقه أعداء هذه الفرقة السياسيين ونشروه بين الناس، وهو الذى يذم قومًا «يخرجون من حروراء».

أما عن الشيعة: «المحاسبي يعارض على الأخص هريقً يغالى في تقدير مكانة على، ويرفعه فوق البشر، بل يرى فيه جوانب إلهية.

وقد اندفع أتباع هذا لفريق مقالين في نقد الخلفاء اراشدين الثلاثة، واتهامهم كل من عارض على من أمثال عائشة وطلحة والزبير، وسمى مذهبهم بـ «الرافضة»، وهو المذهب الذى استكره المحاسبي أشد الاستنكار وذهمه ذمًا حنيفًا.

أما الزيدية، وهى المذهب المعتدل في الشيعة، فالشهر ستاى يروى أن أتباعها كانوا جميعًا معتزلة.

ونحن نعتقد أن لمحاسبي لم يعارض لزيدية هذه بسبب بسيط، وهو أنه

(١) ص ٢٣٢ من الكتاب تحقيق عبد القادر أحمد عطا.

يشملهم في نقده للمعتزلة وحملته عليهم.

وبصفة عامة، يمكن القول: أن موقف المحاسبي لم يكن شيئاً من قريب أو بعيد. أنه عند ذكره للخلفاء يوردهم بترتيبهم التاريخي، وهو يرى فيهم صفوة الأمة.

ويقول عن أول الخلفاء: إنه أشد الخلق بعد نبيه في دينه، وأقومه بأمره»^(١).

ويصف عائشة - التي اتقدها الشيعة أعنف انتقاد - بأنها «أم المؤمنين».

ومن الأمور ذات المغزى الواضح أن حديثه عن علي لا يتضمن أى تقدير خاص به، يفرق فيه بينه وبين الخلفاء من قبله كما اعتاد الشيعة في حديثهم عن علي رضي الله عنه.

هذا فيما يختص بالفرق الى نشأت بسبب الظروف السياسية.

أما عن المعتزلة والجهمية، فقد تحدثنا عنها في بداية هذا الفصل. ولكننا نود أن نضيف - فيما يتعلق بالجهمية - أن أشهر ستاني - وكان يعتبر المحاسبي من السلفيين - يجبرنا أن جميع لسلفيين ينتقدون الجهمية ويعارضونها^(٢).

وأما عن المرجئة، فلعل السبب في موقف المحاسبي منهم، موقف اعداء، إيمانهم للقيمة العظيمة بانسبه للأعمال المسجيه

ومذهبهم في حوهره لا يخلف كثيراً عما يدعو إليه المحاسبي. ولكن نفس هذا المذهب كان ينتهي هم إلى اللامبالاة بطاعة الله.

(١) في كتابه «المكاسب» ص ١٩١ تحقيق عبد القادر أحمد عطا

(٢) الشهرستاني، كتاب الملل والنحل ج ١ ص ٩٤

ولعل حديث أحد قادة المرحلة يوضح ما نذكره من أن الاختلاف بينه وبينهم ليس بالخلاف الجوهرية:

يقول يونس اسامري: إن الإيمان هو معرفة الله، والخشوع له ومحبة، ومن جمع هذه الصفات فهو مؤمن، وطاعة الله ليست بالحرز الذي لا يتجزأ من الإيمان وإعمالها لا يعنى الانتقاص من شأنها.

وإذا كان الإنسان مخلصاً في إيمانه فسوف يغفر الله في الآخرة ما أهل من طاعته.

وقد يقال بناء على ما عرضناه: إن الهوة كبيرة بين هذا المفهوم، ومفهوم أهل السنة؛ ولكن الأمر الذي يدعون إلى اعتقاد بأن الاختلاف في الواقع ليس بدى شأن: وجهه نظر قائد المرحلة المذكور في الخشوع لله ومحبة، إذ هو يفسر ما سبق بقوله:

«إذا امتلأ قلب المؤمن بالخشوع لله ومحبة، لم يعصه ولم يرتكب الذنوب»^(١)

فالحقيقة إذن أن الإيمان في ربه إذا ملأ قلب الإنسان كان من نتائجه ترك معصية الله. بيد أن مذهب المرحلة هذا في عمومته لا يهتم بمسألة الثواب على الأعمال، وهذا هو السبب في معارضة المحاسبين لهم ودمه إياهم.

(١) أشهر مستأثر ج ١ ص ١٤٥، ١٤٦

المحاسبي والمذاهب

يقال عدة - وإن لم يكن هذا القول دقيقاً - إن في الإسلام مذاهب أربعة: الحنفي، والمالكي، والشافعي، والحنبلي.

ويبدو أن مؤسس المذهب الأول منها، وهو أبو حنيفة، لم ينل عناية المحاسبي، فهو لا يذكره، ولا يورد اسمه في مؤلفاته.

وبرى أن سبب هذا الموقف يكمن فيما يرويه لنا الشهرستاني من أن أبا حنيفة وصف خطأ بالمرجئي - هد مع العلم بأن الشهرستاني نفسه، في صفحة تالية من كتابه، يصف أبا حنيفة في صفوف المرجئة^(١).

وواقع أن مذهب أبي حنيفة في العقيدة الإيمانية قريب جداً من المرجئة، وإن لم يكن مرجئاً.

وبالإضافة إلى ذلك كان أبو حنيفة من المدافعين عن الشيعة، وحبس لهذا السبب ومات في الحبس. فلا غرو، وأمر أبي حنيفة بين المرجئة أو قريباً منهم - وبين الشيعة أن يتجنب المحاسبي ذكره، أو التعرض بفكره. أما مالك: فلم يأت بغداد قط. وكانت وفاته في السنة التي بلغ فيها المحاسبي، الرابعة عشرة من عمره.

ولعل هذا هو السبب في عدم القول بأن المحاسبي كان مالكيًا. وقد سبق أن ذكرنا عداوة ابن حنبل للمحاسبي. فلا يبقى إذن سوى المذهب الشافعي أمانا نصم إليه هذا الصوفي.

(١) الشهرستاني ج ١ ص ١٤٧، ١٥١

وهذا ما عمد إليه السبكي في كتابه «طبقات الشافعية». وقد أخذت برأيه الأستاذة: مارجريت سميث في كتابها الذي أشرنا إليه فيما سبق. ولكن يبدو أنها لم تدرس الأمر حق دراسته:

فالسبكي يميل إلى حشد كل من شهد بمجالس الشافعي - ولو لفترة بسيطة - في قوائم الشافعية.

والشافعي أقام بعض الوقت في بغداد، ولا يستبعد أن يكون المحاسبي قد حضر حديثاته، ولكن هل يتبع ذلك أن المحاسبي شافعي؟ لم يكن مبدئياً اعتراض على الأمر، ولكننا أردنا التحقق منه وتمحيص أثره عن قرب في مؤلفات المحاسبي، فرعنا أن هذه المؤلفات تكاد تكون خالية من أي ذكر للشافعي؛ إن المحاسبي - إذا صح حصصاً لكتبه - لا يذكر الشافعي إلا في مناسبات معدودة، ولا يذكره في أي منها باعتباره صاحب مكانة عالية لديه، وإنما يرجع إليه كما يرجع لغيره في غير ما تقدير خاص ومن الشائع لدى أتباع المذاهب أن يسبقوا ذكر أستاذهم بنقبة «إمامنا».

والمحاسبي لا يفعل ذلك عند حديثه عن الشافعي.

وهو في «كتاب المكاسب» يورد اسم ابن جنبل أربع مرات، وابن جنبل إمام مذهب وفي كتاب «إحكام التوبة» نرى صاحبنا يثنى ثناء حاراً على إمام مذهب آخر هو مالك، لا الشافعي. ويبدو أن المحاسبي كان معجباً به.

وقد دعنا كل هذه التعبيرات إلى تساؤل حاولنا تحريه لدقة قدر ما أتبع بنا من إمكانيات في الإحابة عليه.

هل كان المحاسبي يأخذ بمذهب بعينه من هذه المذاهب أم لا؟
يقسم المسلمون إلى ثلاثة أقسام فيما يتعلق بموقفهم من المذهب

١ - «المقدور» البسطاء . وهم جبهة الناس

٢ - «أسبعور» الدين يهجون على مذهب محمد ويدركون معنى الحبح والبراهين، التي أسس عليها، ويواصلون اتباعه في سيره المنطقي.

٣ - «امجتهدون»، أي مشنوا المذاهب، وهم بطبيعة الحال قلة.

ويدور حديث شائع على الدوم بأن هناك ختلافا في المبادئ يفرق بين مؤسسي المذاهب، فيقال مثلا،

إن أبا حنيفة عميل إلى القياس أساسا للشرع ويفضيه في ذلك على السنن الضعيفة، وأنه يأخذ بـ «الرأي» وبطيفة.

كما يقال أيضا: إن مالكا، مع اعتماده على القرآن والحديث، يأخذ في الاعتبار ما هو متبع بين أهل المدينة من عرف وعادات.

والواقع أن القول بوجود خلافا في المبادئ بين أصحاب المذاهب يبدو ضربا من المبالغة.

وهناك مزعم كثيرة في هذا الشأن. ليست سوى اعتراز بالمشورة مثل تلك التي تدعى لأبي حنيفة، حرية فكر تفوق كثيرا ما كان للشافعي أو ابن حنبل، وهذا الأخير يعتبر عادة من أهل السنة المتشددين، فكلهم على حد سواء في الحقيقة يقيمون الفقه على القرآن والأحاديث الموثوق بها والإجماع، وكلهم على حد سواء يتمون الحدود الإسلامية لصحيحة، وهدفهم هو التدوين المنظم لما نزل به القرآن ولما جاء به محمد ﷺ، من تعاليم

أما المسائل الخاصة بقضايا جدت بعد وفاة النبي ﷺ، فكان همهم قبل كل شيء أن يكون ما يشرعونه لها مطابقا للقرآن ولفكر الرسول ﷺ في حقيقته وروحه.

وصحيح أن أبا حيفة كان يعتمد بعض الاعتماد على «الرأى»، ولكنه
 مسجاً به إلا في الحالات التي لم يحد بشأنها حديثاً أو سنه موثقاً بها
 وحتى في مثل هذه الحالات لم يكن يستقل بالرأى، بل أوجب أن يكون
 هذا لرأى مؤسساً على مبادئ من الإسلام واضحة.

ولم يكن ستردد في الرجوع عن رأيه إن قيل فيه بحديث صحيح.
 وللناقصي حكمة ما رلب ذئعة بين علماء المسلمين إذ يقول.
 «إذا صحح الحديث فهو مذهبي»

وما دامت الأسس والأهداف واحدة لدى سائر مشيئ لمذاهب، فلا بد
 أن تكسر الاختلافات في التفاصيل وحدها، وهذا هو ما كان فعلاً.

وهذه الاختلافات في التفاصيل معروفة لدينا، لذلك كان من اليسر
 التعرف على مذهب المحاسبي بتحقيق مسكه ببعض التفاصيل دون
 الأخرى

ولا يظن أننا في حاجة إلى إثبات أن المحاسبي لم يكن من «المقلدين»
 البسطاء الذين لا رأى لهم، بيد أن الأمر قد يختلف ن قلنا بأنه من
 «المجتهدين»

ونريد أولاً الإجابة على السؤال

هل كان المحاسبي من طائفة «المتبعين»؟

بسيطاً اباح أن يتأكد، دون جهد ومن مجرد تصمم مؤلفاته من أن
 محاسبي لم يكن بالرجل الذي يسعى لرأى في عمر فهم له، أو تثبت من
 ربه.

وهذا في الحقيقة خلاصة ما يطلب من «المتبعين»، ولكن «المسعين» برغم

ذلك لا يكونون لأنفسهم جملة آراء من مصادر مختلفة، وإنما يتبع كل منهم مذهباً محدداً، فإذا فضل - لأسباب شتى - تفصيلاً بعينه على آخر، كان مالكياً أو شافعيًا أو غير ذلك.

فهل كان المحاسبي حفيظة من هذه الفئة من الناس؟

إنه في «مختصر كتاب فهم الصلاح» يرجع إلى مصادر عدة لا نجد من بينها الشافعي، وشعائر الوضوء والصلاة الواردة في هذا الكتاب لا تمت إلى مذهب بالذات شافعيًا كان أو مالكياً أو غير ذلك

والمسائل التي يعرض لها في «كتاب المكاسب» لا تدل أصلاً على انتمائه لأي من هذه المذاهب.

والكتابان المذكوران يعتمدان فحسب على القرآن والسنة وسير الصحابة، ولا فيعة عند المؤلف لآراء أصحاب الرأي إلا بمقدار استيحائها للسنن وصحة نقلها

ومن الأمور التي يعبر بها المحاسبي في الكثير مما كتب، أنه يعبر صراحته عن مسئولته القاطعة عن الرأي بعبارة مثل:

«أحب إلى أن . . .» أو «يفضل عندي أن . . .»، ويتبع هذه العبارات بلفظ «لأن . . .» فيورد حججه ويؤيدها بالآيات أو الأحاديث.

والملاحظ أنه عند الرجوع إلى رأي غيره لا يتعلق به، وإنما يولي جل اهتمامه إلى البراهين التي أسس عليها، ولذلك فهو يذكر لك في أغلب الأحوال مصادر رأي الغير.

وقد عمد إلى عرض الآراء التي مجدها صادرة عن رجال دوى مكانه مرموقة بشرط أن تكون مبنية على براهين مقبولة، وفي مثل هذه الحالات يترك للقارئ أن يقرر ويختار الأصح منها أو الأصح.

والمحاسبى يرى أيضاً أن المرجع الوحيد الصحيح للإنسان يجب أن يكون في القرآن والسنة سواء في مجال الأخلاق أو في مجال التشريع والحكم. فيقول مثلاً.

«إن أردت العلم فاحتر نفسك بالقرآن. والقرآن أربع

أمر، ونهى، وترهيب بالجحيم، وترغيب في الجنة.

إذا تركت القرآن تركت الشفاء، وإذا اتبعته دخلت الجنة»^(١)

والمحاسبى لا يكتفى بإثبات رأيه هذا في القرآن والسنة، وإنما هو يردده في كل مناسبة.

ولو أنه قال به مجرداً لما كان له من قيمة سوى قيمة المبادئ النظرية، ولكنه يواصل دائماً شرح وسائل لتمسك به وتطبيقه، وفي شروحه يجد اليوم سبيلاً للعرف على مصادر فكره وآرائه.

يقول المحاسبى، بأن القرآن يحتوى على آيات «محكمات» اتفق المسلمون على تفسيرها، ولكنه يحتوى أيضاً على آيات كانت محل تفسيرات مختلفة من علماء التفسير، ولكل عالم أن يحتهد، وأن يبين ما رأى باحتهاذه، وثوابه عند الله تعالى.

وفي الكتاب أيضاً آيات «متشابهات»، ولا يحاول تفسيرها إلا الضالون لغرضون، يريدون من ذلك بلبلة أذهان المسلمين وإثارة الفتنة بين الناس، وكذلك لأمر بالنسبة إلى سنة النبى ﷺ.

فمن الضروري إذن أن يعلم المؤمن الباحث عن الحق، أن في القرآن والسنة كلمات لا تحتاج إلى البحث أو الفكر، وأنه لن يصار شيئاً إن اتبع ما أمرت به وتجنب ما نهت عنه.

(١) المحاسبى: المرافقة، ص ١١

كما يجب على هذا المؤمن أن يعلم أن هناك كلمات وأُمُورًا يجب الرجوع بشأنها إلى الكتاب والسنة والإجماع للتوصل إلى حقيقة معناها، وهي كلمات وأُمُور تختمل الخطأ والصواب بسبب ضعف النفس والنفسان، والشهوات ومكر إبليس.

وينبغي على المؤمن أمامها أن يأخذ حذره، وأن يدكر على روية، وأن يحاول التخلص من نزغ الشهوات.

والقياس الصحيح بالمراجع المذكورة لا يمكن أن يقوم به إلا من كان أهلاً له، وبغير هذا الشرط لا يصح القياس، وعلى المؤمن الذي ليس بأهل للقياس الصحيح أن يسأل من هو أهل له، ثم يحرص ما تلقاه من جواب، ويتفكر فيه حتى يتبين الخطأ من الصواب.

والمؤمنون الذين ليسوا أهلاً للقياس - أى بصفة عامة غير لعرب، وبعض النساء اللاتي لا يميزن الصحيح من الباطل - ينبغي عليهم تعبد العلماء

أما فيما يتعلق بالمشاهير وعلى المرء قبولها على إعلانها، والله معرفة ما خفى من معانيها، وليس هذا بالأمر العسير على المؤمن، فهذه الآيات لا تتضمن أمراً بعمل أو نهياً عن عمل، وكل ما يوجبه الله منها على المؤمن هو أن يصدق بها^(١).

وما سبق من تلخيصنا لبعض كتابات المحاسبي يبين أنه لم يطلب من الدين يريدون الاعتماد مباشرة على السنن في سلوكهم إلا أن يكونوا قادرين على ذلك، ولم يعصر الأمر على أشخاص محدوس

(١) محاسبي، الرعاية، لحقوق الله ص ١٠٩

والاعتماد مباشرة على المصادر هو بعينه ما يسمى بـ «الاجتهاد» أى إنشاء قواعد مستنبطة من المصادر.

والإنسان الذى يسير على هذا الهج - ولو لنفسه وحده - لا يمكن عدلاً إلا أن يضم إلى طائفة «المجتهدين».

وعلى العكس من ذلك، فقد قصر المحاسبي طائفة المقلدين البسطاء على غير العرب ثم عن بعض النساء اللاتى لا يميزن الصحيح من الباطل.

ولما كان السبب الذى يقدمه بالسبة إلى هاتيك النساء سبباً عاماً، فنحن نرجح أنه كان يضم أيضاً إلى هذه لطائفة كل من لا يستطيع التمييز.

أما «المتبعون» فهم فى نظره جماعة الذين لا يقفون على الرجوع مباشرة إلى النص، ولكنهم مع ذلك أهل تمييز يعرفون الصحيح من الباطل.



وصمَّ المحاسبي، وهو العربى الأصيل العام، إلى جماعة «المتبعين» أمر لا يجعل بنا بعد ما تبين لنا فيما سبق من خصائص «المجتهدين» التى يتصف بها.

بيد أن صممه إلى جماعة «لمجتهدين» ينير من ناحية أخرى اعتراضات لها وجاقتها، وعلى الأخص من جانب بعض المسلمين الذين يريدون - لأسباب قيمة - أن يحدوا من هذه الجماعة ما وسعهم ذلك.

ونود أن نوحزها الأسس التى تبنى عليها هذه الاعتراضات، ومدى حسنها بالنسبة إلى المحاسبي.

شرط «المجتهد» الأول أن يكون على معرفة واسعة عميقة باللغة

العربية حتى يدرك ما دق من هروق المعاني التي قد يكون لها أبعاد الأثر في معنى الكلام ثم عليه أن يكون عالماً بالقرآن علماً حقيقياً، وكذلك بالحديث، وبالظروف التي أحاطت ببرول الآيات القرآنية، وبالمناسبات التي جاءت فيها الأحاديث النبوية

فأما معرفة اللغة العربية معرفة متقنة، فلا ينظر أنها سبب يجمع من أن يكون المحاسبي من «المجتهدين» وهو الذي أظهر في مؤلفاته قسماً بلاغة نفيسة لا تفكر، ثم إنه من أصل عربي خالص، ولد في مدينة اشتهرت بأنها حفظت للغة العربية أصالتها

ولا ترى مجالاً للجدل في القول بأن المحاسبي في هذا الميدان لا يغف تفوقاً عن أبي حنيفة مثلاً.

وأما لعلم بالحديث، فمن الثابت أن مؤرخي المحاسبي يصوبونه بلقب «المحدث» ومؤلفاته تبين صحة ما لقبوه به، وفي هذا المجال أيضاً لا يصح أن نضعه في مرتبة أدنى من مرتبة أبي حنيفة.

وفيما يتعلق بالعلم بالقرآن وبالظروف التي أحاطت بالنصوص من المعروف أن المتصوفين يرتبون أهمية كبرى عليه ويختصونه بوافر الدراسة وكان المحاسبي من العلماء المرموقين في تعمقه وفهمه للقرآن، ونستطيع بحره دون أي مبالغه بأنه لا يقل عن أي مؤسس المداهم في هذا المجال

ولكننا لا نريد القول بأن المحاسبي «مجتهد» في كل المجالات،
والشريعة الإسلامية فسمان:

١ - أحدهما: بتصل بالعلاقة بين الإنسان وربه، في أمور مثل لصلاه والصوم وغيرهما، وهو «العبادات».

٢ - والثاني: في مجال العلاقات بين الناس في أمور مثل التجارة والمبادلات والصناعات وغيرها، وهو «المعاملات».

والمحاسبى لم يبد اهتمام كبيراً بناحية المعاملات من الشريعة، حيث كان في المقام الأول معتمداً على أخلاق، ولذلك لا نستطيع القول بأنه «مجتهد» في هذا المجال.

أما فيما يتعلق بالعبادات فينبغي الاعتراف بأنها الميدان المختار للفكر الصوفي.

ونحن لا نريد أن تقتصر على القول بأن المحاسبى كان «مجتهداً» في هذه الناحية، بل نذهب إلى أبعد من ذلك قائدين، إنه فيها أكثر أهمية من كثيرين غيره.

فالمحاسبى كان متصوفاً، وكان شغله الشاغل تحقيق العبادة فه كاملة مطلقة، وقد بلغ في ذلك ما لم نكد يلمعه كثيرون، وكانت طبيعته لصوفيه تعينه على إدراك إرادة الرسول ﷺ، التي يراها تعبيراً عن إرادة الله تعالى.

ولقد تحدث عن الصلاة في مؤلفه: «مختصر كتاب فهم الصلاح» حديثاً يفصح عن روح بخلصة من سائر لتأثيرات سوى ما جاء بالسنن وقراءة هذا الكتاب شعرباً بأن التوى لدى المحاسبى بلغت من عمق الإخلاص مبلغاً يعبط عليه

وإذا كان المحاسبى يجمع كل الشروط المطلوبة في «المجتهد» فلا نرى ما يدعو إلى عدم القول بذلك، وخاصة في أمكان الذي كان شغله الشاغل طوال حياته.

وهناك بعد ذلك مجال كان يعمق المحاسبى فيه أقل درجة، بل يرى أن استعداداته به لم تكن مثل استعداداته بلحكم في مسائل العلاقة بين الله

والإنسان: ذلك هو المجال الذي يتضمن مسألة ماهية العقل.
 بيد أن المحاسبي كان فيه أيضاً صاحب احتياط، وهو يصرح لنا بذلك
 قائلاً إنه ألف كتابه (ماهية العقل ومعناه) معتمداً أولاً على الكتاب والسنة
 والإجماع، ثم على الاستنباط إن أمكن، فالقياس في الحدود لمشروعة^(١).

(١) المحاسبي: ماهية العقل ص ١١٢

القرض والنفل

(أ) القرض :

تحصل مسألة الفروض مكانة في الإسلام قد تفوق مكانتها في لأديان الأخرى

لذلك وصف محمد ﷺ، بالمشرع

إن الإسلام سهل في عقيدته، وهو يولى حل اهتمامه إلى الناحية الأخلاقية

وإذا لم تكن الفروض فيه شاملة للأحلاق، فهي مع ذلك لدى المسلمين حزم جوهري وصروري من العلاقات بين الله وأناس وبين الناس بعضهم وبعض

والفروض لا تختص فقط بالجسم والحواس، بل إنها ترمى أيضاً، في جانب كبير منها، إلى تطهير القلوب

وسوف نعرض للفروض الخاصة بتطهير القلب في فصولنا التالية عن الأخلاق. وتكتفي هنا بالحدث عن الفروض عامة

ولما كانت المسألة جوهرية بالسببة إلى العاية التي يبتغيها من هذا البحث، قلن نكتفي من الموضوع بالأمثلة المختلفة التي نوردتها، بل سوف نعمل في موضع آخر إلى عرض مخطوط صغير الحجم من مؤلفات المحاسبي يتضمن عدداً وفراً من هذه الأمثلة، وإن كان أغلبها بالسبب لا بالإيجاب.

* * *

إن مسألة افروض موضوع يتعرض له المحاسبي في الكثير من مؤلفاته وهو يرى أنه لا اختيار للإنسان في القيام بها أو عدم القيام بها، بل إن مجرد التفكير في تركها ذنب^(١)، فكيف بتركها؟

ولما كانت ذات أهمية عظمى لرجاء الإنسان، فإن المحاسبي يعرض لها باستفاضة في كتاب «الرعاية»، وهو كتاب غير صغير الحجم، ويكاد يكون مقصوراً كله على تعليم الإنسان كيف يقوم بالفروض التي تلزمه، والمحاسبي يعرض فيه بصفة خاصة للسبل لكفيلة بحسن القيام بها، ويرى هذا لصوفي أن الله يطلب من^(٢) الإنسان فروضاً، وهو في «كتاب الوصايا» يوجز الرأي فيما يتعلق بالعقيدة والعبادة، فيقول فيما نقله عن أحد العلماء:

«فإن البر والفاخر كلهم محمسون على أن الله حق والرسول عليه الصلاة والسلام حق والقرآن والرسول حق والكتاب والملائكة حق، والبعث والجنة والنار حق، ليس بينهم اختلاف، وإن الصلوات الخمس يوضونها، وتغسل من الحنابة، وصوم شهر رمضان، والركاة، والحج، وبر الوالدين، وأداء الأمانة، وكف الأذى، وإعصاف الناس من نفسك وأحب على كل مسلم، وأن ما قال الله حق».

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعِ وَأُمَّهَاتُ بَنَاتِكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ بَنَاتِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا حَنْأَخَ عَلَيْكُمْ وَخَالَاتُ بَنَاتِكُمُ

(١) المحاسبي: ارهد ٢ ص ١٣

(٢) ص ٧٦ تحقيق عطا طيبة صبيح

الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
غَفُورًا رَحِيمًا^(١).

نكاحهن حرم، والخمر حرام، والسرقه ولزنا والتططيف والعش
والحيانه والكذب وأسباهه حرام، لس بين الر والفاجر في هذا خلاف،
وأهل السنة وأهل لبدع في هذا سواء ليس بينهم اختلاف
وهذا الموحر بكل تأكيد لا يحصر سائر الفروض سلباً وإيجاباً، ولكننا
نلاحظ أن بين تلك الفروض التي يسردها فروض تصف بالعموم
والشمول، مثل كف الأذى.

ونريد أن نضيف إلى القائمة السالفة فرض الجهاد، الذي يهتم به
المحاسبى اهتماماً خاصاً، ولا يكفى بذكره على أنه واجب من واجبات
المسلم بل يقدم الوصايا والإرساد إلى الجنود حتى يلقوا ثواب عملهم عند
الله، وسوف نعرض لذكر بعض الفروض لأخرى فيما يلي من بحثنا

* * *

ومن الواجب على المرء حسن اقيام هذه الفروض، ومن أجل ذلك
تجب عليه معرفتها ومعرفته موافقتها ووسائل الوفاء بها، ثم أولوياتها في
وجوب رعايتها.

فإذا وجب عليك فرضان، فابدأ بأوجبها عليك في الكتاب والسنة، وإن
حضر وقتها جميعاً كحاجة لوالدة ولوالد، فابدأ بحاجة الوالدة، وإنما
مثلت هذا المثال في الوالدين لئلا يطول تفسير كل شيء من ذلك ففس
على هذا المثال ما أشبهه من ذلك

فليبدأ العبد بحاجة والده، لأن برها مقدم في ستة النبي ﷺ، واجتماع

العلماء على تعديدها في البر والطاعة على لوالده، وكذلك إن لم يكن له والدة ولا والد، وكاتب له قرابة فأصابتهم خلة أو حاجة مما يلزم إزالته أو صلتهم، ولم تقدر أن توسع عليهم جميعاً فابداً بالأقرب فالأقرب وبذلك جاءت السنة في الوالدين ولقرابه، حين سئل النبي ﷺ، فقال له السائل:

«يا رسول الله من أبدأ؟ قال أمك.

قال: ثم من؟ قال: أمت.

قال: ثم من؟ قال: أباك.

قال: ثم من؟ قال: أدناك فأدناك».

وكذلك كل ذي رحم محرم تبدأ به قبل من ليس بمحرم، فإن استوفى القرابة فابداً بأحوجهم، إلا أن تكون واسعاً لهم أجمعين فتعهم (حيثما) بأبى ولصلة.

وكذلك لو ملك العبد ما يباح به وليس له ما يحلف بوالديه أو أحدهما أو أهله وولده، إذا كانوا لا يقدرון على ما يفونهم، أقام وأثر الإنفاق عليهم على الحج، وكان هذا أوجب عليه في السنة وعند علماء الأمة، وكذلك ابتعاد يكون على العبد فيحضر وقت الجمعة، أو آخر وقت صلاة من الصلوات الخمس فبيداً بالصلاة التي يحلف فواتها قبل الميعاد، وإن ضيعه فليس بمضيع له، لأنه بدأ بما هو أوجب منه، لأن المسلمين قد أجمعوا على أنهم إنما يواعدون على غير برك الصلاة المقترضة، وإن لم يتكلموا به، فذلك عقد فلوهم.

وكما إذا وحب عليه فرض قد حضر وقته، فإنه يبدأ به قبل ما لم يحضر وقته من الفروض، وكذا رجل يريد الحج في وقت فيه سعة من الأيام، فيأمره وانداه أن يفيم إلى آخر الوقت لنجح، فليطعها ويبدأ بحاجتها

حتى يأتي الوقت المضيق عليه فوته.

كذلك حنازة القرابة تحضر يخاف فواتها، فليبدأ بها، وكذلك الميعاد يكون عليه قبل أن يخاف فوت لحج أو الصلاة فليبدأ بميعاده.

وكذلك يكون عليه الميعادان، أحدهما لوقت معلوم من النهار، والآخر لا وقت له معلوماً من النهار من الأيام، كقوله: آتيك اليوم أو الليلة، أو: آتيك ولا نذكر رقياً، فليبدأ بالذي له الوقت المعلوم

وكذلك تفوته الصلاة المروضة بسريان أو نوم أو تفريط، وبحضر وقت صلاة أخرى، فليبدأ بالقاتنة إلا أن يخاف فوت الداحلة فيبدأ بالداحلة، ولا يضيعها كما ضيع الأخرى.

والأمثلة التي ذكرناها توضع بعض الحالات التي يعرض للمرء فيها فرضان في آن واحد ولا يستطيع القيام بأحدهما دون الانتقاص من الآخر. وإذا كان في فرض فحصر فرض دونه، فليسم ما هو فيه ولا يقطعه، وذلك كالجمعة يدخل مع الإمام فيها، أو صلاة الفداة في آخر وقتها، فيدعي لجنازة قرابة فلا يقطعها لذلك، وليسم ما بقي منها ونحو ذلك (وقد اختلف في بعض ذلك) وكذلك إذا كان في الحج المروض محرماً به، فكسب إليه والده ألا تقيم ساعة، فليتمه ولا يخرج منه.

وقد يعرض الواحد فيؤديه بالاستعانة بالمعاصي ككتساب الحرام والشبهة المجمع على تركها، يريد بذلك غذاء عياله، وأداء ما وجب عليه من حقه.

كذلك الوالدان يهرهما أو أحدهما إذا آديا أهله أو ظلماتها، يريد بذلك أداء حق أهله.

ولعله أن يتأول فيقول: مرأى أسيرة في يدي وقد أوصيت بها، وكذلك

أهله بصرها أو يصيعها، أو يشتتها بعير حتى يريد بذلك رضاء والده فعليه ألا يفعل شيئاً من ذلك، فإن فعل فقد قام بوجوب مسعوب معصية الله عز وجل، وهو حقيق لا يتقبل منه ذلك، وأن يعص الله عز وجل عليه.

وإن كان في فريضة ففرض له فريضة أوجب منه قطعه بعدم بدخل فيه بمسب، كالصلاة بدخل فيها في أول وقتها أو أوسطه، ثم يذكر أن عبه صلاة فائقة وليقتصعها، وليصل الفائقة، ثم يصلي هذه الصلاة التي قد بقي لها وقت.

وكذلك إن كان جالساً لمعاد ثم ذكر أن عليه صلاة فائقة فله سر! المعاد ويبداً بالصلاة لفائقة إذا غشى فوت للصلاة المأية الداخلة قبل أن يقضى الفائقة، كالعصر تفوته فحشى أن تغيب شمس، وأشبه ذلك وكذلك إن حرج عليه والده أن لا يخرج عن بلدهم، فيحصر لعير للحرب لظهور المشركين على المسلمين، وليس في وجوبهم من يقوم بقتالهم فعليه الخروج، ونرك المقام.

وكذلك الصلاة بدخل فيها في أول وقتها، فبى رجلاً قد أصعب لمقتل ظلاً، أو امرأة مستكرهه على الرى، وهو بقوى على أن يغير ذلك، فليغير ذلك وليقطع الصلاة.

وقد يطلب العبد الورع والتوافل، قضيع لفريضة وهو لم يتمها، وقد يطلب العبد الورع بضيع الوجب بترك المال وهو حلال غنطاً، حشية ألا محل له أحده، ويرك لصاغة والتجارة وأبيراا الحلال، يريد بذلك السلامه فيصيع العيان، فيحييهم ويعريهم، ويسخط عليه الوالدان ويضيعه وهو يقدر على المال أو العمل الحلال

وكذلك يدع الحح مخافة أن يكون حالط ماله حرام من غير أن يعرف

شيئاً يعنيه فيه، وكذلك أن يخرج من البلدة يخاف ألا يسلم فيها فيسخط عليه والداه ويضيع عياده.

وقد يصعب الفرض بنسبته تعرض من الشيطان، فيدع الفرض إرادة أن يؤديه على ما أمر، ومحافة أن لا يجبره أداءه إلا بذلك يحسب أن ذلك عليه هو الواجب، فيكثر الوضوء ويطيله حتى يذهب وقت الصلاة، كطلوع الشمس لصلاة الفجر أو كفوت الجمعة، وكذلك في الغسل من الجنابة، أو يشتغل بالاستبراء، ويرى أن ذلك واجب عليه، وأنه لا يجبره، لا ذلك ويتشاغل بذلك حتى تخرج أوقات الصلوات فيضيع الفرض بصلب هامة العرض غلطاً ووسواساً.

وسائر الأمثلة التي أوردناها تبين كيف يكون حسن أداء الفروض. ولكنها مع ذلك ليست بالمحصر الكامل لكل ما يراه المحاسبى واجباً على المؤمن.



(ب) النفل:

النفل هو العمل الذي لا يوجب له دين، وإن كان يوصى به، ويحث عليه لكونه فضيلة

لذلك مثل النفل ناحيه هامة من الإسلام وإن لم يلزم به المؤمن والمبدأ في رأى المحاسبى أن كل فرض يقابله في نفس الوقت نفل مثله (١)

والنوافل ذات فوائد حمة دغم كونها غير واجبه ويقول المحاسبى جميع ما تطوع به لعباد من نوافل انى لم تفرض عليهم ست خصال

(١) المحاسبى: ارهده، ص ٥

إحدهما. يكفر الذنوب، وتكمل الفرائض، وكذلك جاء عن أبي
 هريرة رضي الله عنه، روى عنه أبو هريرة، ونعيم الداري، أن الله عز وجل إذا كان يوم
 القيامة تعرض عليه صلاة الفريضة، فإن كانت كاملة قبلها، وإن كانت
 ناقصة قيل: «انظروا فإن كان له تطوع قال: أكملوها به» قال أبو هريرة
 في حديثه عن النبي ﷺ؛

«ثم تؤخذ الأعمال على سائر ذلك»

وقال نعيم الداري، عن النبي ﷺ مثل حديث أبي هريرة، إلا أنه قال:
 «فإن لم يكن له تطوع أحد بطرفيه وألقى في النار»

فسبحان الله، يتفضل على العبد حتى يكمل بتطوعه فرضه، حتى كان
 عمل التطوع لرضا في الدنيا.

أما مكفر السيئات فمثل قول النبي ﷺ:

«من أتى السوق وقال: لا إله إلا الله، كفر عن ألف سيئة»، وقال:
 «ما طلعت الشمس على رجل محرماً ملجأً فعابت عنه إلا غابت بذنوبه،
 فعاد كيوم ولدته أمه».

وقال عليه الصلاة والسلام:

«من توضأ فغسل وجهه، فذكر الله، كفر عنه عن كل عضو أصاب من
 الذنوب ما أصاب الماء».

وقال: «خفقان القلب في سبيل الله، يمحو الذنوب» فيأبته يفعل به
 ذلك.

وإنما خص بالنافذة التي لا يكمل بها فرض، ولا يكفر بها ذنب، من
 عمر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وكذلك يرويه ابن المبارك، أن أبا
 هريرة رضي الله عنه، كان في مسير له، فأوتر على بعير، وترك ابن رواحة يوتر بالأرض
 فقال النبي ﷺ.

«يا بن رواحته، أمالك في أسوة حسنة؟» قال:

«بلى يا رسول الله، ولكنك تعمل في عتق وأنا أعمل في رق.»

والأحاديث كثيرة في لعقو عن الذنوب بفصل النواقل

وأما الخصلة الثانية: فشكر النعم ليرضى بذلك المنعم، ولا يربها

عنه، ومن ذلك ما روى مسعر، وسفيان بن عيينة، عن زياد بن علاقة عن

المغيرة بن سعدة، أن النبي ﷺ، كان يقوم حتى يورم قدماه فصل به:

يا رسول الله، أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟

قال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟

وكان علي بن أبي طالب إذا جاءه شيء يعجبه يقول

«الحمد لله الذي بعثته تتم الصالحات»

أما الخصلة الثالثة: فتحريد القلوب وحياتها وعمارها، ليرجع ذلك إلى

قلوبهم لقوله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾^(١)

ومن ذلك الحديث القدسي قوله تعالى:

(من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء،

أحب إلى مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنواقل حتى

أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده

التي يعطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، وإن استعاضني

لأعيت به)^(٢)

الخلصة الرابعة: جزع من حوران العمر أن غصى منه ساعة بغير

(١) آية ١٧ من سورة محمد

(٢) رواه الإمام البخاري

طاعة، وكذلك يروى في تفسير قوله عمر وجل: ﴿وَلَا تَسْ تَصِيْبِكَ مِنْ الدُّنْيَا﴾^(١) قال:

لا تدع أيام عمرك دور أن تعمل فيها لنفسك.

الخصلة الخامسة: وهى أعظم الخصال، وهى اننى تهيج من قلوب أهل الاشتغال بالله تعالى لمحبه له، وهى لكراهية والجرح من مدخل طرفه عين بينهم وبين ربهم بالغفلة حباً له، وشغلاً بذكره، وكذلك كل محب لمحبوب، يجزع من كل حائل يحول بينه وبين الأسباب المشغلة، كراهة أن تحل في قلوبهم الغفلة عن ربهم.

وأما الخصلة السادسة: فليخذه الحساب، وقلة الحبس، ولقربه من الله تعالى فى الاحرة، فى الارتفاع فى الدرجات، لأنهم إنما يدخلون الجنة بعد الرحمة بالتقوى ويعلمون فى درجاتهم بالقرينة إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة، ألا تراه يقول تبارك وتعالى.

﴿وَسَتَبْقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾^(٢).

ولمصرّب الأمثلة فى حسن القيام بالوفاء لسين فى إيجاز ما يراه المحاسنى فى بعض منها. فقد يخدع المريد فى البر الذى هو بآله فيزله العدو وهوى النفس عن لفصل إلى النفس فتستريح لنفس إلى ما بينها، أو يزله العدو عن فصل ما بينها نفسه عليه بالفضل.

وقد يعرض له أمران أحدهما أفضل من الآخر، وقتها واحد، ويزله العدو، والهوى عن أفضلها إلى أدناها كعبادة أخ مريض وريادة أخ صحيح وحاشاها سواء فى الحب و لطاعة فيبدأ بالريادة ويدع العبادة والعبادة أفضل لأنها رياره وعباده أو كالأخ لمستقل بنفسه بوجود الهوى واجر

(١) الآية ٧٧ من سورة القصص.

(٢) آية ٤٨ من سورة المائدة.

محتاج مبيدأ بالمستقل ويدع المحتاج، وكزيارة أخوين أحدهما أنفع له في دينه والآخر أقل منفعة وإن كان قد يسلم معها جميعاً فيصده العدو عن المنفعة حسدً منه والفسس تصده عن إتيانه خشية أن يستعيد ما ينقص عليها لدتها ويحملها على ما يشغل على الفس وقبه الفضل، وكالدعاء للإخوان من الأغنياء على ألوان الأطعمة، يريد بذلك البر ولأجر وصلة الإخوان الفقراء ورضعه ما ينفق على الأغنياء فيهم أولى وكحنارة لغيري والفقير فيؤثر الذهاب مع جنازة الغني لأباد تقدمت يريد أن يكافئ على أيادي الدنيا بالطاعة ويرى أن ذلك أفضل، أو مداراة له أو مخافة لسانه ويرى أن ذلك أولى به والله أحق أن يؤثر هيباب الفقير إن كان أقرب جوراً أو كان أفضل في الدين أوليس معها من يقوم بها وربما أثر الذهاب مع جنازة لغيري بعد علمه أن الفقير أفضل لأثره هواء فقد صبح ما هو أولى به وأحث له على العمل على نعمه منه.

وقد يعرض له مجلسان لمحدثين أحدهما يحدث من الحديث بما هو أنفع في دينه وإتيانه أسلم من الخوض في الباطل هاتئ الذي هو أقل منفعة وقل سلامة له ولأولى به طلب المنفعة والسلامة

وكذلك طلب الحديث الذي قد سمعه مرة أو مرراً يريد بذلك ليعرف الإسناد من وجود عدة ويعرض له جنازة أو عيادة مريض أو ذهاب في حاجة مع أح مكروب أو مضطرب أو ضعيف غريب فيذهب إلى الحديث يرى أن ذهابه إلى ذلك الحديث فصل والأولى به إتيان الحنارة أو عيادة المريض أو زيارة أح يستفيد منه ما يرداد به حيراً أو إغاثة الملهوف لأنه إنما يطلب العلم لمثل هذه الحصول فبدا تركها ففى ماذا يستعمل لعدم؟. وليس يذهب إلى حديث هو به جاهل أو قد سمعه مرة أو مرتين أو مرراً إلا أن يكون فيه زيادة عم يستفيدة فهو مخاف فوته.

فإن كان يستفيد بذهابه علماً ينهاء عن ردىء أو يبدله على هدى فليذهب
حيث يشاء فإن الذهاب إلى العلم أفضل.

وكذلك لصلاة تعرض له في موضعين أحدهما: يلهى النفس بالنظر
والاستماع إلى كلام يكون فيه، والآخر تسكن فيه الجوارح وينقطع فيه
الدهو، ويبرغ القلب، ويكثر منه الفهم، فيصده النفس والعدو عن ذلك إلى
ما هو أحف، فصلى حث للهو ويسهو إما بعلط يرى أن ذلك الموضع
أفضل، أو يؤثر هواه.

وكذلك بصوم فيصعب، فينقطع عن إتيان لجناره وعن طلب العلوم
وعن عيادة المرضى وعن الصلاة، فلا يكاد أن يأبى برأ بالنهار، فالإفطار
أولى به، إلا أن يكون قد ينقطع عن بعض ويأبى بعضاً، فالصوم حسنة
أولى به. لأن الصائم لا يخلو من لصعب، وقد ينقطع أيضاً عن مثل ذلك
البعض وهو مفطر، فالإفطار حذرة إلا أن يكون ما ينقطع به عنه أفضل
من الصوم ويكون لا ينقطع عن مثله في الإفطار.

وقد يعرض به الفصلان: أحدهما به وقت يفوت والآخر لا يفوت وتنه
ويكون لنفس قد سخت بإتيان أحدهما أو يبدأ به أيهما كان وإتيان الآخر
بعد فيصده النفس والعدو بإتيان ما لا يفوت وقته عما يفوت وقته كالخسرة
تعرض وعيادة المريض الذي لا يخاف عليه عجلة الموت لظاهر العادة
وكذلك المحس من العلم لا غنى به عنه والجلوس للمذكر والحديث مع
الإخوان لدين لا يفوت لقاءهم متى أراد عيّد العلم ويحسن معهم.
وكذلك قد يصلى وهو شط هوى فتدعو نفسه إلى النوم فنقول له: إنه
أقوى لك على أكثر عداً فيقطع الصلاة وليس به صعب ولا يعرف من
نفسه بالنهار صعباً قاطعاً فإن عرف صعباً قاطعاً فيسطر حيث يشاء إن كان
يقطعه ذلك الصعب عي هو أفضل من الصلاة صلى بقدر مالا يضعف بالنهار

ذلك الصنف وإن كان يقطعه عما دون الصلاة أتم الصلاة ولم يقطعه
وكذلك المحسن قد يكون فيه مما يستفيد فيه ما ينفعه، فتذكر النفس برُّ
هو أدنى منه فيقوم إليه ويقطع ما هو فيه.

وكذلك أن يكون صائناً يفطر لسرور أح له لعله لا يفهم أن لم يفطر ولم
يتكلف الطعام من أجله، فإن كان تكلفه من أجله، أو علم أنه يعصم وهو أح
مستحق للأخوة سره وأفطره، وإن كان غير ذلك من الإخوان لم يفطر
إلا أن يكون تكلف ذلك من أجله وحده، أو يحلف عليه فيفطر حيثند
للحديث، لأمر النبي ﷺ أن يهر القسم

قال البراء بن عازب: «أمرنا رسول الله ﷺ أن يهر القسم»

وكذلك يدع العص من الصوم والصلاة وغيرها، فيقطعه بعد ما يدخل
فيه خشية ألا يسلم من الرياء والتصنع، وقد أراد الله عز وجل به، فذلك
غلط، إنما عليه المجاهدة بالإباء والكراهة، ولو أطاع في ذلك نفسه لما بقي
له كثير عمل، لا عرض له في ذلك الرياء وغيره، فلم يؤمر الناس بذلك،
أو يقطع العمل في العلانية ليعمله في السر، وقد جرب من النفس الخدعة
إذا صار إلى السر ترك العمل وكسل عنه، فإن كان قد عوده الله عز وجل
القوة على ذلك قلباًته سرا، فهو أحرر وأفضل.

وقد يقطع العمل خشية أن يقول هو مرء، كالرجل يصل في السجد
وحده والناس حوله جلوس أو يذكر الله عز وجل وهم يخوضون، أو
يصمت وهم فيما لا محل، أو يعرض عنه الطعام وهو صائم وهم يمتطرون،
أو يبيت مع قوم وقد عوده الله القيام من الليل، فيدع ذلك كله خشية أن
يقولوا: مرء، فذلك غلط، وترك فصل عظيم وعقده في الترك رياء منه،
لأنه يجب أن يمدوم حمدهم وينظروا إليه بعين الإخلاص لا بالرياء، وقد
اساء بهم الظن أيضاً.

وقد يقطع العمل حشية سوء الظن وإشفاقاً فيها يرى عليهم، فقد خدعته نفسه لتسريح، وقد أساء بهم الظن.

وقد يدع العمل وهو نشط لا يرى من نفسه فترة ولا ضعفاً، فدعوه نفسه إلى ترك وتقول: المدومة على القليل أفضل، فذلك خدعة من النفس، وسكون إلى الراحة، فليظم ما عرض له من أذى إلا أن يجد من نفسه ضعفاً، فإن تركه كراهة الفترة ورجاء المداومة فهو حينئذ أفضل.

وعلى كل: فالعبد المعنى بنفسه، لمؤتم بكذب ربه عز وجل وسنة نبيه ﷺ منه محاسبة نفسه ليميز بين خطراته، أيها الله عز وجل أرضى أو أيها الله عز وجل أسخط؟.

ونخلص مما سبق: أنه إذا عرض للعبد أمران أحسن في وقت واحد بدأ بأوجبهما قبل الآخر الذي هو دونه في الوجوب، أو عرض له واجبان لأحدهما وقت يموت والآخر لا يموت وفته، بدأ بما يموت وفته قبل الآخر. فإن كان في فرض فعرض له فرض دونه لم يخرج منه إلى ما هو دونه حتى يتمه.

فإن كان في فرض فعرض له فرض أحب منه قطع ما هو فيه ودخل في أوجبهما.

وإن عرصت له نافلة وهو في واجب لم يقطعها من أجلها وكذلك لفصل والتطوع. يبدأ بالأفضل بالأفضل، كما كتبت له وعلى

قصر الأوقات

وإذا نوى المؤمن العمل فعليه أن يعرض عما يقوله عنه الناس، وقولهم فيه يجب أن لا يكون مدعاة لترك العمل أو قطعة ولا أن يكون هو السبب في القيم لهذا العمل.

فإن عرض له فضلان ولم يسير أيهما أفصل، فليظر أيهما يجب أن يأتيه الموت وهو عليه.

ولكن النفس مهما كان أمره ومضله يجب أن لا يتم بواسطة ما هو ذنب أو مكروه، كالتصدق أو إطعام الفقير من مال تحارة حرام.

كذلك يجب الامتناع عن النفل إن نتج عنه ارتكاب الذنوب: كالصوم مثلاً إذا أدى إلى الضرر ولعصب، ومسبة الوالدين، أو الأهل أو الخدم، أو إذا عاق عن السعي للرزق، والإنفاق على الأهل، وعندئذ يجب الإبطار، لأن فرض الإنفاق على الأهل أوجب من الصوم^(١).

(١) اعتمدنا في مسألة حسن اعيان بالقرص والنفل على كتاب «المرعاه» ص

القيامة في تصور المحاسبي

يتنص القرآن آيات عديدة تتعلق باليوم الآخر، وخاصة في لأحراء
المكة منه، نذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ، وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ، وَإِذَا
الْعِشَارُ عُطِّلَتْ، وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ، وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ، وَإِذَا الْأَشْفُوسُ
زُوجَتْ، وَإِذَا الْأُمُودُودَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ، وَإِذَا الصُّعُفُ نُشِرَتْ، وَإِذَا
السَّمَاءُ كُشِطَتْ، وَإِذَا الْحَجِيمُ سُعِرَتْ، وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ، عَلِمْتُ نَفْسٌ
مَا أُخْضِرَتْ﴾^(١).

وقوله :

﴿إِذَا السَّمَاءُ تَقَطَّرَتْ، وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ، وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ،
وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ، عَلِمْتُ نَفْسٌ مَا قُدِّمَتْ وَأُخِّرَتْ﴾^(٢).

وقوله :

﴿هَلْ أَتَاكَ خَبِيرٌ لَّعَاشِيَةٍ، وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ حَاشِيَةٍ، عَامِلَةٌ نَاصِيَةٌ، تَصْلى
نَارًا حَامِيَةً، تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آيَةٍ، لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ، لَا يُسْمِنُ
وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ، وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمٌ، لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ، فِي حَنَّةٍ عَالِيَةٍ،
لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاعِيَةً، بَيْنَهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ، فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ، وَأَكْوَابٌ
مَوْضُوعَةٌ، وَنَمَارِقُ مَصْفُوعَةٌ، وَرَزَاقٌ مَشُونَةٌ﴾^(٣).

(١) من سورة التكوين من ١ إلى ١٤

(٢) من سورة الانفطار من ١ إلى ٥.

(٣) من سورة الغاشية من ١ إلى ١٦.

والمحاسبى يتحدث عن بغيمة في مراضع مختلفة من مؤلفاته، وهو
سعى بذلك، على النهج القرائى في تقدير ساس، إلى غرس التقوى في
قلوبهم بالوعيد ثم بالوعيد.

وقد حصص كتاباً لوصف اليوم الآخر وما يلقاه الإنسان بعد الموت،
هو «كتاب التوهم».

والواقع أنه لم يصدر هذا المؤلف كبحت دينى لشرح ما سوف يكون
يوماً ما في الآخرة، ولكنه يصور فيه لعالم لآخر ومصير الإنسان حسب
بتخيله هو منها.

وهو لا يدقش حجة، أو يذكر مصادر علم، وإن كان لا يخرج عن إطار
فكر أهل السنة

وكتاب اتوهم هذا لم يصدر عن عالم إلهيات، بل هو من إنشاء شاعر
روئى، وأروع ما بلغت نظر انقارى له بادئ دى بدء، أسلوبه العربى
الباهر، الذى يعبر من مآثر لمحاسبى الباقية على مر الزمن، ثم إنه جعل
من وصفه الآخر، نموذجاً أدبياً هريداً واسطاع أن ينفذ بكل فصل منه إلى
أعماق قلوب قارئيه.

وليس لما هذا أن نتناول مر يا هذا لكتاب من ناحية اللغة والأسلوب
وإننا لنكتفى بعرض هيكله الأساسى

يرى لمحاسبى أن الإنسان قد حصر أحله رأى ملاك الموت في مظهر
جميل عنه في الجمال، أو في مظهر محيف، ومحدثه هذا الملاك إما يسوعود
اباسمة وإما بالوعيد حسبما أتى في دنياه من خير أو من شر.

وبعد أن يبال عنه لرب، ينزل إليه ملك يسأله، فإذا كانت حياته
خير يسرت عليه الإجابة، وإن كانت حياته شراً تردد في الإجابة وأثقل
عنه

ويرفتح الملكا طاقة في القبر يلمح منها لجة بكل روعتها، أو جهنم وما أعد فيها من عذاب طيفاً لما كانت عليه إجاباته.

ويتدثر جسم الميت، ولكن يبقى في روحه إلى يوم البعث إما السعادة وإما الشقاء.

فإذا مات سائر البشر، وم تعد لأرض تحمل مخلوقاً من الأحياء، ولم يبق إلا الله الخالد، تسمع أرواح الناس نداء يدعوها إلى الحساب الأخير عندئذ تنشق القبور، ويخرج منها الجميع إلى حيث مصدر النداء وإذا اجتمع الكل، اندثرت الكوكب، وانطفأ نور الشمس والقمر، وأظلمت الأرض، واشتقت السماء، وعندئذ تنزل الملائكة لتتصت إلى الحساب الأخير.

ويرى الناس للملائكة كالعمالقة، فيسألونهم إذا كان الله بينهم، فيرتعد الملائكة لذكر اسم الله، ويحييون: «سبحان الله، إنه ليس بيننا».

ثم يصطفون حول المخلوقات المجتمعة، ولما يكتمل التفاف الملائكة بالمخلوقات، تعود الشمس إلى الظهور من فوق رؤوسهم، وتبلغ حرارتها مقدار عشر سموات من الحرارة، ولا ظل إلا ظل عرش الله، ويسمر لظى الشمس والصيق الدنج عنه ثلثمائة عام، حتى تطلب المخلوقات حساباً ولو كان مصيرها إلى جهنم، وتتوسل في سبيل ذلك إلى آدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى حتى يشفعوا لهم في ذلك عند الله، فيكون حواهم: إن غضب الله عظيم وإهم مشغولون بأنفسهم وإن كانوا أنبياء. عندئذ تسعى المخلوقات إلى محمد، فيشفع لها عند الله، فيأذن الله بالحساب.

ويأمر الله جبريل بأن يحضر إليه جهنم، وترتعد جهنم نفسها خشية عذاب الله، ولكنها ترى أن عصب الله يقع على المخلوقات، فتعصب هي الأخرى عليها، ويسأل الله أنبياءه: ماذا كان موقف الناس من دعوتهم؟ فيجيبون على استحياء: لسنا ندري، وأنت العليم.

وفي هذه اللحظة يسكر الابن لأبويه، والأبوان لابنهما، والصاحب لصاحبه، وكل يسعى إلى ذكر ما كان له من فصل على الآخر في الدنيا حتى يظهره في الآخرة

وقبل الحساب تمد جهنم برقيبتها لتلتهم بعض المخلوقات، مستنقة الحكم عليهم^(١)، ثم تأتي الجنة فتستقبل من المخلوقات من كان يحمد الله في كل حال، ومن كان يسهر الليل في ذكره، ومن لم تشغله أمور الدنيا عن عبادته، ثم نظير لكتب، فتستقر في أيدي الناس، إما اليمين منها وإما لشمال^(٢)، ثم يصب الميران، ويتقدم إليه الناس، والملائكة يرون أعضاهم فإذا رجحت أعمال الخير قسمت للعرء الجنة، وإلا كان مصيره جهنم.

وتأتي كائنات من هب لتسر بالناس إلى الله، فيقرأ كل إنسان كتابه، ويسأله الله عما اقترفه من شر في الدنيا، وكيف ارتكب هذا الشر رغم ما أفاده عليه من نعم، ثم يكون حكم الله به أو عليه.

ولكن على الإنسان قبل دخول الجنة أو السقوط في جهنم أن يحسار شريطاً ضيقاً حاداً كالسيف قد علق من فوق أساره، يمشى عليه حاملاً جميع ديوهه على ظهره، وكل خطوه هوقة ألم رهيب، ولهب النار يصعد إليه.

(١) ولا يذكر المحاسب لهذا الأمر شيئاً، ويرى أنه يعنى به تلك المخلوقات التي

لا تسحق حساباً وحكماً لشربها المأصل فيها البدن عليها

(٢) هذه الكتب سجل أعمال البشع في الدنيا، وكتب التي ستقر باليد اشمال

دليل اتهام، أما التي ستقر باليد اليمين فهي مظهر تكرير وشيء

ويلفح من موقه فمن كان ممن حكم عليهم زلت قدمه وسقط دلتهمه
المحيم^(١).

ما ارجل الذي كان خيراً في ديباه فيمشى عللا الشريط في يسر وثقه،
ويرى الجنة قبيل الوصول إلى نهاية الشريط.

وقبل دخول الجنة يغتسل في عيني ماء طاهرة شافية، يرتد بها إلى
الشباب، ويتوج بالجمال. ثم يشرب من عين أخرى فيتطهر من كل آفات
القلوب فإدا ما أتم ذلك كانت له الجنة التي يعرض المحاسبي ها بالوصف
بعد ذلك، ووصفه بجميع بكل العجائب التي يمكن أن تحظر على بال. فمن
أرض الجنة تتصاعد العطور، والقصور عليها من الأحجار الكريمة، والنساء
فيها مكتملات الجمال، وينبهر المرء أمام الجمال الساطع الذي يشهده في
هاتيك الحور العين، وهي كثرة يسقين الرجال ما طاب من اشراب، في
كئوس من فضة وذهب حللت باللؤلؤ.

وهذا الفصل من كتاب المحاسبي مفتت للنظر بما فيه من تصوير بارع
للحالات الحسدية مع الحور، ولا شك أن الموضوع مهياً للسحيلات
الشاعرية بصفة خاصة، بيد أن أسلوب المحاسبي في رسم اللوحات التي
ابتكرها فكره، وصل هنا إلى قمة كماله.

ويمكن القول بأن هذا الفصل واسطة العهد من لكتاب.

وإننا نرى - كما يرى الأساد ماسينيون^(٢)، والأساذ آريري^(٣)
أن كل ما جاء به مؤلف من وصف مبدع إلى هدغه في الحصفه أن يكون

(١) يطيب المحاسبي في تفاصيل عذاب المحيم، والملاحظ أنه بسحد دائماً عن
العذاب الحسدي الذي يلاقيه فيه الإنسان

(٢) ماسينيون: دراسات من ٢٢٣

(٣) آريري مقدمة كتابه لتوهم.

مقدمه ومقدمه موسيقيه بروعة لغتها؛ لتحلّى الذات الإلهية للصفوة
المختارة

فإذا ما نال أهل الجنة حظهم من هذه النعم، ناداهم الملائكة إلى سعادته
أخرى أن ينظروا جيّاداً سعاوية، زينت دءوسها بتيجان من الأحجار
النفيسة، فإذا ما وصلوا، إلى غايتهم، أجلسوا في مقاعد وثيرة، وأنعم الله
إكرامهم بوليمة أطباقها من ذهب، وخدمها الملائكة.

ويواصل المحاسبي وصف ما يلقاه أهل الجنة من رضوان ربهم، ثم ترفع
الستر ويتجلى عليهم الله في روعة كماله، فإذا رأوا الله كان هم بذلك من
السعادة ما لم يهدروا قط على تخيله، فآله الخالد لا شبيه له، ويسلم الله
عليهم، ويحدثهم، ويصتتون إليه في شوق، ويشعرون بسعادة لا تحصى، تنزل
في قلوبهم، وتستنير وجوههم بانعكاسات هذه السعادة العليا

وأخيراً يأذن الله لهم بالعودة إلى الجنة، ليعيشوا فيها أبداً خالدين في
النعيم والسعادة لتي أفاضها على عباده المخلصين.

الباب الثالث

الأخلاق عند المحاسبي

- * النظرية الأخلاقية النفسية عند المحاسبي.
- * الطبيعة الإنسانية والنجاة.
- * المرشد
- * الله والعمل الصالح.
- * الخير.
- * مراقبة الذات المحاسبة
- * مرتكب الذنوب والطريق النفساني إلى النجاة.
- * الرياء يحبط عمل الخير.
- * عناصر الشر.
- * آفات النفس.
- * الغرة.
- * الحمد.
- * السلوك اليومي.

النظرية الأخلاقية النفسية عند المحاسبي

القول بأن المحاسبي صاحب نظرية أخلاقية فائقة بذاتها، وأن هذه النظرية مستقلة عن رأيه في النفس، وأن هذا الرأي في النفس لا يرتبط بدوره ارتباطاً وثيقاً بنظريته الدينية، قول لا تفره الدراسة لصحيحة لفكره.

فالأخلاق، ومعرفة اسفس والدين، مفاهيم تند حل كلها ونتمزج لدى هذا الصوفي..

وإذا أردنا مزيداً من الدقة فقلنا أن نقول بأن الأخلاق ومعرفة النفس لديه ينبعثان من الدين، ويقاسان بمعاييره، وهدفها خدمته..

وإبداع المحاسبي الأصيل إنما يظهر في تحليله الناهد المتكامل للنفس، وغاية هذا التحليل الوقاية من شر ومن ارتكاب الذنوب، وعلاجهما والنجاة منهما، ومع أنه يعتمد أساساً على الدين، وأن هدفه الأوحد مرصاة الله، والتوصل إلى سبيل النجاة، فتحليله هذا للنفس لإنسانية يلعب مرتبه رفيعة في الأصالة ولابتكار..

واعتماداً أساساً في بلورة اتجاهاته هنا على كتابه «لرعدي» وهو أهم مؤلفاته، بالإضافة إلى أنه يساؤل الموضوعات التي يعيها بصفه خاصة..

وقد ألف «كتاب الرعاية» في فترة متأخرة من حياة المحاسبي الفكرية وكان ثمرة لفكر ناصح مكتمل المصروح، ونعتقد أنه يحتوي على آرائه الهائلة، ويعبر عنها عبر تعبير، وهذا لا يعنى بطبيعة الحال أننا لن نرجع في بحثنا إلى مؤلفات المحاسبي الأخرى

ولا نجد ماصاً في بدء ترتيبه لأفكار المحاسبي من ذكر العقبات المحم
الى نقيضها، ففي مؤلفاته تداخل الفصول بعضها في بعض
والمحاسبي يصع لكل كتاب من كتبه، ولكل فصل من فصول كتبه،
عناوين محددة، غير انه لا يلتزم كثيراً بهذه العناوين.
ولكننا اهتمدينا في دراستنا للمحاسبي ما يلي:

انه يرى أن هناك مشعر للفلووف حوهرية، بغيرها لا يصح عمل
ولا يعقل، ونأى بعد ذلك متاعر و أعمال أخرى تصح وقبل طبقاً
لما يكون عليه أساسها، وهذا ما سميه باسظرية فيما يتعلق بفكر صاحبها..
ولو أردنا - تيسيراً على القارئ - أن نصنف نظرية المحاسبي بين
النظريات الأخلاقية الكبرى، لأننا بها تحت عنوان «نظرية النجاة» .
فغايتها في الواقع هي تمكين الإنسان من نقاذ روحه بالمحضوع تتعاليم
الدين، حتى يستطيع يوماً ما أن يكون من عداد الفائزين بالآخرة
السعيدة.

الطبيعة الإنسانية والنجاة

إن الله تبارك وتعالى خلق النار فقال لجبريل: «اذهب فنظر إليها» فذهب فنظر إليها، فقال: «وعزتك لا يسمع بها أحد فدخلها». فحمها بالشهوات، ثم قال: «اذهب فانظر إليها» فذهب، فنظر إليها، فقال: «وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها».

وخلق الجنة، فقال لجبريل: «اذهب فانظر إليها» فذهب، فنظر إليها، فقال: «وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها» فحمها بالمكاره، ثم قال: «اذهب فانظر إليها»، فذهب فنظر إليها، فقال: «وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد»^(١).

فالجنة بما احتوته من سعادة هي من ترك ما يهوى قلبه وتشتهيه نفسه، ورعى حقوق الله رعاية صحيحة.. والنار بما فيها من عذاب هي لمن استجاب لمنازع السوء في نفسه وللهوى، ولم يرع ما أمر الله به.. ولكن طاعة الله ليس بالأمر الهين، فالإنسان جبل على حب ما وافقه، وبغض ما خالفه، والشهوات واللذات والفرائز الكريهة تبدو له ذات بريق تترع إليه نفسه، بينما الأعمال التي أمر الله عز وجل بها، وتندب إليها، أكثرها عمل للقتل، متعب لدجوارح.

والغاية هي مقاومته هذه الطبيعة الإنسانية حتى يستطيع المؤمن أن يجاب ما نهى الله عنه، وأن يقوم بما أمر به..

(١) المحاسبي: الرعاية ص ١٣

وكما كان هذا الصرع كريهاً في الطبع، ثقيلاً على النفس، وحب على الإنسان البدء به ومواصلة..

فإنه قد خلق ليهتليهم، ومن انتصر في هذا الصراع كانت له الجنة. وإن يقوم الإنسان بطبيعته، لا يعنى القضاء على هذه الطبيعة، فطلب ذلك محال.. ويرى المحاسبي أن للكائن من أهل السماوات والأرضين ثلاث طبائع - الملائكة: وقد طبعهم الله على العقول والبصائر، وعراهم عن الهوى والشهوات، «وهم دنيون في طاعة الله عر وجل ذكره لا يفترون، إذ لم يجعل فيهم الأصداد التي بها يفترون، والأهواء والشهوات التي تصد وتؤثر على الطاعات ولذكر».. ولم يجعل لهم ثواب نعيم الجن، إذ لم يجاهدوا الأهواء، ولم يتحملوا الآلام والنصب، وكذلك ليس خلقاً لهم أن يدخلوا نار وقد أجيروا من عذابها.

- الأنعام والطيور والهوام: وقد طبع على صد الملائكة - وهي الفئة الأدنى من الأحياء، خلقها الله على شهوات، وجعل فيها معرفة بقدر ما تغتدى وتطلب معاشها، ويحذر على نفسها وأولادها بقدر ما عرفت من المكروه، ولم يجعل لها الله عقلاً تدرك به الأمر والنهي والعلم للعواقب، «بذلك فقد رفع عنها العصب في كل ما أصابته من الشهوات» ولم يؤاخذها عما أتت من شر، وجعل آخر مصيرها أن تكون تراباً.

وهكذا نجد من ناحية طبيعة الملائكة، وكلها عقل وبصيرة.. ومن ناحية أخرى طبيعة الأنعام والطيور والهوام، وكلها شهوات لا عقل فيها.. وبين النقيضين تجد الطبيعة الإنسانية مكنها، وهي ثانية لطوائف الثلاث، وفيها من طبيعة الملائكة العقل الذي «يحمل الأمر والنهي ويعرف العواقب»، ولكن فيها أيضاً الغرائز التي يحب كل ما يوافقها، ويتبعض كل ما يخالفها أو يؤذيها، وأمر الله الإنسان أن يجاهد - عما أعطاه من عقل -

ما دعت إليه النفس من قبل غريزتها، وخلق الثواب وخلق لعقاب هذا الإنسان الذى يدرك معنى صراع النفس، ولكنه قد يترك لها العنان غير مبال بما أمر به الله.

ولكن يجب أن لا يتخيل أن الله كلف الإنسان بالقضاء على الغرائز، بالقضاء عليها قضاء على الإنسان، ولن ترسل هذه القرئز أبدًا، ولن يتحول الإنسان إلى ملاك.

ولا شك فى أن هناك رجال يسكنون بداء الغريزة فى نفوسهم وهم الأقوياء، بيد أن عرائزهم لا تنمحي وإن استكاثت.

إنها تضعف وتتخذ بالمجاهدة، ولكن سرعان ما تتيقظ إذا وجدت الظرف المواتى لها، وقد تتخذ صورًا يعتر لها الإنسان

ومقاومة الشهوات والغرائز التى يدعو الإنسان إلى لمحاصيه. لا تعنى مقاومة كل الشهوات والغرائز الإنسانية، فالهدف هو تطويع النفس بما يوصى الله.

المُرشد

تطرقنا بنا بحوثنا فى التصوف إلى ما قد يكون هناك من علاقة بين نظرية المعرفة لدى الصوفية، وبين نفس النظرية عند اللا أدريه، فلاحظنا صلة وثيقة بين الفريقين، وإن بدأ هذا لأول وهلة سافضًا عحيًا..

إن اندرج المنطقى الذى يؤدى بالمتصوفين إلى التصوف هو الذى يؤدى باللا أدريه إلى الشك، ولدى الجميع نفس اليقين العميق بأن الإنسان ليس يجد السبيل إلى الحقيقة المطلقة لأن حواسه وعقله فاصرين عن ذلك، وكان هذا هو السبب والأساس فى تحول الغزالي إلى التصوف

لم يصل إلى الحقيقة بعد طول الجهاد فراح يبحث عنها في طريق آخر غير الذي دأب عليه، رح يبحث عنها خارج نفسه، إن صح هذا التعبير، وقصور الإنسان عن إدراك الحقيقة أمر ذو شأن كبير لدى المحاسبى أيضاً. ونحن لا نعلم إن كانت الأداة التي مر بها قد اتسعت بنفس النهج المطلق الذي سارت عليه عند لغزالي، ولكننا نقرأ في كتاب «الوصايا» أن المحاسبى قلق كثيراً لعدم توصله إلى الحقيقة، وخشى أن ينتهى أجله قبل أن يدرك مراده، وفي ذلك يقول:

«عظمت مصيبتى لفقد الأدلاء، الأنقياء، وحشيت بفتنة الموت أن يفجأى على اضطراب من عمرى، لاختلاف لأمة، فالكتمت في طلب عالم لم أجد لى من معرفته بدءاً، ولم أقصر في الاحتياط ولا في النصح، فقيض لى الرءوف بعباده قوماً وجدت فيهم دلائل التقوى، وأعلام الورع، وإيثار الآخرة على الدنيا^(١)».

وإذا كما لم يثر على شيء كثير من لتفاصيل الخاصة بالطريق لدى سلكه هذا الصوفى من أجل الوصول إلى غايته، فإننا نجد مع ذلك في كتاباته معلومات تبلى درجة كبيرة من الوضوح والتحديد، بشأن موقفه المتشكك تجاه الآراء الشخصية، وهو القائل:

قد ينفى العبد العجيب بالرأى الخطأ بتهمة نفسه، لمعرفته ما يتنبأ عليه في الخلقة، أن من شأها السهو والغلطة، ولما جرب منها من كثرة غلطها، وكثرة رللها، وسوء تأويله، مالا يحصى مراراً كثيراً... في كل ذلك يرى أنه مصعب، لا يشك عند نفسه في ذلك، ثم يتبين له بعد أنه قد كان عطل وعطل، وكان استحسناته بذلك من قبل الهوى وتزيين الشيطان، ولو لم يبعثه على تهمتها إلا ما يعرف من عامة هذا الخلق، من غلطهم وقولهم في دين

(١) المحاسبى، الوصايا ص ٣٠ تحقيق عبد انقادير عطا

الله عز وجل بعير الحق، وكلهم يرغم فيما يدعى الحق وهو على باطل وهو مع ما هو عليه من الباطل - لا يشك أنه محقق صادق، وإن من خالفه يبطل كاذب.

وقد علم أن لقلوس طبعها بعضه هرب من بعض، بل كنها لا تعرى من السهو والعقلة، وما تعسه إلا من أنفس الحق، من ولد آدم عليه السلام. بينه كيببتهم، وغريبه كعريزهم، ومع ذلك فإن المرين لهم واحد، وهو الشيطان المرصد لهم بالعداوة، والباغى لهم الزلل ولعصيان؛ فإن أثبت في قلبه هذه المعرفة بنفسه اتهمها.

ولم يرل ذلك شأن لصالحين العارفين بأنفسهم، يقول ابن مسعود رضى الله عنه: «أيها الناس، اتهموا الرأي».

ويقول سهل بن حنيف:

«أيها الناس، اتهموا آراءكم».

ويقول عمر رضى الله عنه:

«اتهم رجل رأيه»^(١)

فهل يعنى ذلك الإحلال للشك؟

لا، بكل تأكيد.. فأمامنا المرشد الهادى، واصباح الخير - أمامنا القرآن، وإلى جانبه السنة والإجماع. وفي القرآن تفسير كل شىء.. فلتفكر فيه ليل نهار، وعليها بهممه والعمل به^(٢)

ومن أبعد عن القرآن، ابتعد عن الشفاء، ومن اتبعه استقر في نعيم الجنان^(٣)

وليست الحقيقة - في الواقع - إلا السنة^(٤).

(١) برعايه ص ٢٤

(٢) المراقبة ص ١١.

(٣) أدب لقلوس ص ٩٠

(٤) أدب القلوب ص ١٣٤

الله والعمل الصالح

إلى أي حد يكون فصل الله في الأعمال لصالحته التي يأتيها الإنسان؟ المعروف أن علماء الدين لمسلمين أثاروا هذه القضية وناقشوها، والواقع أنهم لم يحصروها في إطار الصيق الذي نصه لها الآن، وإنما بحثوا مسألة الأعمال الإنسانية في مجموعها. الصالح منها والخبيث..

وكان رأي المعتزلة جارماً بأن الله لا يتدخل في عمل الإنسان، فالإنسان هو الذي يأتيه. وهو المسئول عنه.

وكانت هناك وجهات نظر متفاوتة الصلة بفكرة لقضاء والقدر. وموقف المحاسبي تجاه الأعمال الصالحة يتميز شيئاً ما عن غيره، فهو يرى أن الله يوقظ ضمير الإنسان بما يذكره به من عيبه، ولعقاب الذي أعده لمن يقع عليه، ثم بما يصمه من النعم العظمى التي حصصها لمن أطاعه.

إن الله هو الذي يشرح قلب الإنسان، ويحثه على الخير^(١)، ثم هو الذي يمنحنا من فضله، ويقربنا في العمل الصالح، ولكن هذا لا يعني أن الله هو الذي يقوم بالعمل، لأنه بغير فضل من الله لا تنجح الإنسان إلى هذا العمل، حيث لا يجهل فيه هوى النفس بل يشغله بغيره

وبما يدل على ذلك ما روى عن ابن عباس أنه قال
ما أصاب داود عليه السلام الذب إلا بإعجاب أعجبه من نفسه، أو
قال:

(١) مسموع ريت، مخطوطات الحارث بن أسد المحاسبي ص ٨، ٩.

يا رب ما أتى ليك إلا وإنسان من آل داود قائم، وما أتى يوم
إلا وإنسان من آل داود صائم، فأوحى الله عز وجل إليه:
«يا داود، إن ذلك لم يكن إلا بي، ولولا عوى إياك ما قويت على ذلك
وسأكلك إلى نفسك».

وفي حديث آخر - «وعرقتي وحلالتي لأكنك إلى نفسك»..
قطاعه الله أعجب بها فأبركته العقرة على ذلك، حتى أصاب ذنباً ورره
السم والحزن أيام حياته، والتبعة في الآخرة

ومن ذلك ما قال الله عز وجل في كتابه العزيز في يوم حس لأصحاب
محمد ﷺ، وهم خير عصاياه على وجه الأرض، بل لا عصاياه تعبد الله عز
وجل غيرهم ومن تبعهم، غضاب لله عز وجل، ينصرون دين الله عز وجل،
مستجمعون لقتال أعداء الله عز وجل، فقال الله عز وجل:
﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمْ
الْأَرْضُ بِمَاءٍ رَجِيَّتٍ لَّهُمْ وَلَهُمْ مَذْبِجٌ﴾ (١).

فيمكن إذن نلخص موقف المحاسبي من الأعمال الإنسانية
فيها يلي:

الله يحض الإنسان على الخير؛
وهو يقويه عليه.

ولولا هذا الفضل من الله لما استطاع الإنسان إلى العمل الصالح
سبباً، مما يقع عليه من تأثير هوى النفس ودعوه الشيطان.

(١) الرعاية: ٤٠٧ - ٤٠٨، والآية من سورة التوبة: ٢٥.

الخير

لعل الصواب قبل العرض لفهوم الخير عند المحاسبي أن نبحث لماذا - في نظره - يجب على الإنسان عمل الخير.

هيل عن الكثير من المتصوفين إن الهدى من عمل الخير لديهم ليس دخول الجنة وبحسب الجحيم أو حسن المقام في الدنيا، ولكنه تقرب من الله، وسعى إلى محبته.

وهذه الفكرة موجودة فعلاً عند محاسبي، ولكنها ليست بالوحيدة المسيطرة عليه، فهو يقول ويردد أن هدف عمل الخير تجنب لعقاب في الآخرة، والفوز بتعيم الحنان.

غير أن قيمة هذا التعيم الأخرى هي بطبيعة الحال مشاهدة الله، وكتاب التوهم دليل واضح لنا في هذا الأمر.

ومع ذلك، فحسن المقام في الدنيا جزء مما يهدف إليه الإنسان بعمل الخير، يقول المحاسبي عن رعاية حقوق الله:

«وجعل الله القيام بها مصابحاً لكل خير في الدنيا والآخرة، وهي لتقوى، ولأهلها أعد الجنة، ولأهلها جعل الأمن في الآخرة؛ وإياهم وعد قبول الأعمال، وإياهم سعى بالولاية، ورفع عنهم الخوف والحر في يوم المحاسبة والأحزان، ولهم جعل النصر في الدنيا والمعونة على طاعته، ولهم جعل المخرج من كل ما صاق على أعباد، ولهم ضمن الرزق من غير الوجوه التي يحتسبونها»^(١).

(١) الرعاية.

وفي نفس المعنى يقول أيضًا:

«ففى نعيم الطاعة فى الدنيا وانظر بعم الآخرة عوض من تنعصر
لذات الدنيا»^(١).

ففى طاعة الله يجد العبد النعيم لقيم الحقيقى.

والمحاسبى إذن يقر فكرة النعيم فى الدنيا ولكن الأمر الجوهرى
عنده هو نعيم لآخرة، وهو يجمع مختلف العايات التى يبتغيها الناس من
عمل الخير، فيجدها أربعا:

أولها: - خيرها وأشرفها - وأصحابها يأتون الخير رعاية لحقوق الله،
وهم يدركون عظمه بقلوبهم فيكون سعادتهم فى قلوبهم منه بطاعته
وثانيها: بأنى أصحابها الخير ليسكوا بجوار ربهم فى الجنة، ويحموا
بما وعد به عبده.

وثالثها: أصحابها يخشون العذاب الشديد الذى أعد لمرتكبي الذنوب،
ويمنعهم خوفهم من التفكير فى الثواب.

ورابعها: أصحابها كل من تعفف، وعلم أن الله يطلع على سائر أعماله
ونياته، فكره أن يره نفسه وهو يعمل، أو ينوى على غير ما ارتضاء له^(٢)

والآن، ما هو الخير فى نظر المحاسبى؟

مفهوم الخير لديه ليس بالمؤسس على يراهم منطقية بثبتها، أو
بالمستخلص من فلسفة يستغل عن المجال الدينى

الخير فيه يراه هو، ويكل بساطه - ما يقول لدين الإسلامى إنه
حق، وليس هذا بالمفهوم لعجيب أو الذى يفتقر إلى المنطق، فالمحاسبى
مؤمن كل الإيمان بالإسلام، ولا شك لديه فى الوحي لدى برل على

محمد ﷺ هو حرء لا يتحرأ من لعقيدة، وحتمية الإسلام لا تقبل في فكره الجدل،

دن، وما دامت القواعد الإلهية هي القواعد الحقة، وهي وحدها الباقية لكامله، فليس من داع إلى البحث عن الخير في غير ما تعلمنا إياه.

وقد عرصنا من قبل لوجهه نظر المحاسبي في آراء الشخصيه تحت عنوان: «المرشد» ولهوله:

«وقد علم أن النفوس طبعها بعصه قريب من بعض، بل كلها لا تعري من السهو والعفلة»

بذلك يعتقد أن مجرد التفكير في بناء مفهوم الخير على أساس غير الدين لم يكن ليخطر للمحاسبي.

كذلك من المحال تصور مردد تقول المعتزلة بأن العقل يمكنه بداته إثبات ماهية الخير، فهو يختلف عنهم في هذا كل الاختلاف، حتى في الأنماط التي يستخدمها، فكلمة «الحسن» مثلاً اسئمة لدى المعتزلة، والتي هي مصطلح فلسفي أكثر منه ديني، لا ترد في كتابات المحاسبي إلا نادراً، وهو يعبر عن نفس المعنى بكلمات دينية أصيلة، مثل «البر» أو «الخير» مرادون لـ «الحسن». وفي ضد «الحسن» لا يستخدم كلمة «لقيب» وإعما بدعاً إلى كلمتي «المعصية» و«الشر».

ولما كان هدف الأخلاق في نظر المحاسبي هو نجاح الإنسان، فليس من المستغرب أن يصبح كل عمل في سبيلها خيراً.

ولسوف نعود بادئ ذي بدء إلى بيان مبدأ يتبنى عليه فيما يراه مفهوم الخير، وليس هذا لمبدأ في الواقع - ورغم مظهره - بالمبدأ المستفل عن دين، حيث يلجأ المحاسبي في شرحه إلى تعبيرات دينية بحتة

هؤلاء الذين سوف يفورون بالنجاة، هم «أهل العدل» و «أهل فضل»، ولعدس ضرورة للنجاة، والعدل حسن سلوكك، أما الفضل فليس بفرض، إنه نفل. ومن العدل، أى من «فروضش الصبر والورع والإصناف، ومن الفضل أى من اسوافل، وليس من لفروض: الزهد والرضا والإحسان».

ومن انشغل بالعدل عن الفضل عما لله عنه، أما من اشغل بالفضل ولم يعدن فهو حال يتبع هو هـ، وحسم على من يسنى العدل أن يعرف معنى الإنصاف^(١) ..

وفى موضع آخر من نفس الكتاب وهو «أدب النفوس» نقول المحاسنى، إن الأمور التى تؤدى للنجاة أربعة، أولها وأهمها: معرفة الله.

وثانيها: وهو أيضاً على درجة كبيرة من الأهمية - أن يكون العمل لوجه الله وليس لإرضاء لخلقك..

وثالثها: تراء ما هى الله عنه، والقيام بما أمر به

أما رابعها: فحمد الله على ما أنص من نعم^(٢) ..

إذن، فالمبدأ المؤسس عليه مفهوم الخير ليس أن يكون الإنسان عادلاً فحسب، ولكن أن يكون عدله مطابقاً للمعاهيم التى حددتها لإسلام وبذلك شرح لنا المحاسنى أنه من المحتم على المرء للعدل أن يعرف معرفته صحيحة ما أمر الله به، كذلك يتحتم عليه أن يعرف متى يعمل، وكيف يعمل فيكون عمله طاهراً خالصاً.

(١) المحاسنى: أدب النفوس ص ٦٥

(٢) المحاسنى: أدب النفوس ص ٩٤.

والإنسان الذى لا يعمل الخير لا بد أن يتحلّى بخصائص عدة
أولها: الصدق، والصدق فى نظر المحاسبى هو بكل بساطة: السنن
الإسلامية ولصادق: من اتبعها اتباعاً أميناً.
ثم الإخلاص: أى أن تكون أعمال الإنسان لوجه الله لا يبتغى منها
جزاء ولا شكوراً..

ثم الحمد: أى دوام حمد الله على نعمه، فكل النعم من فضله.
وأخيراً: الرجاء والخشية رجاء قبول العمل وثوابه، وخشية الله
وعقابه.

والرجاء والخشية يجب أن يكونا متواريين لدى الإنسان كما وحى إلى
ذلك الرسول ﷺ^(١).

ولما كان الخير فى رأى المحاسبى هو اقيام بما أمر الله به، والانتهاى عما
نهى عنه، فلا عجب فى الاهتمام الكبير الذى يوليه لـ «التقوى» وفى
نظره إليها على أنها مفتاح النجاة..

والتقوى فى مفهومه: الخوف والحذر من الله، خوفاً وحذراً ينطويان على
ضرورة أداء ما أمر به، والابتعاد عما نهى عنه..

والتقوى تتعلق بالجوارح كما تتعلق بالضمائر، وحقيقتها فى الجوارح -
القيام بالحق وترك المأصي، وحقيقتها فى الضمير: إرادة الديان فى الفرض،
وإخلاص العمل له فى النفل.

وبغير التقوى لا تقبل أعمال الطاعات التى ندب الله إليها عبده، ولم
يعرضها عليهم.

(١) المحاسبى: أدب الشفوس ص ٦٧، ٦٨.

والتقوى أساس طاعة الله، وهي ابض مصدر الورع، والدافع إلى كل أعمال الخير..

فالتقوى أول منزله لعبدين وأعلاها، وبها تزكو أعمالهم، لأن الله - عز وجل - لا يقبل عملاً إلا ما أريد به وجهه..

ويغبر التقوى لانتحاة في الأخرى..

ألم يعد الله حنته لأهل التقوى؟ أفي هذه الحنة مكان لمن لم يتعه؟ لقد أمر الله جل ثناؤه في كتابه في آيات كثيرة بها، وعظم قدرها وقدر القائمين بها، ونبها النبي ﷺ عليها بسسته، وعظم قدرها والعلماء من بعده إلى عصرنا هذا..

غير أن التقوى ليست بالشيء الذي يختص به «بدين الإسلامى وحده»، إنها أمر عام، ويوجد حيث يوجد كل دين مرل..

ويقول المحاسبى بأن الله أوصى بها أنبياءه وعباده قبل الإسلام، كما أوصى بها نبي الإسلام والمؤمنين^(١)

ولكن لتقوى إن اقتصرت على القيام بما أمر الله به، ومجابهة ما نهى عنه، وعلى فرض عمل الخير وترك الشر، فلن تكون شاملة لمفهوم الخير كله..

فالموافل والفضل جزء لا ينكر من الأخلاق، بل لعله من زاوية معينة أسمى مكوناتها، وانقيام بالفرض ليس سوى تعبد الإنسان بما أمر به، وقيمه وإن كانت كبيرة من وجهة نظر الدينيه - لا تعادل في رأي رجل الأخلاق التطوع بأعمال الصالح.

(١) المحاسبى: الرعاية ص ٦ - ٨

ولكن الدين الإسلامى لم يفعل هذه الناحية وبالتالي نرى المحاسبى مهتماً بها إهتماماً جليلاً..

ولقد رأينا فى عرضنا للمبدأ الذى أسس عليه مفهوم الخير لدى هذا لصوفى أنه اتخذ مما هو عدل الواجب لأخلاقى، ولكنه لم يهتم إبراز «ما هو أكثر من العدل». أى العمل الصالح الطوعى أو الفضل

والحقيقة أن العرض ليس إلا أقل القليل الواجب، إنه من وجهة نظر لإسلام - ومن وجهة نظر المحاسبى - لا يشمل كل مفهوم الخير، فقد نرى أولاً وضع قوانين واجبة يؤسس عليها النظام الاجتماعى، ووضعها الإسلام فى صورة الفروض، ثم تكون بعد ذلك الدعوة إلى الخير التطوعى والحلت عليه، وهذا ما قام به الإسلام أيضاً.

والمحاسبى طبقاً للمبادئ الإسلامية - يخص النوافل والفضل بمكانة كبيرة، ولكنه - بطبيعته الحال - يجعلها فى الترتيب بعد الأعمال الواجبة وفى تفصيله بالأعمال التى هى الخير يجعلها طائفتين.

أعمال القلوب، وأعمال الجوارح.

هأما فيما يختص بالثانية، فقد عرضنا لمعظم جوانبها فى صفحات سابقة تحت عنوان «الفروض والنفل» و «الندب والتوبة».

وأما فيما يتصل بأعمال القلوب فسوف نعرض لها بعد قليل، حيث نريد - أولاً - إثبات أمر حدير بالملاحظة، وهو أن هذه الفروض والنوافل ليست - فى عمومها - بذات طابع محدد يجعلها صاحبه للبيئة التى نشأت فيها فحسب، بل إن القليل منها الذى يختص بالشعائر، وبالتالي الذى يحمل طابعاً إسلامياً بحتاً، قد أنشئ بحاية أخلاقية.

ولا يسكر أن هذه الفروض والنوافل إنما هى من الدين قبل كل شئ..

وأن هدفها الأخير هو اسجاة في الأخرى، ولكن لما كان من أغراضها السمو بالصمائر لبشرية، وإصلاح العلاقات بين الناس، فهي - أيضاً - وينفس الدرجة من القيم الأخلاقية.

وعلى أى حال، فالدين والأخلاق يربط بينهما أوتى الصلات، بل إننا لمسك كثيراً في إمكان وجود أخلاق مفصلة عن الدين..

ولعد الآن إلى أعمال القلوب المفروضة، حيث يقول المحاسبي إنها تنلخص في ثلاثة أمور:

١ - الإيمان بالله.

٢ - الاعتقاد بالسنة ومحاربة البدع.

٣ - الاعتقاد بضرورة طاعة الله ومحاربة كل مالا يرضيه.

وهذه الأعمال الثلاث للقلب تتضمن بدورها فروعا عديدة، فهي تفترض على سبيل امثال الخشوع، وبرك العجب والكبر.. كما تفترض، إثارة لمحتاج، ودوام الدعاء للأمة الإسلامية، ومحافة الله، ومحاربة العره، والنخلص من الحقد والبعض..

وتفترض أيضاً: الصبر، والشعور بدرصا، واليقين بأن ما في الدنيا رهو باطل فان، وترك الحسد.

وتفترض كذلك: الثقة بالله وبالتالي: لنوكل، ولخصص من الشهوة إلى متاع الدنيا وبالتالي: لرهد، وعدم الخوف مما سوى الله، وبرك الرياء والعصب وهذا الدال يؤديان بالإنسان إلى مالا يرضاه الله

وفي مؤلفه «كتاب في امراقبة» يعلو المحاسبي أهمية كبرى على قواعد عشر تصل - في رأيه - بالإنسان الذي يتبعها إلى مرتبة رفيعة من وجهة النظر الأخلاقية..

- أما الذى لا يأخذ بها فهو بسير إلى التهلكة، تلك القواعد العشر هي :
- الامتناع عن القسم بالله سواء حاشاً أو غير حاش
 - الامتناع عن نقض العهد، إلا عند الضرورة الجائرة، ولأن يعمل الإنسان خير له من أن يعطى العهود.
 - الامتناع عن نقذ والمسة، وعن إيذاء أى من المخلوقات
 - الامتناع عن ادعاء بالشرف على أحد من الناس ولو كان ظالماً ولا امتناع عن إيذاء الغير مقابلة لأذاهم.
 - الامتناع عن رمى الخير بالكفر أو الرية، وعن وصف للناس بالكفر لمجرد ارتكابهم ذنباً من الذنوب.
 - الامتناع عن الالتفات إلى شيء أو الرعة فيه إن كان إتيانه ذنباً سواء فى ذلك ما يتصل بالقلوب أو الجوارح.
 - ألا يكون اعتماد الإنسان فى أمر من الأمور على أحد من الناس، بل يعتمد دائماً على الله
 - ألا يكون رجاءه إلا فى الله
 - وأخيراً - وهذه القاعدة العشرة هي منبع جميع لهوعد لسابقة - أن يرى الإنسان فى كل من يلقاه إنساناً خيراً منه، ولو كان هذا الذى يلقاه جاهلاً أو كافراً، فلا أحد يعلم بما خصه به الله أو خص غيره من مستقبل الأعمال، وإذاً فيجب على الإنسان ألا يحقر أحداً من الناس، وأن يحسن الظن بسائر الناس^(١).



عرضنا فيما سبق ملامح من تفاصيل الخير كما يراها المحاسبى، ولكننا

(١) المحاسبى، أجد النفوس ص ٨٢٩، والمراقبه ص ٧، ٨

بطبيعة الحال لم تأت بجميع هذه التفاصيل، وبصورة عامة فإن هذا لصوى بهم في المقام الأول بفروض القلب، ويظهر إتيها على أنها أصل شجرة فروعها من فروض الجوارح، ويقول بآلا وجود للفروع بغير الأصول، وإذن، فالبدء يكون بالأصل ثم يصير التدرج إلى الفروع^(١).



والمحاسبى لا يرى الخير - أى خير - خيراً إلا أن أسس على اليه، وهذه اليه يجب أن يكون طاهره وخاصه^(٢).. ومعنى أن تكون طاهرة وخالصة عنده: ألا يكون لها غاية سوى مرضاة الله.

وهو يعطى أهمية خاصة بطهر وإخلاص لنية لتي يجب أن لا تكون إلا لوجه الله. ويعتبر أن هدين العاملين أشق الخطوات التي تنبغى على الإنسان في طريق السحاة، ويقول: إن الخير قد يندس حال عمله لأسباب عديدة، ولذلك يوصى ويلج في الوصية بتطهير النية، وبامجاهدة الذنعة من أجل هدا..

ولسوف نعرض في فصل تال بعنوان الرباء كمعصر إحباط لعمل الخير.. وعن الميسور إذن أن نفهم سبب اهتمام المحاسبى اهتماماً زائداً بمسألة «المحاسبة» أى مراقبة الضمير - التي بها يستطيع الإنسان أن يميز الخير من الشر..

(١) المحاسبى، أدب النفوس ص ٩٨

(٢) المحاسبى، أدب النفوس ص ٨٩

مراقبة الذات المحاسبية

إذا أراد الإنسان أن يتجنب ارتكاب الذنوب حتى ولو كان غافلاً عنها، وأن يحيط علماً بالذنوب التي قد يكون ارتكبها في الماضي، فعليه بمراقبة الذات أو المحاسبة

والمحاسبة، على حد قول المحاسبى، هي: «النظر والشبث بالتميز لما كره الله عز وجل، مما أحب»^(١).

والمحاسبة على وجهين، أحدهما: بالنظر إلى مستقبل الأعمال، والثاني إلى ما استديره الإنسان منها. فأما لمحاسبة في مستقبل الأعمال فقد دل عليها الكتاب والسنة وأجمع عليها علماء الأمة.

وفي كتاب الله ﴿يَعْلَمْ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾^(٢)

وفي هذا تحذير منه بناءً وتنبيه على ذكره تعالى في كل ما نأق وما ندع، وانقائه في أداء قرائضه واجتناب قواصيه.

وقال النبي ﷺ، إذ سأله رجل أن يوصيه ويعظه:

«إذا أردت أمراً فتدبر عاقبته، فإن كان رشداً فامضه، وإن كان عباً هاتمه عنه»

وقال عمر رضي الله عنه:

(١) المحاسبى: الرعاية لحقوق الله من ٩

(٢) آية ٢٣٥ من سورة المائدة

«حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وهيئوا للعرض الأكبر».

وكتب إلى أبي موسى:

«حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة»

وقال سلمان رضي الله عنه:

«اتق الله عند هبك إذا هممت، وعند حركك إذا حكمت»

هذه هي المحاسبة فيما يستقبل من الأعمال.

وأما المحاسبة فيما مضى من الأعمال فهي أيضاً قد أوصى بها الكتاب

والسنة فقال لها عطاء الأمة ففي كتاب الله سبحانه وتعالى

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ^(١)﴾

وهو أمر منه تعالى باستدبار الأعمال التي مضت، ليكون الدمع عن

لذنوب، فالتوبة إلى الله

وفي الكتاب لكريم أيضاً

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلِنَنْظُرْ نَفْسَ مَا نَدَمْتُمْ بِهِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ

إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ^(٢)﴾.

وفي هذه الآية لم يقل «ما تقدم» وإنما معنى الآية اسطر لما مضى لتكون

التوبة من الذنوب التي مضت فيما مضى من الأعمال

وروى عن عمر رضي الله عنه أنه كان يضرب قدمه بالدرة إذا حنه

الدليل ويقول لنفسه:

(١) سورة النور آية ٣١

(٢) المائدة آية ٦٨

«ماذا حملت اليوم؟»

وقال الحسن في تفسير المحاسبة في مستقبل الأعمال ومستدبرها
 «إن المؤمن قوام على نفسه يحاسبها الله عز وجل، وإنما خف الحساب
 يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم
 القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر عن غير محاسبة.
 إن المؤمن يتجوز الشيء بمحبته، فيقول:
 «والله إنك لمحببي، وإنك لمن حاجتي، ولكن هيهات هيهات، حيل بيني
 وبينك».

ويصرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه، فيقول له:
 ماذا أردت بهذا؟ والله لا أعدر بهدا، والله لا أعود لهذا إن شاء الله
 أبداً^(١)».

وكذلك أهل الدنيا في صناعاتهم وأعمالهم: إذا أراد أحدهم أن يتبدى
 العمل رواده في نفسه، وقدره ومثله في وهمه، وصوره في اعاقبة كيف يكون
 إذا فرغ منه، فإذا تمثل في وهمه على ما يريد من الإحكام والتمام ابتداءً فيه،
 حتى إذا فرغ منه عرضة حشية أن يكون وقع منه زلل أو نسيان فأخطأ فيه
 وصرط في إحكامه، فإن رأى تفريطاً أم ما بقي منه وأصلح ما فسد منه
 «فعمل الله عز وجل أولى بذلك أن يتتبعوا قبل أعمالهم، ويثقلوها في
 أوهامهم كيف تكون بعد فراغهم منها، فلا فراغ لهم من جميعها إلا عند
 موتهم^(٢)».

وكذلك المساجرون من أهل الدنيا، إما فراغهم من أعمالهم إذا أتموها

(١) المحاسب: الرعية لحقوق الله ص ٩ - ١١

(٢) المحاسب: الرعية لحقوق الله ص ٦٠

وإنما يحكمونها ويستعرضونها بعد فراغهم منها قبل أن يعرضوها على من استأجرهم لتكون على ما أراد وأحبب وكذلك عمال الله جل وعز سنبثون في أول أعماطهم يعرضونها بعد فراغهم منها كيف تكون ثم عرضت على خالقهم؟

هل هي كما يرضى بها عنهم؟ وهل أثود كما أمرهم؟

فشدن بينهما: هذا مخلوق استأجر مخدوماً بقليل فإن مكدر ممرج بالغوم، ولا يخلو أن يناله من هم يعترض، أو حزن يعترى، أو مصيبة فاجعة، أو سقم نازل، أو موت مفاجئ، وفيه الحساب حتى يتبع عليهم جميع ما عملوا واكتسبوا فيحاسبون عليه.

والذي عمل له الصادقون ملك عظيم رعدهم على عماهم الآخر الكبير، الباقى الذى لا يهد، ولا يعترض فيه غم، ولا يعترى فيه حزن، ولا يحل بالعمال فيه سقم، ولا يختم عيشهم بالموت، ولا يتبع عليهم فيه الحساب^(١).

فالتفكير والتثبت قبل العمل، والتمييز بين الخير وبين الشر الذى قد يكون عالماً به، واستدبار الأعمال الماضية ومراجعتها للتوبة عما قد يكون لحق بها شر، كل ذلك فرض وضرورة على الإنسان، والرجل الذى نفسه إذا ما تأمل في أعماله الماضية لم يجد يوماً من أيام حياته خلا من ذنب، فما بال المهمل المتكاسل في أعماله؟

ولكن الإنسان لا يجب أن يقصر تفكيره على الماضى، بل يسعى أن يعبر نفسه على الدوام محاطاً بشهوات الدنيا وإغرائها، وأن يعلم أنه لا بد منصرف عن سبيل الله - شاعراً بذلك أو غير شاعر - إن لم يعمل فكره في النظر والتثبت وتمييز الخير من الشر ومراقبة الذات، أى المحاسبة

مرتكب الذنوب والطريق النفساني إلى النجاة

أرد المحاسبي أن يرشد مرتكب الذنوب إلى سبيل التوبة والنجاة، فألف في ذلك رسالة هي: «كتاب بدء من أناب إلى الله تعالى». وليست هذه رسالة إلى طرحها بالمسألة البسيطة ذات الحل المواتي، والعسر فيها يرجع في المقام لأول إلى بعدد تركيبات النفس الإنسانية واختلافاتها.

وقد تحدث عنها المحاسبي في كتب أخرى من مؤلفاته غير هذا الذي ذكرناه.. ونحن هنا نعرض للمهجع الذي قال به في كتاب «المرعاية» من أجل تمكين مرتكب الذنوب من الاستهداء إلى طريق نجاته. وهذا «المهجع» فيها نرى أكثر منطقاً من غيره، ولا يحمل ذلك الطابع المعير لمصوف الذي نجده في مهجع «كتاب بدء من أناب إلى الله تعالى».

والتقدير الصحيح لبراعة التحصيل النفساني في المهجع الذي نعرضه، لا يتأتى كاملاً إلا إذا راعينا على الدوم أنه يعبر عن فكر رجل مؤمن بوجه حديثه إلى المؤمنين.

ولسوف نرى أننا إذا رغبنا في تحرير هذه المهجع من المعالم القلبية الخاصة بالمسلمين، لما قلل ذلك من قيمته الذاتية، بل لجعل منه مهجعاً صالحاً لأصحاب أديان أخرى.

ومهما كان أمر البيئة الدينية التي قد يؤخذ به فيها، فقيمتها من الناحية التربوية والأخلاقية باقية

ولعل القارئ يعجب للاهتمام الخاص الذي نؤيه هذه المسألة فيما يلي من بحثنا.

وعذرنا في ذلك أننا نسعى إلى إيضاح الطابع المميز لفكر الصوفي الذي ندرسه، وهو طابع التحليل النفساني. ينقسم المحاسبي الناس إلى «منازل ثلاث»:

همهم من شأ على الخير لا صبوة له إلا الرلة عند السهو، منلها تم يرجع إلى قلب ظاهر لم تغوره الشهوات، ولم يعتد اللدات من الحرام، ولم تغنقه الدنوب، ولم يعد الران، ولم تغب عليه الصوة. فرعاية حقوق الله عز وجل، وإقيام بها على هذا أسهل، والمحنة عليه أخف، ودواعي النفس له أقل وأضعف، لأن قلبه طاهر، والله عز وجل عليه مقبل، وله محب ومتول.

وأخر نائب من بعد صبوته، وراجع إلى الله سبحانه عن جهاته، وبادم على ما سلف من ذنوبه في أيامه، قد أعطاه الحرم أن لا يعود إلى تضيع شيء من فرضه، ولا يعاود شيئاً مما سلف من ذنوبه، والنفس معه تتارعه إلى عادتها، لترده برعبتها إلى لدنها، وهو يجمعها ويحاهدها، ويحرفها عواقب ما كان منها، وعدوه يذكرها ما فتها من لداتها، ويدعوها إلى ما تركت من شهواتها، ما هو فيذكرها قبس ما كان منها، ويعظم منه الله عز وجل عليها بنقلها عما يسخط ربها عليها، فدم يلبث إلا قليلاً، أن صدق الله عز وجل في محاهدته وأمسك نفسه عن الشهوات التي تمقص عزمه حتى يده الله عز وجل معونته، فيسهل عليه سبيل إبطاعه كي ضمن من أناب إليه، فعال عز وجل،

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فَمَا لِنَهْدِيَهُمْ لِمَيَّاتٍ﴾^(١)

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (١).

وقال عز وجل

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَلَشَدَّ تَبِيَّتُهُمْ وَإِذَا لَأَتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا. وَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (٢).

فوعدهم الله ببارك ومعالى أن يحملهم على الطريق المستقيم، ويربهم الحق جهازاً سرمدًا، لأنه كريم يقرب ممن يتباعد منه، فكيف بمن يقرب إليه؟ ويتحجب إلى من يتغضض إليه، فكيف بمن يتحجب إليه؟

وكذا روى أبو هريرة عن النبي ﷺ، أنه قال: يقول الله عز وجل: «يا بن آدم إن تقرب إلى فقرا تقربت لك شبرا، وإن تقربت إلى شبرا تقربت إليك درعا، وإن تقربت إلى درعا تقربت إليك باعًا، وإن أتيتني سعيًا أتيتك حرولة».

وإنا هذا على حسن المعونه، وسرعة الإجابة والهداية بالسداد والوفيق، ولاكتناف بالعصاة، يثبت هذا التائب إلا يسيرا حتى يقبل الله عز وجل عليه بمعونته، فيتعبد على هوى نفسه، ويقوى الله به صمته، ويغيب به دواعي سهواته، فيفهر العقل به الهوى، وتعبد العلم به على الجهل، ويسكن فيه الخوف، والحزن، ولهم، ويواصل فيه الأحران بعد طول هوى، واتصال أمراحه بالدهاء، كلما ذكر ما كان منه من دنوبه هاج حوفه، وغلب همه رطال حرنه، فإذا غفل عن الذكر سها عن الفكر، فسارعت نفسه فمال إلى بعض الرلل الذي لم يعر من مثله الصالحون عند عقلاهم وسهوهم

ثم يرجع إلى الله عز وجل بنفس طاهر من الرين والندس، قد قطعه

عن عادته، وأعقبه بالخوف من لأمر والإصرار، وبالرجاء الصادق من لغرة والتسويق، فهو من سالف دنوبه هارب لرحمة ربه عر وجل، وبهره طالب له حتى يلهاء وهو من عذابه آمن.

وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ:

«إن العبد ليذنب لذنب فيدخله ذنبه الجنة، قيل: يا رسول الله، وكيف يدخله ذنبه الجنة؟ قال: لا يزال نصب عينيه تائباً منه، هارباً منه حتى يدخله ذنبه الجنة».

وقيل لسعيد بن جبير: من أعبد الناس؟ قال:

رجل أصاب من الذنوب، فإذا ذكرها اجتهد.

وروى عن النبي ﷺ، أنه قال:

«أخياركم كل مهتن تواب».

بحبرك: أن خيار أمته لن يعرفوا عن الرلل، وأن علمهم بالله عر وجل،

من مدعهم حتى يرجعوا إليه بالتوبة والإجابة.

والثالث: مصر على ذنبه، مقيم على سيئاته ونسيبته، يغلبه الهوى وضعف الخوف، مقرر مع ذلك بأن لله عز وجل معاداً يعثه فيه، ومقاماً يوقفه فيه، ويسائلة عما كان منه، وثواباً وعقاباً يصرفه من بعد السؤال إلى أحدهما، ثم يحل فيه مخدداً إلا مشاء الله الملك الكريم من بعد التخيد في العذاب الأليم.

فهذا إقرار بالإيمان في قلبه قد زيل به المحمد، وصدق به الرب عز وجل ولقلب بالشهوات مشغول عن الفكر، وأبرين له مانع عن لذكر لا الخطرة تهيج من الإيمان بذكر المعاد، ثم لا تجد موضعاً تستمر فيه، لما غلب على قلبه من لقسوة، وتتابع فيه من العفلة، فعليه هاتج باشتغال لدنيا ولا يتفرغ للفكر ولا يجد حلالة للذكر

وكيف يكون بلذكر فيه مستقر، والأشعار تمارعه، والعقالات تعذب

عنده

فهذا محتاج إلى ما يحل به عقود الإصرار من عليه، فيتوب إلى ربه من ذنبه، فيلحق بصاحبيه الدين من قبله؛ لما شئء على غير صبوة، وانسحب بالتوبة إلى حاله تعالى^(١).

وسؤال: ما لدى يبعثه على لتوبة وترك الإصرار؟

إنه الخوف والرجاء لربه، لأن الله بها عما يهوى قلبه وشهيه نفسه، فحمله لطبع موافقاً خفيفاً وفي المباشرة لبدناً. وكذا روى عن المصطفى ﷺ أنه قال

«حفت النار الشهوات».

فأحبر أن العمل الذي يدخل به عامله النار سهى في انفسوس فمن ترك ما يهوى قلبه وتشتهيه نفسه مما كره ربه، فقد احتجب عن النار واستوجب الحلول في حوار الله.

والأعمال التي أمر الله بها وندب إليها أكثرها ممل للقلب، متعب للجوارح أو مشغل عن أصداده من البدات، وذلك كرهه في الطبع ثقيل على النفس.

وكذلك يقول الله تعالى:

﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾^(٢).

وقال: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرٌ كَثِيرًا﴾^(٣).

(٣) النساء آية: ٦٩.

(١) الرعدة لحقوق، ص ٦٤ - ٦٧.

(٢) البقرة آية: ٢١٦.

رَقَالَ الصَّادِقُ لَصَدُوقٍ، عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«حَفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ».

فَأَخْبَرَ أَنَّ الْحِجَابَ الَّذِي حَفَّتَ بِهِ الْجَنَّةُ، هُوَ الْمَعْلُومُ الَّذِي هُوَ كَرِيهٌ فِي
لِنَفْسٍ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ مِنْ حَمْلِ نَفْسِهِ عَلَى ذَلِكَ الْمَكْرُوهِ، حَتَّى يُوَدِيَ حَقْقُ
«لِلَّهِ نَعَايَ عَلَيْهِ، فَيَحِلُّ الْجَنَّةَ».

وَاللَّهُ الْعَلِيمُ الْكَرِيمُ أَعْلَمُ بِحَلْقِهِ وَمَا بِصَلَحِهِمْ، فَعَلِمَ مِنْ هَذَا الْعَبْدِ قَبْلَ
أَنْ يَخْلُقَهُ أَنَّهُ إِذَا طَبِعَهُ عَلَى حُبِّ مَا وَافَقَهُ، وَبَغْضِ مَا خَالَفَهُ، ثُمَّ عَمِ
مَا يُوَافِقُهُ مِمَّا يَخَالِفُهُ فَهَاجَتْ لَذَلِكَ شَهْوَاتُهُ، وَبَارَعَهُ إِلَى ذَلِكَ نَفْسُهُ،
وَلَا سَبَبَ مِنْ حَاصٍ فِي اسْتِعْمَالِ الشَّهَوَاتِ عَمَرَهُ لَنْ يَدَعَ مَا تَشْتَهُي نَفْسُهُ
إِلَّا أَنْ يَخْلُقَ لَهُ عَذَابًا أَلِيمًا، ثُمَّ يَتَهَدَّدُهُ بِهِ، وَلَنْ يَحْمِلَ مَا يَكْرَهُ إِلَّا أَنْ يَخْلُقَ
لَهُ نَعِيمًا مَعِينًا، ثُمَّ يَرْجِيهِ ذَلِكَ الْعَلِيمُ وَيَعِدُهُ آيَةً، فَيَحْلُمُهَا حَقِيقًا لَعَلَّمَهُ بِحَلْقِهِ،
وَمَا أَرَادَ مِنْ كَرَامَةٍ أَوْ لُبَانَةٍ، وَهُوَ أَنْ أَعْدَانَهُ، وَعَلِمَ أَنَّ هَذَا الْعَبْدَ الضَّعِيفَ
الْجَاهِلَ إِذَا عَيِبَ عَنْهُ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ، وَصَارَ مَذْكُورِينَ فِي الْخَبَرِ
لَا بِالْعِبَارِ، مَ يَسْمَعُ قَلْبُهُ نَزْكَ لَشَهَوَاتٍ، وَتَحْمِلُ الْمَكَارِهِ إِلَّا بِالْخَوْفِ لِمَا
خَوْفٍ، وَالرَّجَاءِ لِمَا رَحَى، فَخَوْفُ عِبَادِهِ وَتَهْدِيدُهُمْ، وَرَجَاءُهُمْ وَوَعْدُهُمْ
لِيَخَوْفُوا أَنْفُسَهُمْ وَيَرْجَوْهَا فَيَخَافُوا

وَكَذَلِكَ وَصَفَ اللَّهُ الَّذِينَ فَهَمُوا ذَلِكَ عَنْهُ وَخَافُوا، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾^(١)

فَأَخْبَرَ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ لِمَا خَافَ رَبَّهُ نَهَى نَفْسَهُ عَنِ الْهَوَى.

وَقَالَ: ﴿يَنْحَشُونَ رَبُّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾^(٢)

وَقَالَ حَلَّ وَعَلَا ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾^(٣)

(١) الْأَنْبِيَاءُ آيَةٌ: ٤٩

(٢) الْأَنْبِيَاءُ آيَةٌ: ٤٠

(٣) الرُّعْدُ آيَةٌ: ٢٦

فأحبر أن ما غاب عنهم من العقاب هم له خائفون، ولما رحاهم من الغيب هم له راحون، وأنهم لما خافوا ورجوا هربوا وطلبوا، وإنما جعل الجراء من العقاب والثواب والرهبه والرعبه من الله تعالى، ليدلوا للمجازي، بعبودته بالخضوع له، والذلة ليورثهم في الآخرة السعير والعز، وأحبر: أنهم لما رعبوا ورهبوا خضعوا له بالذلة، وكذلك أهل الدنيا، من خاف منهم ذل لمن يخاف حتى يعفو عنه، ومن طمع منهم ذل لمن يرجوه حتى يناله منه ما يأمل، وسارع في محبته وكذلك وصف الله أوليائه فقال:

﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رِعَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَائِعِينَ﴾^(١).

قال الحسن: هو الخوف الدائم

وقال مجاهد: «الذل في القلب يعنى ذل الخوف لأنهم لما رحعوا ما غاب عنهم من الثواب يحملوا المكروه، فوصفهم في كتابه فقال تعالى:

﴿إِنَّ الدِّينَ أَمْنٌ وَالَّذِينَ هَدَىٰ رَبُّكَ فَاتَّبَعْهُ لَعَلَّكَ تَرْجُوا رَحْمَةَ اللَّهِ﴾^(٢).

وقال عز وجل:

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٣).

وقال عز وجل:

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لِيَوْمٍ فَيَأْتِكُمْ يَوْمُ الْحِسَابِ﴾^(٤).

(٣) الكهف آية ١٨٠

(٤) العنكبوت آية ٥

(١) الأنبياء آية: ٩٠

(٢) البقرة: ٢١٨

قيل في التفسير: ثواب الله

قلما خافوا هربوا وجابوا ما نهاهم عنه كما وصفهم فقال:

﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَبَعِيدٌ﴾^(١)

وقال تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾^(٢)

وقال بعد:

﴿وَيَحْشُونَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾^(٣)

قلب: فهم ينال الخوف والرجاء؟

قال بتعظيم المعرفة بعظم قدر الوعد والوعد.

قلب: فهم ينال عظيم المعرفة بعظيم قدر الوعد والوعد؟

قل باستخوف من شدة اعداب والترحي لعظيم لثواب.

والتخويف بيان بالمكر في المعاد، ولفكر ينال بالذكر، وإن ذكر باستيقظ من الغفلة، لأن الله جل وعز إنما خوفها بالعقاب لسوء أعمالها، ورجاها لترجيها.

وللتخويف تكلف من العبد بمتة الله عز وجل وبفصله عليه.

وقد يخطر الله جل وعز الخوف بقلب العبد المؤمن من غير تكلف، إذا أراد أن يتفصل عليه بذلك، وإن لم يخطر به لم يكن للعبد عبده معذوراً بتركه التكلف للتخويف، كما أمره أن يخوف نفسه، لأنه أمره بالفكرة في المعاد، وذلك هو التخويف والترحي، وهدده وأوعده ليفكر في ذلك فيحافه ويرجوه.

(٣) المرحه آية: ٢٩

(١) إبراهيم آية: ٦٠.

(٢) التارعات آية: ٤٠.

فإذا أراد هذا العبد المصروع أن يصل إلى ما يحل به إصرار قلبه، ويبحثه على التوبة من ذنوبه، فيبصر بطلب الخوف بالتحويف بالفكر في المعاد وهووم الموت وعظيم حق الله عز وجل، وواجب طاعته، ودوام نصيبه لأمره وركوبه لثيبه.

قلت: فمن أين ثقلت الفكرة على العباد؟

قال: ثقلت المكرة على العباد لثلاث ضلال. فقد تجتمع على بعضهم فتثقل عليه الفكرة، وقد يثقلها على بعضهم الخلة من هذه الخلال الثلاث أو الخللان.

فياحداها: قطع راحة القلب عن النظر في الدنيا بالدكر في الآخرة، لأنه إذا تفكر سحن عقله عن الدنيا، فقطعه عن راحته بالفكر في الدنيا، والنظر في أمورهم.

والخلة الثانية: أن الفكر في المعاد وشدائده تلهي للنفس، رغمها حين تذكر المعاد والحساب، وما لها وما عليها، لأن الموحد المقر إذا تفكر في ذلك هاج منه لعم والحر، لإيمانه بذلك، فينقل الفكر على النفس من أجل ذلك، لأنه ينقل عليها ما أهاج عليها لغموم والأحزن.

والخلة الثالثة: أن النفس ولعدو يديس قد عنها أن المرید إذا أراد الفكر في معاده أنه إنما يطلب بالفكر حوقاً يقطعه عن كل لذة لا تقرب إلى ربه، ويحمله على كل مكروه يتحمله فيها أوجب عليه.

فالنفس يثقل عليها الفكر إذا علمت أنه إنما يطالب بما يقطع به عنها لذتها بأنم حداثها، ويحمله على ما تكره ويثقل عليها، وقد علم العدو أنه إنما يطالب ما يبطل عنه مكائده ويدحض حجته، ويخالف محبته، فهذه الخلال الثلاث ثقلت على المریدین لفكرة

قلت: فما الذي يخففها؟ قال العايش

قلت: فما مودث العناية؟

قال: عظيم المعرفة بعظيم قدر ما ينال الفكر بالفكرة من المنافع في الدنيا والآخرة، وبعظيم قدر ضرر العفلة عن الفكر في المعاد.

قلت: فإن اعترضته هذه الثلاث الخلال عند ذكره عظيم قدر ما ينال بالفكرة من المنافع، فبم يدفعهن عند ذلك، إذا ثقلت الفكرة عليه باعتراض الخلال الثلاثة؟

قال: يرجع العبد إلى نفسه في هذه الثلاث خلال إذا عرجت له عند إرادته الفكرة، أو عرض بعضها دون بعض، لأن كل خلة منها فيها عبرة يذكر سببها من شدائد الآخرة، بل أعظم وأطم، فيرجع إلى نفسه بالعتاب لها وبالتوبيع في ذلك فيقول لها:

أتهجزعين أن أسجن عقلك عن النظر في الدنيا؟ فكيف يسجنك في النار أبدًا؟

فحملى هذا النقل القليل للسجاء من السجن الطويل.

أتهجزعين من سجن عقلك فبك عن النظر في الدنيا لنجاتك وفوزك في المعاد؟

ولا تهجزعين إن نركت المعركة التي تهجزك عن المعاصي التي تورثك السجن وتكبك في النار أبدًا.

فمن السجن في النار فاجرعى وتحملى هذا القليل العانى للنجاة الدائنة، وأما جزعك من تلذيع ذكر العقاب، فكيف جزعك من مواقعه؟ والفكرة فيه أيسر من مباشرته فنحصى تلذيع ذكره للنجاة من الخلود فيه. وأما فرارك من النظر فيما ينتجيك من عذاب الله كراهية أن ينقص عليك لذاتك في ديبك فكيف بالتفويض عليك لذات الآخرة، وحرمان

ما فيها من نعيمها؟ مع أن الله ليس بباركك إن صدقته مع ما تفالين من نعيم الآخرة حتى ينعمك بطاعته في الدنيا.

ففي نعيم الطاعة في الدنيا والظفر بنعيم الآخرة عوض من تنغيص لضات الدنيا، وسس لذات الدنيا، وليس لذات بنعم لو تعقلن، بل شغل قلب لا يقضى وهم لا ينفذ وحرص لا راحة معه، مع طلعة القلب إذا سلبت بمعصية الله نور الطاعة والنعيم بها. فالذل والهلم في لذاتك في الدنيا، والعز والغنى والنعيم في الاستبدال بها السعم بطاعة ربك، لأن ترك اللذة لله، ألد عند المرید، وأبغى في القلب لذة مخالفة بموافقة ما كره الله، لأن العبد يصيب اللذة ساعة أو أقل من ساعة، ثم يعقبه الندم الطويل، وإذا تركها لله، ثم ذكر أنه تركها بطلب رضا فكلما ذكرها أمل ورجاء، أن يكون قد رضى عنه بتركها، ووجد سرور ذلك وبذته، فيبقى ذلك السرور في قلبه حتى يموت، والذي يفتح الفكرة ويعرف طريقها اجتماع لهم مع لمطالبة بالعقل والتوكل على الرب تعالى لا على العقل

ويجب المحاسبي بعد ذلك على محدته الذي يسأله أن يدلّه على مفتاح الفكرة إن خفت وضل عن طريقها، فنقول:
فلت فاجتماع الهم بهم ينال؟
قال: يخلتين.

إحداهما. قطع شغل الخورج عن كل شيء سوى ما يريد أن يتفكر فيه، لأن النظر بالعين ينهى انقلب ويشغله، وستماع الأذن كذلك، ومس اليد كذلك.

والثانية: أن يمنع قلبه أن ينظر ويتفكر في شيء من أمور الدنيا سوى ما يريد أن يتفكر فيه.

فإذا قطع العبد شغل جوارحه من الظاهر، وقطع حصول الفكر من

الباطن، ومنع قلبه من الفكر إلا فيما يريد أن يتفكر فيه، اجتمع همه وحضر عقله، وكذلك رأينا أهل لدنيا، إذا أراد أحد منهم أن يحكم شيئاً من أمر دنياه من تقدير عمل يعمل، أو حساب يريد أن يحكمه، منع سمعه وبصره أن يشتغل بشيء سوى ما يريد عمله وإحكامه، ومنع قلبه أن ينظر في غير ذلك كراهية أن لا يحكم حسابه إن اشتغل قلبه بالفكر في غيره، أو نظرت العينان أو استمعت الأذنان إلى شيء غير ذلك.

فإذا اجتمع همه ثم تفكر بالتوكل على الله لا على عقله، فتحت له الفكرة بمنة الله لأن العبد قد يفشل ذلك إذا اجتمع همه واتكل على عقله لما يعرف من قطنته، وقد يوسوس إليه العدو أن الفكرة إنما كانت تستغل عنك باشغالك، فأما إذا حضر همك فإنه ستفتح لك الفكر، فيتكل على عمله وينسى ربه تعالى، فأخاف أن لا يفتح له ما يريد من خير.

ومن ذلك حديث سليمان النبي عليه السلام، في الولد أنه قال لأطوفن الليلة بمائة امرأة، فتحمل كل امرأة بخلام، يقتل في سبيل الله فرساناً.

ولم يقل إن شاء الله: فقال النبي ﷺ:

فما حمل منهن امرأة واحدة جاءت بشق خلام.

قال النبي ﷺ: «لو قال: إن شاء الله لكان كما قال» فإذا تفكر في المعاد بتخويف نفسه عظم قدر العذاب عنده، فإذا عظم قدر العذاب في قلبه حاج الخوف حتى لا يملكه، فما مثل التخويف في جنب الخوف إلا كمثل الوقود في حسب الغليان، كالموقد يوقد تحت القدر المملوء، فكلما أدام الوقود امتد الغليان.

فكذلك العبد: كلما أدام الفكر بالتخويف في ذكر العقاب وكثرة

الأهوال وعظم السؤل مع المعرفة بعظيم حق الله جل وعز، وواحب طاعته، وأنه لعامة ذلك مضيق هاج الخوف.

فإذا هاج الخوف قذف القلب بالإصرار على الذنوب، وسخا عنها نفساً فتدم وتاب وخشع وأتاب.

فمن أدمن الفكر بالتخويف لنفسه فيما تهدده ربه وتوعده به هاج حوقه، فأطفاً در شهوانه الى أصر عليها، فسخا بترك الإصرار نفساً، وأقلع عن الذنوب وخاف عاقبتها ولا سيما إذا أدمن الفكرة وهو يتلو كتاب الله عز وجل، فيتفكر في وعده ووعيده، وهوان القيامة وشدايدها، وتلك أنجع الفكرة إذا كانت بتلاوة كتاب الله عز وجل.

قلت: فهل يسوى المصريون في ذلك؟

قال: لا، المصريون في منازل شقى، منهم من كثرت ذنوبه، وعظمت بليته، وطالت غفلته واحتجابه بها عن الآخرة، فإذا أعمل قلبه في الفكرة بالتخويف لما خوفه ربه عز وجل، لم يهج منه الخوف سريعاً لطول غفلة وغلظ القسوة فيه.

ومهم من قلت ذنوبه، ولم تطل به الغفلة، ولا احتجابه بها عن الآخرة.

ومهم نائب من بعض ذنوبه، وهو مصر على ما بقى من ذنوبه

وهم في طيب الخوف متفاوتون.

قلت: ففصل لى بين من عظم بلاؤه واشتد مرض قلبه، وبين غيره من المدنيين.

قال: إن للعدو خدعاً من الدعاء عند مطالبته الخوف، لمن عظم ذنبه، وطالت غفلته، وغلظت لقسوة فيه، فإذا أعمل قلبه في الفكر بالتخويف لما

خوفه ربه. لم يهيج منه الخوف سريعاً لطول غفلته. وغلظ القسوة في قلبه، لأنه قد أعضل دأؤه فلا ينجع (أكثر) الدواء فيه سريعاً، وكذلك أهل الدسا في أمراض أبدانهم:

إذا طال السقم بأحدهم وأغفل داءه حتى أعضل، لم ينجع الدواء فيه إلا بطيئاً. وكذلك من طال مرض قلبه وأعضل دأؤه لم ينجع التخريف فيه سريعاً.

فللعدو وللنفس تشبيط منها بالدعاء عند طلب الخوف، فإذا لم ينجع التخويف فيه سريعاً، دعتة نفسه وعدوه إلى الملل والسامة والانصراف عن الفكر، وأنه ليس بمقامك، ولا يهيج الخوف من مثلك، إنما تعنى نفسك، فيتراه لفكرة والطلب ويعتقد المني والتسريف إلا أن يكون ليلاً مظناً، فإن كان ليلاً مظناً رجع إليهما بالزجر لهما عن دعائهما وقال لهما: إن عظيم ما يطالب من النجاء، وعظيم ما قد حل به من البلاء المسلم له إلى عذاب الله، إلا أن يعفو الكريم تعالى: يزيلان السامة والملل في طلب الخوف، ويبعثان على الدوام بالفكر بالتخويف، وإنما هذا مقام مثلي لأنه إنما خوف العصاة من عباده ليخاوه، وتهدد بالتخويف من عظم ذنبه وطالت غفلته، ليتيقظ من رقده ويقيم من سكرته، ولكن دأبي قد أعضل، وسقم قلبي قد طال، فالدواء بالمعكر والتخويف أولى بي إذا أعضل دأبي. وطالبت غفلي فإن أدمن على ذلك هاج الخوف بإذن ربي.

ولذلك مثال من الدنيا كالداء إذا أعضل لم يبرأ صاحبه إلا بدوام التداوي، وكالثوب إذا كثر وسحه لم تنق إلا بإدامة غسله، فإذا أدمن المصر الفكر بالتخويف سخت نفسه بالتوبة، وكذلك التائب من بعض ذنوبه المقيم على بعضها قد يكون بعض ما هو مقيم عليه قد غلب على قلبه حبه، وطالت به غفلته، ودامت له عادته، ومطالبة الخوف في عاقبة ذنبه ذلك

عسيرة، وهو دون المصر على أكثر ذنوبه، إلا أنه يحتاج أيضًا إلى الدوام على الفكر ودهم خدع النفس والعدو بمثل ذلك، حتى يسخر نفسه بالتوبة، ويبدد على جملة ما عمل من لدنوب، ويموت أن لا يعود وقد أنعم حينئذ فيهما الخوف.

قلت: فالتدب على جملتها يحزبه دون معرفتها بأعيانها؟

قال: لا، لأن كثيرًا من الذنوب يستترها الهوى ويحول بين العبد وبينه السبيل، وللعبد والنفس خدع عند ذلك، إذا علم أنه قد غلبها، وصار إلى السلام واعتقاد التوبة من ذنوبه؛ أرى أنه لا ذنوب له إلا الذنوب التي يذكرها في ذلك المقام.

وقد تكون له ذنوب أحر كثيره، وكاس في أحواله فيما مضى من عمره، من كلام لا يظنه ذنبًا، أو عمل لا يعده خطأ، أو مظلمة لا يرى أنها مظلمة لقلبة الهوى، وقد يحبل إليه أنه قد تاب من جميع ذنوبه، وهو مصر على أكثرها أو بعضها وهو لا يعلم، لأنه في وقت الخوف أطوع ما كان ربه، وليس له حارحة تتحرك بما يكره مولاه، وهذا لا يكاد يعرف جميع ذنوبه تلك الساعة، فإن كان عاقلًا متيقظًا علم أن له ذنوبًا كانت في أحواله فيما مضى من عمره كثيرة، ومثله مما كان فيه من الغفلة يعصى عليه أكثر ذنوبه من كلام يتكلم به لا يظنه محرماً عليه، أو عهد ضمير بالسوء لم يكن يراه فيه محطًا، بل قد يسمع به فيتعجب ممن يأتيه وهو يعصيه وهو نائب ولا يعرفه.

قلت: فبم يعرفها أي الذنوب؟

قال: يعرفها بتذكر ساعاته فيما مضى من أيامه فإنه لا يعرفها إلا

بدلك، ويتذكر أحواله في ساعاته فيما مضى من عمره كيف كان فيها، من حق ضيعه، أو ذنب قد ركبته؟

فيعرض أيامه الخالية في عمره، وأحواله في أيامه، وحركانه وسكونه، وضميره في أحواله، فيذكر عضبه ورضاه وكيف كان فيه؟

ومحبته وبغضه واكتسابه وريفقه وإمساكه، ورد ما كان عليه من حق، وأحده ما كان له عند غيره من حق وكيف كان قد أحده أبحق أم بظلم؟

ومنتطقه ولحظه واستماعه، وحطائه برحله، وبطشه بيده، ومطالم العباد عنده في أمثالهم وأعراسهم وحقوق من يجب له عليه لحق من أقربائه وغيرهم، فيتذكر تذكر من يريد لطهارة قبل لقاء الله، ويتذكر مظالم العباد عنده يذكر من أوقف نفسه للقصاص قبل القصاص بين يدي الله، فإذا تذكر كيف كان منذ أصبح إلى أن أمسى في جميع هذه الأحوال، وكيف كان إذا أمسى إلى أن أصبح، فعرض كل حارحة على حيالها في حيالها في عمل ليلة ونهاره، وكيف كان قلبه في أعماله الصالحة، ما كان يريد بها، وعلام كان يدور، وما الذي كان يبعثه على الأعمال، وكيف كانت عقود ضميره من الحسد على الدين وغيره، وجميع أعمال قلبه؟

ذكر حقوقاً كثيرة لله ضيعها، فكلمها ذكر حقاً قد ضعه حاج الندم من قلبه على ما مضى من تربيته في حقوق ربه، وأعطى العزم على أن يقوم به لله عز وجل فيما يستقبل من عمره، فكلم مر به الذنب قد كنسبه حاج حزنه وبدمه، وخاف أن يكون قد نظر إليه الله حل وعز، عصت وغضب، وإلى على نفسه ألا يقبله بعدها، ولا يرجع إليها، فأعطى العزم ألا يعود إلى ذنب أبداً، وتصل الرجاء بالخوف فمع من الإيأس، ورجع إلى نفسه بذكر الرجاء، أنه لو كان أوجب ألا يرجع أبداً له حاج قلبي بالرجاء، ولا تسحى قلبي بالتوبة، فالرجاء والخوف هاتجان في قلبي.

ثم فرغ قلبه إلى ذكر ذي الجود والكرم، وأباده الله السابقة فيمن كان عظيم منه ذنباً وأطول غملة.

ثم رأى آثار الجود والتفضل عنده إذا نظر إلى نفسه قد هاج الخوف منها، وتذكرت ما مضى من الذنوب، لتطهر من أدناسها قبل لقاء ربها عز وجل.

فهاج الرجاء حينئذ أن يكون في سابق علمه وقدره ولياً لربه، وأن ذلك الوقت تاريخ حكم ولايته، وخاتمة من أسعده، ليظهره قبل لقائه، ويزينه للعرض عليه، فيعطى الله العزم بالتوبة عند كل ذنب يذكره، وتضييع حق يعرفه وأداء المظالم إلى أهلها في عاجل الدنيا والتدليل لهم، لرحاء العز في الآخرة.

وأن يقوم بجميع حقوق الله، وما كان عليه منها أدائه، كصلاة ضيعها في جهالته، وصيام أو رجم قطعها.

فإذا عزم العبد القيام بجميع حقوق الله بعد معرفته بذلك، فعند ذلك للعدو وبنفس خدع، يريانه أنه إنما ينال القيام بما عزم عليه بعقله وقوته، وأنه بعد عزمه لن يغلب، وينسى التوكل على ربه فلا يؤس عليه الخذلان.

ومن ذلك حديث سليمان عليه السلام، أنه لم يعط ما أراد بقصد عزمه إذا أغفل التوكل على ربه عز وجل.

وكما أنزل الله على النبي ﷺ يعتب أصحابه في يوم حنين، حين قال منهم من قال: «لن تغلب اليوم من قلة» فأمر أن يبارك وتعالى في ذلك يعاتبهم بما أغفلوا التوكل عليه قوله جل وعز:

﴿يَوْمَ حَتِّينَ إِذْ أَعْجَبْتُكُمْ كَثَرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِرَحْمَتِ رَبِّكُمْ وَلَبِئْسَ مُدَبِّرِينَ﴾^(١)

والأحاديث كثيرة في ذلك.

فإن كان عبداً عاقلاً رجع حينئذ إلى ضعف نفسه، وإلى ذكر قوة ربه تعالى، فرغب إليه في المعونة من عنده على أداء حقوقه ورعايتها، وناحاه بقلبه وأغص واهب.

فعرزم وتوكل واستغاث واستعان، وتبرأ من الحول والقوة إلا بربه تبارك وتعالى وقطع رجاءه من نفسه، ووجه رجاءه كله إلى خالقه ومولاه، فإنه سيجد الله قريباً مجيباً، متفضلاً متحنناً.

وكذلك أمر من أناب إليه وعزم على طاعته.

أما الأولى بالعبد بعد ذلك - أن يلزمه قلبه فهو أن يعلم أن الله تعالى محننا فيما مستقبل من عمره وأن عدوه لم يمت، وأن طبعه قائم لم ينقلب ولم يجل، وأن الدنيا بزينةها ومكروها لم تتغير

وعليه أن يلزم قلبه الحذر لست جلال؛

فإحداه: أن يحذر أن يعود إلى ذنب قد عزم على تركه، حذراً أن تغلبه نفسه بهواها عند غفلته ونسيانه، فيعود فيه لما هاج من شهوته.

والثانية: أن يكون ذنب قد مضى من عمره ستره الهوى والشهوى في حال توبته، فيعرفه فيما يستقبل، فيعطى الندم عليه والعزم ألا يعود فيه، فيحذر أن تعود النفس إلى عادتها ومطالبة هواها ولذتها في رقت غفته

والثالثة. أن يعرض له دنس لم يكن فيما مضى من عمره، لأن النفس
دا معب أبوايا من لشهوات أخر ستريح إليها، عوضاً بما قطعت عنه
من الشهوات واللذات.

وتلك الخلال الثلاث تتعلق بالحذر من الذنوب، أى بما نهى الله عنه.
أما الخلال الثلاث التالية، فهي مختص بالأعمال اواجبة، أى تلك
التي فرضها الله على العبد، وهى:

١ - حق الله عز وجل، مما أوجب العمل به، قد كان مضيقاً له فأعطاه
العزم أن يقوم لله تعالى به، فيحذر أن يضعفه فيما يستقبل من عمره،
لاستقبال مكروه من تعب أو مشغل عن راحة الدني، أو واصل من قدره
عند المخلوقين، كطلب الحلال وغيره، أو استدلال منهم له، كالأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر، والقيام بحقوق الله تعالى فيها يخالف أهواء العباد

٢ - أن يكون حقاً لله عز وجل، قد ضيعه فيما مضى من عمره، سنرته
كراهية النفس للقيام به، وهواها للراحة في تركه، فلم يعرفه في حال توبته،
فيحذر أن تعود النفس إلى عادتها من تصييع حق ربها فيقدم الحذر ليفطن
له إن عرض.

٣ - أن يتلى ويمتحن بحق لم يتل به من قبل، ولم يجب عليه، كالعيال
وغيرهم، فيضيع ما وجب عليه من ذلك.

فعلى العبد أن يرم قلبه هذه الخلال السب، وهذا يكون الحذر والنبقظ
وتدارك النسيان والخطأ.

قالعبد إذا عرضت له حاجة من حوائج الدنيا تيعظ في الليل لها، حتى
لا تفوته، فما بال حاجته من أمر الآخرة؟

« فإذا تطهر من هذه الخلال الست بالتوبة، فقد صحت توبته، وسارى الذي لم يكن له صبوة، في رعاية حقوق الله عز وجل، فيما يستقبل من عمره، وسارى التائب من قبله الذي لم تستصعب عليه نفسه عند التوبة.

فقد سارى هذا التائب من قبله الذي قلت كمعته، ولم تغم عليه دنوبه عند توبته، وسارى من لم تكن له صبوة، لأنه قد تطهر كما تطهر بما يكره لله عز وجل وعليهم جميعاً حسن القيام بحق الله عز وجل فيما بقى من أعمارهم.

ورغم دقة وتفصيل الوصايا التي عرصناها فيما سبق، فهي لم تشمل كل ما كتبه المحاسبي لنفس الغاية في مخلف مؤلفاته.

ويمكن القول بأنه قد أنشأ من هذه الوصايا - وعلى الأخص في كتابيه «الرعاية» و «بدء من أبواب» مذهباً حقيقياً يصح كل الإفصاح عن طابع التحليل النفسى في فكره.

الرياء يحبط عمل الخير

عمل الخير يهدف عامة إلى غرض وقد يكون عرضه مثلاً: النجاة، أى الثوب من رضوان الله. والعمل الذى يهدف إلى هذه الغاية يجب أن يكون طاهراً خالصاً.

وهذا شرطه الذى لا مناص عنه، وإلا فلا قيمة له ولا ثواب^(١).

ولكن العمل قابل لأن يحبط، وعامل إحباطه: الرياء.

فالإنسان لا يستطيع أن يقوم دائماً بعمل الخير سرّاً، فإذا أداه علناً حمده الناس عليه، وعظموا له من قدره، وعندئذ فإن نفسه التى حرمت من كثير مما تهواه - تجدد في هذا الحمد والعظيم ثواباً للعمل، فمدفع به دون إدراك منه، إلى الرياء بطلب الحمد والثناء لما يعم به علناً من عمل، ولذلك يحبط العمل، ولكن ليس هذا إلا جانباً واحداً من جوانب الرياء، فالرياء أعم وأشمل، ومع أنه يعتبر نقصاً في كل مظهره، وأنه مذموم حيثما وجد في الأعمال، فلن نعرض له هنا أساساً إلا بوصفه عامل إحباط للخير.

والرياء هو القيام بالعمل بإرادة محمدة الناس، لا ابتغاء وجه الله تعالى.

«وهو الإرادة وحدها، إلا أنه عد وجهين:

أحدهما: أعظم وأشد؛ والآخر أهون وأيسر.

(١) وسوف يجد القارئ في فصل حر من بحثنا هذا تفسير المحاسبي للإخلاص في العمل.

وإد الوجه الذى هو أشد الرباء وأعظمه: إرادة العبد العباد بطاعة الله عز وجل.

وأما الوجه الذى هو أدنى وأيسر. فإرادة العبد بطاعة الله عز وجل وإرادة ثواب الله عز وجل. يجتمعان في القلب

ولكن كلا الوجهين رياء، وكلاهما هي الله عنه نهياً صريحاً، وأجمع على دمه النبي ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم.

ففي كتاب الله تعالى:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُفُوسٌ إِنْهُمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يَتَخَسُّونَ، أُولَئِكَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ، وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا، وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١)

وفي الحديث:

(إن الله عز وجل يقول للملائكة، إذا رفعت عمل العبد، إن عبدي هذا لم يردني فاجعلوه في سجين).

وفي السنة:

سئل النبي ﷺ: يا رسول الله فيم البهجة؟

فأجاب: (لا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس).

ويروى عن النبي ﷺ، أن المرائي ينادى يوم القيامة على رؤوس الخلائق، يا فاجر، يا غادر، يا مرائي، ضل عملك، وحبط حرك، اذهب فخذ أجرك ممن كنت تعمل له).

وروى عن شداد بن أوس رضى الله عنه، أنه قال:

«رأيت النبي ﷺ يبكي، فقلت:

ما يبكيك؟ فقال:

أمر تخوفته على أمتي، الشرك؛ أما إني لا يعبدون صيًّا ولا شمسًا ولا قمرًا ولا حجرًا، ولا وثنًا، ولكن يراءون بأعمالهم؛ فكان أخوف ما أحاف عليهم الرياء».

ويكثر دم الرياء في القرآن والحديث، والمحاسبي، يذكر من ذلك أمثلة عديدة، ولكن دم الرياء إلى درجة الحكم بإبطاله لعمل لا يقتصر على ما يظهر منه في الأعمال الدينية، بل يشملها حينما وجد وفي أي عمل كان. ومظاهر الرياء لا تحصى ولا تعد، وتصنيفها في منارل متميزة عمل يكاد يكون محالاً.

لذلك قلن تشير فيما يلي إلا إلى بعض أصناف من الرياء يراها المحاسبي مذمومة بصفة خاصة.

«وأعظم المرائين عند الله عز وجل، رياء من رآى بالإيمان، واعتقد لتكذيب والشك أو اريب، وكذلك المتأفق الذي ذكره الله عز وجل في غير موضع من كتابه».

ومن بين الآيات العديدة التي تذكرها المحاسبي في هذا الصدد، قوله تعالى:

﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾^(١)

ويشرح المحاسبي أن المتأفق المرائي لا يفعل ذلك اعتقادًا منه في الصلاة، ولكن ليظهر الناس أنه مؤمن بالفرائض، قائم بها.

وطائفة أخرى أمرها أهون من الأولى شيئاً ما تصم: الرجل يرأى بالفرض، وإن كان معتقداً أن الله عز وجل ربه: وأن ذلك عليه معرض، كالزكاة يكون ما به بيد غيره فيقول، زكه، كراهه أن يذمه الناس على تركه الزكاة

وكذلك الحج والصيام: يحضر معه في شهر رمضان من يعطى له إن أفطر، وهو لو أمكه الإفطار لأفطر، فيمسك عن الطعام، والقلب يتقلب عن خلوة يأكل فيها أو يأتى فيها أهله أو ما لا يحل له»

وهناك بعد ذلك الرجل الذى: «لا يزكى ولا يصوم ولا يحج، وبكذب القول:

إلى قد زكيت وحججت وصمت، لئلا يدم بترك الفرائض، فلا يحمله عن صلاته إلا الخوف من المذمة.

حتى إنه ليصل على غير وصوء لئلا يذموا.

فذلك الرياء بالفرض، لا على عقد المسافقين على الكذب والشك في القلب، ولكن مع اليقين بأنه محرم، وأن الله عز وجل لا شك فيه، وأنها عنه مفترضة، ولكن الكسل والتهاون؛ فيظهر أداءه كراهة الدم وحسب الحمد.

ويأتى بعد ذلك: «المرائى بالسنن الواجبة؛ ولولا من يحضره أو من يتفقده لتركها إيثاراً لحاجته أو كسلًا عنها

ثم: «فرقة ممن يظهر لمسك ترائى بإظهار الورع، فيطيل الصمت، ويمسك عن العيبة وينهى عنها، ويمسك عن الحيانة، ويؤدى الأمانة، ويستغفر إذا ظهرت من أحدهم الزلة.

واقه عز وجل يعلم منه. أنه لو خلا بذلك لما فعله، وإنما يفعل ذلك لقبول الشهادة منه، أو لطلب دنيا أو طلب حسن الثناء، أو خوف من مذمة

وهناك الطائفة التي تضم «المرائي بإكمال القرائض التي إذا تركها كان حرجاً أو منقوصاً في فرضه.

فإن خلا له الموضع خفف صلاته، وإن رآه الناس أمها كراهية مدمتهم. وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال:

«من صلى صلاة حيث يراه الناس فأتمها وأكملها، فإذا خلا خففها، فتلك استهانة يستهين بها ربه عز وجل».

وبلى هؤلاء: «المرائي بإكمال الفريضة بما لو تركه لم يكن حرجاً ولا منقوصاً يعلم الله عز وجل أنه لو خلا ما طابت نفسه أن يقصر عما لا يجزيه غيره، ولما زاد على ذلك، فإذا رآه الخلق حسن وعمل وتبع الاتباع فيها.

يريد بذلك أن يحمّد بشدة التحور للفرض».

ويتبعه في الرياء المرائي بالتزيد في السنن لواجبة، بعد ما أدى ما يجب عليه، ليثنى عليه وهناك أيضاً من أهل الرياء الذين يذكروهم المحاسبي:

«المرائي بالموافق تكلفاً إذا اطلع على بعض ما ينقصه في الدين عندهم، أو خاف أن يظن به أنه لا يريد الله عز وجل بذلك، يخاف أن تزول منزلته، وتغير حاله في القلوب التي كانت فيها.

وأيضاً: «المرائي بالعمل يريد الله عز وجل، ويريد غيره، ولولا إرادة الخلق وحدهم بذلك ما عمله، ولو خلا لما عمله الله عز وجل وحده، فلما اجتمع له الأجر والحمد أنشط له».

والأعماط المذكورة من الرياء أعماط من ذنوب المعصية، ولكنها لا تتضمن ذنوباً أخرى إضافية.

والى القارئ منازل من الرياء تختلف في نوعها عما سبق.

فهناك من يرأى بالموافق ابتغاء غاية هي في حد ذاتها ذنب، ويظهر التقوى والتورع و«يجعل طاعة الله عز وجل سلباً وبضاعة ينال بها معاصيه» كالذى يريد الوصية ليختاتها» أو «أخذ المال لغزو والحج يحنانه».

ثم «المرائى بالتواقل لمعصية هو مقيم عليها، مخافة أن يفطن له، ليبرأ في القلوب ونظن به البرامة بما يدعى عليه؛ وكذلك إن كان مقيماً على فجور، يستره بالتواقل والتورع وإظهار الطاعات والبر».

وأيضاً: «المرائى بالتطوع ليال بذلك الدنيا» والأجر عند الله أعظم لو كان يعلم.

ويسرد المحاسبي من غاذج امرائين غير ذلك لكثير، وإنا لنكتفى بهذا القدر منها، حيث يوفى بالغرض من بحثنا.

أما العوامل التي تدفع بالإنسان إلى الرياء فهي:

«ثلاثة عقود في ضمير النفس: حب المحمدة، وحواف المذمة والضعة في الدنيا، والطمع فيما في أيدي الناس».

وأصل هذه العوامل الذي منه تشعبت هو:

معرفة النفس بلذة ما ينال من الحمد والبر، وما يدخل عليها من صرد الدم وغمه، فلما عظمت المعركة بذلك بعثت العبد على اعتقاد هذه الخلال الثلاث، فيبدأ عهد اللقاء بالسلام والشر والإعظام، وطيبة والوسعة له في المجلس، والتكرمه له بتشريفه، وقبول الشهادة، وتصديق الحديث، وحسن الظن به.

وأما الطمع فمعرفته بأن من يره الناس بما يظهر من طاعة ربه، فإنه

يوصل بالأموال وتهدى إليه الهدايا، ويقضى له الحوائج، ويسارع إلى إقراضه المال.

وأما خوف المذمة فمعرفة أن من دمه الناس يكذب صدقه، ويساء به الظن في الخير، فكيف في الشر؟ ترد عليه شهادته ويرد عليه قوته، ويقصى مجلسه، ويعرض عنه، ويرد بغير قصاء حاجة، ويستعصى من صحبته، وربما وضع عليه ذنب غيره، ويحمل عليه لغيره، وربما كان مظلوماً.

فما عرف عظيم قدر هذه الخلال في الخير، اعتقد حب حقدهم وحوف مذمتهم والطمع لما في أيديهم، فورثته لمعرفة بذلك الرغبة وغلبت على قلبه، فهاج دواعي هذه الثلاث الخلال إلى الرياء، هذه العوامل لثلاث تدفع إذن بالإنسان إلى الرياء غير أن كل واحدة منها كفيلة بذلك، وليس من الضروري اجتماعها.

والرياء ينمى «بالمعرفة والكراهة إن جمعا، وإن اختلفا لم يستف الرياء».

فخطرات الرياء تنسرب إلى القلوب بوسائل خفية قد لا يدرك العبد مغزاها:

«هيملاً حلاوة حب الحمد ورهبة الذم قلبه، ولا يكون في القلب موضع فراغ يذكر به أن ذلك هو الذي يحبط عمله»

وقد تغلأ قلبه انفعالات كالغيظ أو الغضب فينسى عزمه على تجنب الرياء وينسى ذكر ربه جل وعز

وسواء سررت خطرات الرياء خفية إلى قلب العبد، أو تسربت في الانفعالات المختلفة، فالعلة واحدة، وهي فقدان المعرفة التي يسببها زوال الكراهة.

ولكن المعرفة لا تكفى، فقد باتى لإنسان العمل الحرام وهو يعلم أنه حرام، تعلبه شهوته، وحب نفسه للملذات، خاصة إن لم يحش فى ذلك عقاباً من الناس.

فلا تنفع المعرفة والكراهة إذا احترقتا عند عارض لداعى إلى الرياء، والمعرفة تكتسب بالمحاسبة التى سبق لنا أن عرضنا أمرها.

أما الكراهة فهى الخنة العسيرة المتال على الإنسان، فهو يحب المدح والثناء وغرائزه تدفعه دائماً إلى ما تهواه نفسه، ثم إن نفسه وعدوه ينشطان على الدوام بخية إعماثه عن سواء السبيل، والغرائز وهوى النفس والشيطان، سواء كل على انفراد، أو مجتمعين، يدعونه إلى الرياء، وإلى ما يحده فيه من أعراس الدنيا فإذا حصع المرء لهم، حبط عمله وبطل.

ولكن الإنسان ليس غرائز وأهواء فحسب، فقد قرن الله ذلك فيه بـ «غريزة العقل» وتفصل عليه بالهداة المرشدين، فقرن «مع العقل العلم والكتاب والسنة» وهم يستطيع العبد أن يقاوم لشر ويدكر النعيم الأكبر لمقيم الذى يوليه الله لمن خلصت نيته وطهر.

وبالإضافة إلى ذلك يجد له عده دعمتين إذا تفكر فيهما يمكن من مجاهدة الغرائز وهوى النفس والشيطان.
أولهما: كيف يكون مصيره عند الله.

والثانية: ماهى حصيلة الرياء فى الدنيا؟

فأما الأولى: فالمرائى: «يتجنب إلى العباد بابتعد عن الله عز وجل، ويرين لهم بالخير عند الله عز وجل، ويتقرب إليهم بالتباعد من الله عز وجل؛ ويتحمد إليهم بالتذم من الله عز وجل، ويطلب رضاهم بالتعرض لسخط الله عز وجل، ويطلب ولا يتهم بالتعرض للعداوة من الله عز وجل.

ومحرم في الآخرة الثواب، ويحبط عمله في الدنيا، ويبتل أجره في يوم فطره وحاجته وفاقته

فلا تسأل عن تقطع نفسه بالمحسرات والتندامة، إلا أن يكون أحلصه قبل القيامة إذ رأى موضع منفعة الإخلاص، وموقف ضرر الرياء. وإن كاتب حسانه راجحة على حاله لما عنده من العمل الخالص سوى ذلك فقد حسر بعض حسانه التي تقرب بها من ربه جل وعز، ويعلوها في جنته، مع سؤال الله عز وجل له وتوفيقه إليه على الرياء والخياء منه أنه قد قدم في الدنيا في عمله عليه غيره في الهبة والمحمدة والتقرب.

وما يناله في الدنيا بإظلام قلبه وحبث نفسه، وزول أرجاء عن قلبه، إذ علم بريائه وشئت همومه في طلب حمدهم لا يحصى، لأنه كثير عندهم لا يحصى من يعامل منهم، ورضاؤهم لا يدرك لأن بعضهم يرضى بما يسخط بعضهم».

وأما ما ينال منهم مع تعرضه لهذا البلاء العظيم، وما يترك به من رضا الله عز وجل في الدنيا والآخرة؛ فإنهم لم يزيدوه بحمدهم في أجل ولا رزق، ولا اجتراح عافية، ولا صرف بلاء، ولا دفع مكروه بما قدر الله عز وجل».

وأما الطمع فيما أيديهم فإنه لم ينل ما لم يقدر له؛ وإن كان نال شيئاً فبأنما نال قدر له مما لو كان أخلص عبادة ربه لنال ما نال لا محالة، فأحبط عمله وتعرض لمقت ربه وحرمان ثوابه من غير ازدياد في رزق؛ ولا أجل، ولا اجتراح منفعة في دين أو دنيا على ما قدر له».

«فكيف لا يرهق عاقل فيما يضره في الدنيا والآخرة بغير اجتراح ومنفعة له؟»

وأما المذمة فإنه لا يمرل به من البلاء ما لم يقدر له، ولن يناله من الدم

مالم يهدر، ولا يصرف مخافة نهم شيئاً من العاقبة والرفق، ولا يقطع من الأمل ما قلره الرحمن حل وعز».

فكيف لا يرهد عاقل في هذه الخلال الثلاث إذا عرف ضرره، وأنه لا ينال منفعة في دنياء بشيء منهم، وأن أمر الله معروغ منه، وأن هذه الخلال الثلاث حذعة وغرور، تضر الضرر الأكبر ولا تنفع في شيء من الأشياء؟

فإذا عقل العبد هذا كما وصفت له: أنه يحبط عمله ويبطل أجره، وتشتت همومه ويتمرض لمقت ربه عز وجل، زهد في هذه الخلال الثلاث ولم يعتقدن».

عناصر الشر

(أ) النفس :

إذا كان الإنسان يأبى الشر، فالعنصر الرئيسى الدافع له إليه هو النفس. والواقع أن إبليس - هذا العدو الدائم النشاط للإنسان - هو أيضاً عنصر هم من العناصر ابدافعة إلى الشر؛ ولكنه لا يستطيع تحقيق أغراضه إلا بواسطة النفس؛ وغرائز الحياة الدنيا لا تصل أبعد عن الصراط سوى إلا إن مالت إليها نفسه، ولاشئ قط في الدنيا يسقط الإنسان في الذنوب، لا إن لاقى ذلك من نفسه هوى أو قبولاً.

لذلك حذرنا الله منها في مواضع كثيرة من كتابه، يقول مثلاً:

﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجِمْتُ﴾^(١).

لذلك وجب على الإنسان اليقظة الدائمة لمكرها به.

وعليه أن يتفكر في الأمثلة التالية حتى يستطيع مقاومة أغراضها الشريرة رياخذ حذره منها:

١ أن العزم بها في حال ارضا مبدول على الحلم وهي بالنسبة للحلم سحية غير ممتعة.

فكل إنسان من كافر أو من مؤمن يحلم عند الرضا؛ فإذا غضب

(١) يوسف آية : ٥٣

فطلبت منها الحلم، امتنعت منه فظهر منها من السفه والحقد وسوء الخلق ما لو يظهر من بعض الولدان لكان قبيحاً.

فمن بذل الشيء حيث لا يحتاج إليه، ومنعه عند الحاجة، أليس محادى وليس بصادق؟ مخدك عند الحاجة، وبعدك عند العناء أنه يغشك.
فمن أعدى لك من فعل ذلك بك؟ ومن اكذب وأعجز من فعل ذلك بك؟

٢ - «وكذلك الإخلاص، تعطيك قبل العمل، وليس الإخلاص إلا نية الإخلاص أن يخلص عند العمل، إشفاقاً، زعمت على العمل أن يحبط في يوم فقرك وفاقتك إليه، تعطيك ذلك سخية غير ممنعة.

فإذا عرض العمل، هاجت هي بالدعاء إلى الدخول فيها وعدت أن تفر منه، وامتنعت مما وعدت أن تقوم به، وهاجت الشهوة بالرغبة، وامتنعت من الإخلاص وامتنعت مما يقبل به عملك، ودعتك إلى ما يحبط به عملك في يوم فقرك وفاقتك؟

٣ - «وكذلك تعطيك الورع في حال العدم، وإعاً ذلك نية الورع، فترغم أنها تدع ما يكره الله عز وجل حين تعرض لليلاء خوفاً من أن يعضب الله عليك فتستوجب العذاب وتحرم الثواب.

حتى إذا قدرت وامتنعت حاشت بشهوتها، فطلبت ما زعمت أنها تدعه إذا عرض لها إشفاقاً عليك من النار وحرمان الثواب، وامتنعت مما زعمت أنها تقوم به من الورع رجاء الأمن من العذاب والظفر بالفور والثواب فهل يقدر أعدى الأعداء لك إلا أن يعطيك من الأمن ما تعثر به لتسكن فتطمئن ولا تحذره وتأممه، حتى إذا عرض ما وعدك أن يعطيك كان هو الذي يطلب هلاكك وعطيك ليتال ما يريد ويستهي؟».

٤ - «وكذلك الزهد تعطيك قبل الملك حتى يخيل إليك أنك من الراهدين حتى إذا ملك الدنيا أو القليل منها هاجمت منها الرغبة، وكانت هي المطالبة والمنازعة إلى الرغبة واصادة عن الزهد».

٥ «وكذلك الرضا، في حال الرخاء والعافية، قبل وقوع القضاء بالبلاء والمصائب، حتى يخيل إليك أنك من الراضين.

فإذا نزلت مصيبة أو بلاء امتنعت من الرضا، بل كانت هي التي تهيج للجزع والتسخط وتثبط عن الرضا وتصد عنه».

٦ - «وكذلك تعطيك التوكل والثقة بالله عز وجل ما واثتها الأسباب والدنيا وكفيت المؤونة، فإذا جاءت حال يحتاج فيها إلى النظر إلى الله عز وجل لا إلى خلقه والأسباب التي دون الله عز وجل، تعلق بالأطماع، وهاج رجاء المخلوقين وخوفهم، ولرم القلب الاهتمام بالأسباب وظهر التصنع والتعلق للخلق، فعبرت بك حين احتججت إليها، وكانت هي التي تصد عن التوكل وتثبط عنه».



ومن الأمثلة السابقة بنجلى لنا غرض النفس، وهي التي لا ترجو للإنسان سبل النجاة.

وهي لا تكف عن نشاطها في لصيل والحث على التهذبة، فإن هدر الله عبده على مجاهدتها واليقظة لها فصار يذكرها بالوعيد والوعد واستطاع أن يقهر بذلك «هواها وغريزتها» ويحول بينها وبين «الشر الظاهر والباطن»، لجأ إلى وسائل أخرى من مكرها، و«طلبت الشر الخفي الغامض؛ تريد أن تنال لذتها فيما أحبت إليه كأنها لا تريد أن تصل إلى

خير من عمل الآخرة ولكنها تخوم على أن تنال لذتها، لا تنبالي فيما نالها
كانما ما كان غير مكتسبة».

وكل ما يضل العبد عن سواء السبيل فهو راحه للنفس وسرور، بل إن
«العبد لا يكاد يأتى برّاً إلا وشهوتها ضده».

ومنه ما «لا تعب عليها فيه» كالسكوت عن الخوض في الباطل
وغص البصر وترك الغيبة، ذلك، «لأنه وإن لم يكن لها متعباً، فإنه مشغل
عن محبتها وهواها».

وهي في سبيل إحباط ما يشعل عنها فبمنع تحقيق شهواتها، تستخدم من
وسائل التضليل ما أمكنها.

«فقد يجد العامل لله عز وجل، القوى العزم، الراحه في الدنيا، نشاطاً
من نفسه للطاعة وشهوه منها لها، لا تكاد تصبر عنها، كأنها طبع منها، بل
قد يكون في بعض الحالات أكثر من الطبع»

وتفسير الأمر، أن «ذلك لم يكن منها ابتداء، ولا هو موافق لها في الخلقه
في ضعفها ولا في حال قوتها».

وقد كانت أولاً جاهدة حريصة أن لا يكون ذلك منها؛ فما وهب الله عز
وجل للعبد قوة لعزم والمواظبة على مجاهدتها والقمع لها، فبنست أن يجيبها
إلى محبتها، وقهر الطبع منها قوة العزم وبور الحق، وغلب عليه هموم
الآخرة وأحزائها، سكنت عن دعائها وانقطعت عن طلب عاداتها، وهي مع
ذلك على خلقتها وهيبتها.

ولو وجدت منه فترة رجعت إلى أسوأ أحوالها، ولرفضت أكثر طاعتها
ربها عز وجل».

وزيد المحاسبي موقف النفس إيضاحاً بمصرب المثل التالي لمحدثه :

«ومثل ذلك كأسير من بلاد العدو استأسرته وقرقت بينه وبين ماله وأهله وولده وأرضه ووطنه، وقد كان جاهدك قبل الأسر على أن يكون هو المستأسر لك حتى أتاك من أعانك عليه فشده لك كتافاً ومكنك منه، فلم يرل بعد ما أمكنك منه يجاذبك إلى لرجوع إلى بلاده، ويطلب منك غملة ليقتلك أو يستأسرك فيرجع بك معه إلى منزله ووطنه، فلم تزل تضربه وتقهره حتى انقاد لك من الخوف، وسارع إلى خدمتك، وأنت مع ذلك متخوف أن يجد فرصة فيرجع ويتركك ويرفض ما في يديه مما استرعبته من عملك، أكنت له حامداً، أو في أمره متزيتاً».

«هكذاك نفسك قد كانت حريصة على الركور من قبل إلى الدنيا فأبى الله عزوجل إلا أن يوفقك ويسددك، وأعانك عليها، حتى أيسر منك أن تنال محبتها.

فأجابت مسرعة، على غير انقلاب من طبعها، ولا تغيير لغريزتها، وأنت مع إجابتها لك متوقع رجوعها».

ولكن هناك فرق بين النفس والأسير، لأن الأسير لا يرى أن الخير فيما يراد به وهي قد علمت أن يرد منها خير لها.

فقد سابو الأسير في مخالفته، وفصلت عليه في الشر، فهي شر وأعجب عصياناً وإبادة من الأسير، إذ عصت بعد العلم بأنك إى تدعوها إلى نجاتها، ونحائب هلكتها، فالحمد لله وحده، والدم لها، والحذر والخوف منها».

والأمر الذى يعنى الإسدى على قهر نفسه وإخضاعها هو التفكير في عيب الله، وما أعد له لمركبى الذنوب من ألوان العذاب في الجحيم، وقد

عرضنا لهذا تفضيلاً فيما سبق من بحثنا تحت عنوان «الطريق السفساني إلى
النجاة»

(ب) إبليس :

أمرنا الله بأن لانطيع عدوه في شيء، وعدو الله هو عدو الإنسان، وهو -
إبليس-

قال تعالى في كتابه :

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ
أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(١).

والغاية التي يسعى إليها إبليس تهلكة العبد وإحباط أعماله، وهو
ينشط عكره ووسائله الخفية إلى تصليل العبد وإدخال الريه ولعجب
والكفر في أعماله من حيث لا يدري حتى تحبط، ولا يكون لها ثواب «عند
الله»^(٢).

غير أن إبليس لا يعلم علم اليقين أسرار قلوب البشر، فهو قد خبر
وتابع ما يظهر ولكنه طالع مقارنته للإنسان، وتفقد له ولأحواله، حتى لم
تحف عليه حاله، فعرف مطالبه ومداهيه، وقد ابتلى به العبد.

فعند كل خير صدمه عنه صدمة من غير علم منه بما يحدث، غير أنه قد
علم أن خيراً قد أحدثه العبد، وكذلك يعلم أن شراً قد أحدثه العبد،
لا يعلم أي خير، ولا أي شر، فيعارضه عند حدوث الخير بالصدم وعند
حدوث الشر بالتزيين.

(٢) المحاسبي: مرفقة، ص ٣

(١) قاطر آيه: ٦

وكذلك الإنسان إذا طالت مقارنته لإنسان آخر، فإنه يهتم بأمره، ويعلم اهتمامه وسروره، ومن غير أن يعلم ما الذي سره، وما الذي غمه.

ولكن الإنسان إذا عظمت رغبته في الطاعة، ومن الله عز وجل عليه بالرهء، فإنه يحبه « يفعل من الخير الأقل بدعائه له ألا يفعل، وبذلك يغفل عن أن يصيب الأكثر فيقبل الشيطان من الإنسان عند ذلك ترك الأكثر

ولما كان الناس يخلفون في درجات إقبالهم على الخير واشتر، فإن إبليس لا يستعين بنفس الأساليب لتعريض بهم جميعاً، فقد يوسوس لهم بترك الفرائض أو يدفعهم إلى إهمال التوكل، وقد يوسوس لهم بارتكاب الذنوب الصريحة أو يدفعهم إلى الأعمال أو الأفكار المشكوك في أمرها، وهو يترقب من الإنسان الفرصة المواتية التي يضعف فيها ويسهل اقتياده إلى الشر، ولكن هناك من العباد من يرصده، لأنه قد يأس منه، إلا في موضع العقلة، فلما كثرت عليه الوسوسة، كثر احتراسه، ونفى وساوسه، فیراصده بتضييع الاحتراس، ويحمل عليه بالملاهي، ويبعد إليه بها

فإن نفى الوسوسة، وصار إلى الذكر، وحسم الأشياء، خنس عنه، ولم يلح عليه، لأنه إذا ذكر عند الوسوسة أيس من الفعلة

وإن أراد الشيطان الطمع بالفعلة عن الطاعة، أعرض عنه اللعين بالوسوسة، كأنه لم يوسوس إليه، ولم يردده، كيلا يزداد لطاعة، وهم الذين وصفهم الله في كتابه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشُّبَّانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾^(١)

فمن الناس إذن من يستمع لوسوسة الشيطان، ولكن منهم أيضاً من يصدّه ويتجنبه ويحذره، وهؤلاء ليسوا في مقام واحد، لأنهم يختلفون في قوة العزم على الخير.

ومثلهم: مثل رجال أربعة أرادوا مجلس حديث أو ذكر، يخافون أن يفوتهم منه يقدر إبطانهم عنه في طريقهم، أو صلاة في جماعة أو جمعة. فمر أحدهم برجل من أهل الضلالة، فعرض له للتبسط والنهي عن الذهاب يريد أن يصدّه، فلما رآه بأبي أن يرجع قبل أن يجادله، فقام عليه يجادله ويخاصمه، ولضال يحب طول المجادلة بينها، ليموته بقدر ما يجبهه بخصومته.

ومر الثاني عليه فساء عن الذهاب إلى الموضع الذي يريد، فوقف مسهراً له راداً عليه، فاعسمها الصال بقدر ما يفوته يجبهه بالوقفه عليه.

ومر الثالث وهو يمشي ماشياً أو راكباً فعرض له بالنهي والتبسط، وقد علم ما لقي أصحابه من الحبس، فعصى ولم يقف ولم يحدث معنى.

ومر الرابع وقد علم ما لقي أصحابه من الحبس، فبما أحس بصوته و كان ماشياً سمى، وإن كان راكباً حرك راحله بالسرعة، ليعيظه وليدرك ما يطلبه تماماً، ولا يكون كأصحابه الذين قبله، فيوشك أن عادوا عليه، ن يعرض لهم ويدع هذا الرابع، لأنه اتخذ دعاءه عبرة وريادة في الخير بالسرعة إليه والإعراض عما دعه إليه العدو، وكذلك القوى لكيس من المخلصين^(١).

ولكن ما العمل؟

هل يجب على الناس أن يحذروا إبليس؟

أم أن عليهم أن يستعصوا عنه بالموكل على الله عز وجل وباطاعته.
«حتى يكون هو الذى يزحر عدوهم عنهم»؟

ويقول المحمدي: إن أهل الفكر عرّضوا في ذلك آراء عديدة مختلفة
«عامتها غلط إلا قولا واحدا».

«فأحد ما قالوه أن فرقة من البصريين قالت: إنما يحتاج إلى الحذر من ذلك لضعفاء. فأما الأقوياء فقد انقطعوا إلى الله عز وجل واشتعلوا بحبه فليس للشيطان عليهم سبيل، إذ قطعوا حب الدنيا من قلوبهم، وأبدلوا قلوبهم إلزام حب الله عز وجل لها، والاشتغال بالسيد وبمحتاجاته، فقد خنس الشيطان عنهم وذل وأعزل».

«وقالت فرقة من أهل الشام: إنما يحتاج إلى الحذر من قبل بقتة وضعف تركله».

فأما من أقنع بأن الله عز وجل لا شريك له في تدبيره، ولا يحدث في ملكه ما لا يريد، وأنه لا يضر ولا ينفع شيء إلا به، وأن الشيطان عبد مخلوق ذليل مهين لا تنفذ به خطرة ولا مكيدة إلا بإذن الله عز وجل فيها، فالعارف بالله عز وجل يرجع إلى الله عز وجل بالتوكل والاستحياء منه أن يراه يحذر مخلوقا دونه، فالحذر لغير الله عز وجل نقص من اليقين والتوكل».

«وقالت فرقة من أهل العلم: كلا الفريقين غلط»

أما ما قالت الأولى. فإن من الاشتغال بالله عز وجل، والحب له، حذر ما حذر منه، واتباع أمره فيمن أمر بالحذر منه، لأنه عز وجل يقول

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(١)

وقال عز وجل لباس كلهم لا يحاشي ضعيفا ولا قويا.

﴿يَأْتِي أَيْمَ لَا يَمْسُكُ لِسْطَر نَبْ خَرَجْ تَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾^(٢)

وعبر ذلك من الآيات والأحاديث التي يحضنا على الحذر من إبليس فلو كان لله عز وجل محب الأمن مع لأحد ويزيل الحذر عنه، لأخذه لها:

(أى آدم وحواء)، وأر له عنها في حسه، وليس لها فتنة ولا شيء بها عنه إلا شجرة واحدة، فكيف بنا في فتن لا نحصى في القلب والحوارج، ومالا يحصى من ملاذ الدنيا وشهواتها؟

وأمر الله بيبه ﷺ بصلاة الخوف، ففعل ذلك طاعه لربه لا اشتغالا بعدو الله، والكفار عدو تراهم الأعين وتسمع أصواتهم الآذان والشيطان عدو يراك ولا تراه.

هاى العدوين أولى أن يحمرر منه؟ وأى المرعتين أولى أن تحذروا. عدو ربه وإن غفلت عنه فأصابتك نزعته لم تحل من أحر أو شهادة، أو عدو يراك فلا يراه، وإن أصابك نزعته لم تحل من إثم أو حصران عمل أو موت أو دخول إلى النار.

فقد بين غلط الفرقة التي قالت: إن من الاستغفال بالله عز وجل الإعراض عما حذر الله منه طاعه لله عز وجل، واتباعا لأمره، فذلك بين عند من عقل أمر الله عز وجل.

وأما الفرقة الثانية التي قالت: إنه من أيقين والتوكل على الله عز وجل أن لا يحذر عدو الله، فهذا غلط منها أيضاً، لأن أولياء الله عز وجل لم يحذروا العدو باعتقاد منهم أنه يضر أو ينفع دون الله عز وجل، ولكن طاعة الله عز وجل مع اعتقاد أنه لا تضر خطراته إن عصم الله عز وجل، ولا ينفع حذره إن خذل الله عز وجل.

ودوام الحذر هو عصمة من الله عز وجل، لأن الحذر مهبطاً دام حجز لعبد عن القبول منه.

فكيف يكون من يحذره قد يعص بوكلاء، وحذره عصمة من الله عز وجل على العبد قبيها أعظم النعم؟

وذلك كما أمر الله النبي ﷺ بصلاة الخوف، وأمره أن يأخذ حذره من عدوه هو والمؤمنون.

فرعى النبي ﷺ والمؤمنون ما أمروا به، لا ينقص ذلك من يقينهم ولا بوكلاء لعلمهم أنه لا يكون إلا ما قدر، ولا يشغلهم عنه ذلك ولكن اتباعاً لأمره واشتغالاً بما أحب وأراد.

فليس من اتبع أمر الله عز وجل مع اليقين يناقص التوكل واليقين؛ ولكن ناقص اليقين من ضيع أمره إرادة كمال اليقين.

وهذا قول الفرقة المنبوعة لكتاب الله عز وجل والسنة:

ولكن كيف الحذر من إبليس؟

أهو انتظار وتوقع متى يعرض؟

أم نحذر بغير انتظار؟

يقول المحاسبى إن الفرقة لى دلت بحذره، اتباعاً لأمر الله عز وجل «اختلفت إلى ثلاث فرق كلها غالطة إلا فرقة هي الثالثة.

والأولى جرى ما يلي:

«إذا أمرنا الله عز وجل بمجاهدة من لا نراه، وخوفنا منه، وأعلمنا أن في ظفري بنا الهلكة، ولا يكون في قلوبنا شيء أغلب عليها ولا ألزم لها من حذر، فنسظر متى يعرض بفسه، لأن الاشتغال عنه يورث النسيان، والنسيان يورث قبول خطراته بغير معرفة، وذلك يؤدي إلى الهلكة».

وتقول الفرقة الثانية:

«ذلك غلط لاشتغالها بانتظار الشيطان ولم تؤمر بذلك وذلك إرادة الشيطان منا، أن نحلى قلوبنا من ذكر الله عز وجل وذكر الآخرة ونعمرها بذكره وارغاب خطراته، ولكن يلزم قلوبنا ذكر الآخرة، وذكر ما يعرض، فلا نكون قد تعطلنا من ذكر الآخرة، ولا نكون ناسين لمن أمرنا بحذره كراهة أن يأتي على عجلة».

«وقالت فرقة، وهم أهل العلم وأولى بالحق: كلتا الفرقتين غالطة

أما الأولى فعرغت قلوبها من ذكر الآخرة، وجعلت عبادتها إلزام قلوبها ذكر الشيطان فقد أدخلت ذكر الشيطان في القلب غلطاً أكثر مما أدخلت ذكر الله عز وجل في قلوبهم، وإنما أمرت بالحدس من أن تعفل عن الذكر والعمل، فإذا ودعت الذكر فقد أصاب العذر ما أراد، وإن جاءت خطره إلى قلب خارج من الذكر يوشك أن يقبلها، إذ ليس فيه نور من ذكر الآخرة، ولا قوة اشتغال بالله عز وجل».

وما لفرقة الثانية فقد شاركت الأولى في بعض معاصيها، إذ جعلت ذكر الله عز وجل وذكر الشيطان في القلب مستويين، فكأنما أمرت بذلك - ذكر الله عز وجل وذكر الشيطان، والاشتغال بالله عز وجل وبالشيطان.

ولم يلبسوا عن أحد من لأقوياء ولا الصعفاء أنه فعل ذلك. ولا دان به. لأن الله عز وجل أمر عباده بطاعتهم وبديهم إلى الاشتغال به عن حلقه إبليس وغيره، وأمرهم بالحذر منه حين يعرض بفتنه. فاشتغل أولياء الله عز وجل وأهل الخالص من عباده بذكر ربهم وذكر ما ندب إليه وأحبه، وألزموا قلوبهم حذر ما حذرهم منه على غير انتظار له، ولا اشتغال بذكره.

والحذر يلزم القلب من العصايه بالنجاء من العدو والخوف من فتنه، ثم لا يمنع الاشتغال به، أن يهيج لذكر والتبقيظ حين يعرض العدو بحضراته.

وإن ذلك لوجود فيما هو أشد من أمور الدنيا، فإن نام والحذر في قلبه من ذهاب اليوم تبقي في غير وقته الذي كان يستيقظ به من الحذر اللازم لقلبه، فكذلك المشتغل بذكر ربه الذي لم يذهب عقله أولى أن يوقظه ويذكره الحذر من عدوه وإن اشتغل بذكر ربه ترك ذكر عدوه ولاشتغال به، لأن المستيقظ من أسوم من غير ذكر دائم في قلبه، وكيف بذكر وهو دائم لا يعقل، ولكنه أيمطه الحذر، فكذلك العامل لله عز وجل، المشتغل بذكره الإلهي عن ذكر الشيطان بالاشتغال بربه عز وجل، إذا عرض عارض منه ذكره الحذر في قلبه، وقواه الذكر على أن يظن لعارض وينحرك لمعارض.

فإن عرضت خطره ذكرها وكان أقوى على ردها، لأنها تعرضت بقرب مشغول بالله عز وجل، فيرده بأهون الرد.

ومثل لدى بفرع قلبه أو بعصه لا ينظر خطرة من الشيطان، مثل من يريد أن سرف الماء انهدر من بئر، وأماء من المحرى إليها وأصل، فهو سرف وأماء إليها يجري فيقطع أيامه بالتروى ولم تجف لبئر من الماء.

ومثل لدى يلزم الاشتغال بالله عز وجل قلبه مثل من جعل لجراها

سكرًا^(١) وسدّ، فإذا جاء الماء رده بذلك السكر واسد من غير كنه ولا عناء.

فهذه الفرقة للقرآن والسنة والصالحين أتبع، وعلى رد الخطرات أقوى، وأبعد من الخدع والنقص^(٢).

(ج) فتنة الحياة الدنيا؛

لنفس عامل دحلى شيط للشر، وإبليس عامل خارجى نشط له أيضًا، وهناك عامل آخر للشر لا يظهر أثره إلا إذا ووجه به الإنسان، أو اتخذ إبليس والنفس من فتنته سبيلاً لأغراضهما، ذلك هو إغراء الحياة الدنيا. ورد فعل المحاسبى لهذا العامل من عوامل الشر يظهر لنا من موقفه تجاه الزهد، فهو لا يكتفى بعرض رأيه بشأنها، بل يحذر المؤمن من إغراءات الدنيا ويحذ فيها احتياريًا له وفتنة، ومن بين من الحياة الدنيا بذكر المحاسبى محاليس العناء، وأماكن النهو عامة باعتبارها أشدها إغراء، بل وينتقل إلى حد القول بأن ارتيادها محرم على المؤمن بحريم أكل الميتة. أما فيما يختص بالأصحاب فهو بطبيعة الحال لا يحمل على من كان منهم نافعًا لصاحبه في دينه، ولكن هؤلاء قلّة بين أساس، لذلك فهو يتحدثنا عامة عن سوء عاقبة الإكثار من الأصحاب، بل هو يقول، «خير لك الإقلال من لأصحاب، من خير لك تركهم، تأمن لدينك وتقوى على مجاهدة النفس».

إبصارك أصحابك عند لقيائهم، وإبصارهم إياك فتنة، حديثك إليهم،

(١) أى سدّ أو حاجر.

(٢) راجع لوعاية ص ٢٣٤، ٢٣٦ نشر دار الكتب الحديثة.

وحديتهم إليك فتنة، تركك لهم أو تركهم لك فتنة^(١).
تعظيمك لهم، وتعظيمهم لك فتنة^(٢).

إذا رحلت للحج وليس معك من تعرفه ويعرفك، فذلك خير، وما عداه
فهو فتنة؛ وكن حذرًا حق لا تفتن^(٣).

ويواصل المحاسبي وصاياه للمؤمن بالحنز من الأصحاب والإخوان،
فمجالستهم يبعث منها الرياء، وحب الحمد والتناء، والحسد، والطمع في
غير طاعة الله، وطلب الأجر من المخلوقات دون الله.

كل هذا من عواقب مجالسة الناس، بل قد يكون من آثارها: إحباط
العمل، فلا أجر ولا ثواب في الآخرة لمن لم يستطيعوا مقاومة لفتنة في
الدنيا.



(١) فهو يؤدي إلى الغيبة والسب

(٢) فهو من الرياء ويدخله العجب بالنفس

(٣) المحاسبي أدب النفوس ص ٦٨، ٦٩

آفات النفس

ونعرض في هذا لفصل لأهم آفات النفس فيما يرى المحاسبي، وقد حدثنا عنها تفصيلاً في كتاب «الرعاية».

(أ) العجب :

العجب : آفة في كثير من العباد عظيمة.

وهذه الآفة، أو هذا الشعور للذموم، يعنى قلب الإنسان، حتى يرى المعجب أنه محسن وهو عسى، وأنه ناج وهو هالك، وأنه مصيب وهو مخطئ. ولا يلبث صاحبه المعتمد له أن يركن إلى الغرة، فيستصغر ما علم به من ذنوبه وزلله، وينسى كثيراً منها، ويعنى عليه أكثرها حتى لا يظنه ذنباً، فيسكثر عمله، فيفتر به، فيقل خوفه، وتشتد ياقته عز وجل غرته. وإذا عرف كثرة ذنوبه واستعظمها ثم قنط لم ير أنه يقبل منه التوبة، فأقام عليها فأوسع عن العمل لله عز وجل بالطاعة قيهلك لذلك ذم النبي ﷺ، والصحابه رضوان الله عليهم، العجب دما شديداً، ففي الحديث:

« ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه ».

أما ابن مسعود فيقول:

« الهلاك في اثنين: القنوط والعجب ».

فدل ابن مسعود بقوله هذا أن في لعجب الهلاك، لأنه إذا أعجب زكى

نفسه فإذا أركأها لم يتهمها، ولم تعظم عليه مخالفتها أمر ربها، وظن أنها ناجية.

وقال مطرف:

«لأن بُيت نائماً وأصبح نادماً أحب إلى من أن أُبیت قائماً وأصبح معجباً» والعجب يكون باجتماع اثنتين:

الأولى: أن يعظم لدى العبد ما يقوم به من عمل فيدل به.

والثانية أن ينسى منه الله عليه وفضله الذي به في الحقيقة كان عمله. فمن بما اصطنع من معروفه فحبط أجره.

ويعد المحاسبي تيسيراً على وارثه، إلى تقسيم العجب إلى قسمين: العجب بالدين والعجب بالدنيا والنفس.

أما العجب بالدين فعلى نحوه أربعة:

أولها: العجب بالعمل الديني فرضاً أو مفلاً.

وثانيها: العجب بالعلم، أي ما حفظ وفهم من لقرآن والسنة، وقول علماء الأمة.

وثالثها: العجب بالرأى والصواب، أي «ما استنبط قياساً على الكتاب والسنة والإجماع مشبهاً بها حكمه، مثل حكمه».

ورابعها: العجب بالرأى الخطأ، أي ما كان عن غير استنباط من كتاب ولا سنة ولا إجماع الأمة، وبما هو تأويل بغير حق، وانحلال له على سبيل الجهل، من قبل هوى النفس، مع اعتراض من الظن أنه حق.

فأما الإعجاب بالعمل والعلم والرأى الصواب فمعنى واحد، لأنه كله منة من الله عز وجل، ونعمة منه، وله أول يكون عنه، وقد يتفرد أوله فلا يكون عجباً؛ فأما أوله الذي يكون عنه العجب: فالاستكثار والاستعظام

للعمل والاستحسان للعلم والرأى الصواب.

ونسى نعمة ربه عز وجل عليه، ومنته بذلك.

ليس يعجب علمك بما عملت وعلمت، ولكن الإضافة إلى نفسك. ونسيان منة المولى بذلك، فأما إذا علمت أن ذلك كان بمنة الله عز وجل وأن نفسك لو تركتها ومحبتها لركنت إلى خلاف ذلك، فمفرد الله عز وجل بالمنة في ذلك، فلدست معجباً.

وشهوة النفس تدفع بالإنسان دائماً إلى المخالفة وتسعى إلى معه عن الخير: «لأن العبد لا يكاد يأبى برأ إلا وشهوتها في صده، إن قام الليل فشهوته في راحته، وكذلك إن صام فشهوته في الإفطار، وكذلك جميع أعمال الطاعات.

فعل العبد إذن أن «يذكر ويعترف أن لعمل من الله عز وجل نعمة نعم بها عليه، لا ابتداء من نفسه، وأن عليه في ذلك لشكر، وأنه غير قائم بالشكر على ذلك مقصر عن شكره، لم يستأهل ما من عيه به، بل يستأهل أن يسلبه، لتضييعه شكر نعم الله عز وجل عليه.

أما الوحة الرابع للعجب، وهو العجب بالرأى الخطأ، فيقول المحاسبى بشأنه إن الرأى الخطأ: ليس بنعمة فيوصف بنسب من العلم فيه، وبكس بلاء وحذلان وقصر؛ هذا كن الرأى على غير الكتاب والسنة والإجماع، فمن العجب كان، وهو الذى أهلك عامة العباد، حتى ضلوا وكفروا وابتدعوا وأخطأوا في دين الله عز وجل، وقد دمه النبي ﷺ ودم أصحاب لنبي ﷺ العجب بالرأى والعلماء بعدهم، وأحبروا أن فيه لهكة».

والعجب بالرأى الخطأ يكون من قبل هوى النفس مع عتراض من الطن أنه حق يظنه بغير يقين.

وهو يصدر عن الإغمال والجهل، وعن ترك تهمة النفس واستحسان
الرأى بشير علم وضح له ولا دليل عليه من الله عز وجل.

وقد ينفى العبد العجب بالرأى الخطأ بتهمة نفسه، وترك لاستحسان
لشيء من رأيه إلا بدليل بين وحنة وضحة من الكتاب والسنة أو قياس
عليها واستنباط حكم في نازلة، لمعرفة ما بنيت عليه النفس في الخلقة؛ أن
من شأنها اسهوا والعملة، ولما جرب منها من كثرة غلطها وكثرة زللها،
وسوء تأويله مالا يحصى مراراً كثيرة، في كل ذلك يرى أنه مصيب لا يشك
عند نفسه في ذلك، ثم يتبين له بعد أنه قد كان غفل وغلط، وكان
استحسانه لذلك من قبل الهوى وريين الشيطان.

وقد سبق لك في حلال بحثنا هذا أن عرصتنا لموقف لمحاسبي من
الأحكام الحاطئة المبنية على الآراء الشخصية للناس.

ولنتقل الآن إلى ما تحدثنا به المحاسبي فيما يتبع بالنمط الثاني من
العجب، وهو الذي تثيره أمور هذه الحياة الدنيا.

ولعجب من قبل الدنيا يكون بالنفس أو بالمال أو بالحسب أو بالكثرة
من الخدم والولد والعشيرة والأصحاب.

والعجب بالنفس هو العجب بالحمال والجسم، بعظمه وثامه والقوه
والعقل والعمل وحسن الصوت.

فأما بالحمال والجسم فاستحسان ذلك من نفسه، ونسيان ما درم العبد
من الشكر لله عز وجل على ذلك، ونسيان القدر في البدء، وما يتقلب فيه
من الآفات ومصير الحمال والجسم إلى الماء والليل.

وينفى العجب بالنفس بذكر العبد للنعمة، وما وجب عليه من الشكر،
وباستفكر في قدره الله الذي يستطيع أن يبذل حماله بالقبح، وأن الجسم من
التراب، وسيعود تراباً

فإذا عرف نفسه وقدره ومصيره، وما عليه من شكر، وما ضيع منه، وما وجب عليه بتضييعه الشكر من العقاب، زال عنه العجب وأهم بالشكر ونواضع للمنع.

أما العجب بالقوة فهو استعظامها ونسيان الشكر، والافتكال عليها ونسيان الافتكال على الله عز وجل، كما حكى عن قوم عاد حين قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟﴾^(١).

فأعجبوا بقوتهم واتكروا عليها، وظنوا أنهم بها يتخلصون من عذاب الله عز وجل وكانت عاقبة قوم عاد عبرة للناس من بعدهم.

وكما وصف النبي ﷺ قول سليمان عليه السلام: لأطوفن الليلة مائة امرأة، فلما لم يقل: إن شاء الله، لم يكن ما أراد من أولئك كان أمر داود حين قال لربه:

«إِنْ ابْتَلَيْتَنِي صَبَرْتُ».

فاتكل على قوته ونسى التوكل على الله تعالى، فتدم على ما كان منه طوال حياته، وقد يحترى العبد أيضًا بما أعطى من القوة على المحروب في معاصي الله عز وجل، ويعبر غيره بضعفه، ويفتخر عليه بقوته.

وينمى العجب بالقوة بعرفة العبد أنها من الله عز وجل نعمة، فضله بها لينظر كيف استعماله لها في طاعته.

ولو شاء هدها بعاهة أو بسقم أو ضعف، فيلزم نفسه وجوب الشكر عليها ويخاف إن استطال بها واستعملها في معصية الله عز وجل أن يدها أو يكسرها بعقوبة منه.

وأما العجب بالعقل والذهن والفتنة فهو استحسان ذلك واستعظامه.

(١) آية ١٥ من سورة فصلت.

ونسيان النعمة بالتمفضل به، والانتكال عليه أن يدرك به ما يريد وما يؤمل من علم أو رأى، أو أحكام دين الله عز وجل أو دنيا، وترك لتوكل على الله عز وجل في جميع ذلك حتى يخرج ذلك إلى قلة التثبت لإعجاب به بعقله، حتى يخطئ في دين الله عز وجل، ويقول عليه بقدر الحق، ويخرجه أيضاً إلى ترك تفهم ممن علمه أو أمره، أو ناظره، حتى يحرم لهم للحق، ويأبى إلا القول بالخطأ أو الغلط ويخرجه إلى تحقير من دونه ممن لم يعط من الفطنة مثل ما أعطى، وإن كان أروع منه وأفضل عملاً، حتى يسمى كثيراً ممن هو أروع منه وأفضل منه جهالاً حمقى ويراهم كالحمير التي لا تعقل، إذ فصل عليهم بالفطنة والذهن، ويستطيل عليهم، ويرى أن لا قدر لهم، ويستصغر ما عملوا من خير، ويرى أنه خير منهم، وإن ضيع العمل لفطنته وعقله.

وينفى هذا المحب بمعرفة العبد بجهله مما أعطى من الفطنة، وبسهره وغفلته، وقلة ما يرى بعقله، وإن كان قد أعطى من الفطنة أكثر مما أعطى غيره، فقد وجب عليه في ذلك الشكر، وإنما فضل بالذهن لتعظيم المحبة عليه، ولتوكيد الطاعة بالمروم لها؛ ولينظر الله عز وجل كيف استعمله لعقله في النهم عنه، والاشتغال به، وإن ما أعطى من العقل بيد الله عز وجل. ولو شاء أن يعيره ويربكه ببعض الآفات كما رآه فعل ذلك بمن هو مثله، ومن هو فوقه لعقل، فلا يأمن من أن يسليه الله عز وجل عقله.

فإذا عرف ضعفه وجهله وقلة ما يدرك بعقله، وأن ما فضل به منه عليه، فله الشكر وعظيم المحبة وحب الحق، وأنه لذلك مضيق، فإذا عرف ذلك عدم أن من لم يؤوب من المطنة مثل ما أوفى، أحسن حالاً منه، إذ لم يسكر الله عز وجل على ما قصده به عليه، وأن المحبة عليه أعظم منها على من دونه.

وقد يرى كثيراً ممن هم دونه في الفطنة أطوع لله عز وجل منه
ومن العجب: العجب بالحسب، وهو: استعظام القدر من أجل الآباء
والأصل.

هنا كانوا من أهل لشرف في الدنيا من الذين شرفوا في الدنيا بالدين
فيستعظم قدره من أحلهم، وينسى منه الرب عز وجل، إذ خلقه من الكرام
الصالحين، ورفع عنه محنة ضعة القدر، فيعجب إذا استعظم قدره من أجل
آبائه.

حتى لبخيل إليه، بل قد يقطع بعضهم، أنه نج بغير عمل، وأنه مغفور
له وإن كثرت ذنوبه وإن لم يصب منها، فيستطيل بذلك ويسكب، ويفخر على
غيره ويحفره، ويألف منه إن كان ذا قرابة أو جاراً أو غيره، ممن هو دونه في
الحسب ويختال في مشيئته، ويرى أن الخلق شبيه بالعبيد، بل قد يرى بعضهم
أن الأمة عبيد له، فيحالف آباءه في فعالهم، ويريد أن يكون عبد الله عز
وجل مثلهم، وذلك الاغترار بالله عز وجل والجهل بأمره.

وينفى العبد هذا العجب بمعرفة ما رغب عبيد من شكر الله عز وجل
إذ جعله من درية من تولاه وأحبه، وأنه يحزى بعمله دور عمل آباءه، وأنهم
إنما نجوا بالطاعة وشرفوا بها، وأنه وإن حاف طريقهم فحكمه أن يخالف
به إلى غير دارهم وهي النار.

من ذلك قول الله عز وجل:
﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(١)

ومن ذلك قوله النبي ﷺ:

«يا معشر قريش، لا يأتي الناس بالأعمال يوم القيمة وتأتون بالدنيا
تحملوها على رقابكم، تقولون:

(١) المحراب آية: ١٣

يا محمد يا محمد - فأقول هكذا [يعني: أعرض عنكم].

وقال حين أمره الله عز وجل أن ينذر عشيرته الأقربين، فساداهم بطنًا بطنًا حتى صار إلى أن قال:

يا فاطمة بنت محمد، ويا صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ،
اعملا لأنفسكما، فإني لا أغني عنكما من الله شيئًا.

ومن هذا يتضح لنا أن الآباء والأجداد لن يغفوا عن العبد شيئًا عند لقاء ربه، وأن عليه ما كان عليهم من العمل إن أراد لنفسه سبيل النجاة، فإذا عرف ذلك، عرف نفسه ورأى عنه اغتراره وعجبه، واهتم بالشكر، وخاف من الذنب، وخاف أن يكون من دونه يتجو بهلك هو، إذ كان أتقى لله عز وجل منه.

فإذا عرف نفسه بهذه المرفقة، وأزراها بهذه المزلّة، قل فخره، وحيلاه، وحقريته غيره، بل يواضع لهم ويسبّه بأبائه، فإن الله عز وجل إنما رفعهم بتواضعهم له في خلقه، وبخافتهم على أنفسهم.

وقد يكون العجب من عبد، كان له الحسب في الدنيا، ولبس له آباء صالحون فيستعظم قدر نفسه حتى يخرج إلى الكبر والخيلاء والفخر والاستطالة على الناس والحقيرة لهم، ويرى لنفسه الفضل عليهم.

وينسى هذا العجب بأن يعلم العبد، أن أصله في البداية أصل الناس كلهم، وخلقته كخلقهم، ولم يفصل عليهم في الخلقة شيء، إذ خلق واحد، والآب واحد، والأم واحدة، ولموت وليلاء في رقبته، والحساب عليه، والثواب والعقاب أمامه، وأنه قد استوجب العذاب بذنبه، وأن عليه الشكر إذ جعله في موضع لا يشينه فيكون عند الناس وضيعًا، فعليه في ذلك الشكر وأن آباءه من تقدم منهم في لشرك غير معجب بهم، ولا يليق بهم الإعجاب ولا لهم عند الله عز وجل قدر.

والحديث عن النبي ﷺ، أنه قال:

افتخر رجلان عبد موسى عليه السلام. قال أحدهما:

أنا فلان بن فلان، حتى عد عشرة معه فمن أنت؟

فاوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: قل للذي افتخر بأباه:

نسعة من أهل النار أنت عاشرهم في النار.

فإن تفكر العبد في ذلك رجع على العجب بأن عرف نفسه وكف عن

الذنوب

«أما العجب بكثرة العدد من لولد والخدم والموالي والعشيرة والأبناح

والأصحاب» فهو الاستكثار بهم، والإتكال عليهم بالتعزز بهم، والغلبة

لغيرهم، والتزيم بهم، والإتكال على عددهم، ونسيان الاتكال على الله عز

وجل.

فيستطيل المحب بالكثرة على الناس، ويحتري على المشاقة والقتال

والضرب لغيره، منكلا على كثرتهم لينصروه ويمنعوه، ويحمله ذلك على جحد

الحقوق والجور والظلم.

وينفى هذا المحب بمعرفة لعبد بضعفه وضعف من أحاط به من العباد،

وأن من لم ينصره الله عز وجل فلا ناصر له، ومن لم يقه الله عز وجل فلا

وافي له، وأن الاتكال عليهم دون لإتكال على الله عز وجل، حتى لا ينفعه

جمعهم ولا كثرتهم، وعليه أن يذكر أن الله لم يتجاوز عن مثل هذا العجب

يوم حنين، وإن كان من خبر عصاية على وجه الأرض، فترك المسلمين

لأعدائهم - وكانوا قلة - يبايون منهم، حتى عرفوا ضعفهم إن لم ينصرهم

الله، ثم أعاهم بعد ذلك وهو خير الناصرين.

وكذلك ينفى هذا المحب بمعرفة العبد، أن الجمع سيتفرق عنه، وأنه

سيحلون بنزع لموت وحده، ثم يموت فيسلمونه إلى البلى، ولا يغترون عنه من الله عز وجل شيئاً، وأن كل من استعان بهم فأعدوه عليه، أو استطال أو ظلم بفوتهم، إن ذلك كله مثبت عليه بحزى به، حين يفر من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبه وبنيه، ومن يعجب بهم جميعاً.

بل يتمنى يوم لقامة - إن لم يعرف الله عز وجل عنه أنهم فداؤه من النار، فإذا ألزم قلبه هذه المعرفة، زال عنه لعجب بذلك، واهم بالعمل، وخاف المهدور، وانكل على الرب عز وجل لا على غيره.

والمال أيضاً قد يثير العجب في الإنسان، فلا يعود يطلب من الدنيا سوى الشهوات، ويتعظم على المقراء ويحقرهم.

ويروى عن النبي ﷺ: أنه رأى رجلاً غنياً قد قبض ثيابه وكفها ن تصيب ثياب رجل فقير إلى حبه، فقال له النبي ﷺ: «أخشيت أن يعدو فقره على غناك؟»

ويسمى العبد هذا العجب «معرفة أنه إنما ابتلى به بقلته ولا سحان، وأن المحروق عليه أكثر وأوجب منها على الفقير

وقد أشفق الصالحون من كثرتها، واشفق عبد لرحمن بن عوف وخباب وغيرها من ذلك.

بإذا ألزم قلبه هذا، خاف من كثرة ماله، ورأى أن الفقير خير منه، وأنه إنما فصل عليه بالبلاء والفسه وكثرة واجب الحقوق، ويعدم أن الله عز وجل قد من عليه بالمال لينظر كيف شكره، وأنه لا يعرف أنه شكر الله عز وجل كما يحق له، فيشفق من ذلك ويحول عنه العجب بالمال إن شاء الله.

(ب) الكبر:

إن الكبر من عظيم الآفات، عنه تشعب أكثر البليات، يسوجب به من الله عز وجل سرعة العقوبة والمضب؛ لأن الكبر لا يحق إلا لله عز وجل، ولا يبيح ولا يصلح لمن دونه.

بذلك دمت السمة من يظهر عليه الكبر من الناس، وللدلالة على شدة هذا الذم يكفى ذكر حديث واحد من الأحاديث العديدة التي يسردها المحاسبى في هذا المقام وهو قوله ﷺ:

«لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر». والكبر ينتج في كثير من الأحيان عن نقائص أخرى مثل: العجب، والحقد، والحسد، والرياء.

ولكن أصله الأصل هو جهل معرفة القدر، فإذا جهل العبد قدره تكبر.

وإذا كان أكثر العلماء يسمى من تكبر معجباً؛ ويصف العجب بصفة الكبر، فإن المحاسبى يقول:

إن أول بدو الكبر العجب، فمن العجب يكون أكثر الكبر، فممن سعى بالكبر، ولا يكاد يكون المعجب أن يسبو من الكبر

فلما كان العجب هو الذى أخرج إلى الكبر وعنه كان قبته يسمى به، دلت أخلاق الكبر عليه، لأنه قد يستعظم ما أعطى من دين أو دس، ولا يتعظم به على أحد، فذلك لعجب إذا سى سمة الله عز وجل بذلك، فإذا تعظم به على غيره وأنف منه فحقره فقد تكبر

لأنه إذا أعجب بنفسه لم يحقر غيره كان معجباً ولم يكن متكبراً، فإذ أعجب بنفسه ثم نظر إلى غيره وقال في نفسه أنا خير منه محقراً به، مزدرياً به، سمى حينئذ الكبر عجباً، من أجل أنه هو أحاحه على الكبر، وليس الكبر هو العجب،

والكبر على وجهين:

أحدهما: بين العباد وبين ربهم عز وجل، وهو أعظم لكبر.

والآخر: بين العبد وبين العباد.

وهذا الوجه الثاني للكبر خصلتين:

إحداها: لحقرية لهم، والآفة بهم، وذلك أنه يرى أنه خير منهم.

والخصلة الثانية: رد الحق عليهم أن يقله بهم، وهو يعلم أنه حق، وإن أمره بعضهم بخير، أو أنهاء عن مسكر، أو ناظره في دين، فيرد الحق وهو يعلم.

كي أن هناك الكبر في الدين، والكبر بالدنيا.

ولا جدال في أن الكبر بين العباد وبين ربهم هو أعظم الكبر عند الله

وقد يبلغ الكبر بالداس أن يستكفوا عن عبادة الله، ويأبى بعضهم الركوع له، لأن التحنية عندهم^(١)، كانت ضعه يأمنون بها

ومن ذلك قول حكيم بن حزام:

«بايعت النبي ﷺ أن لا أفر إلا قائماً»

(١) أي عند العرب.

وقال أبو سفيان: «يا معشر فريش، إن الله لا يصع بتحسينكم شيئاً»
والكبر في الدين هو: الكبر الذي يكون عن العجب في الدين، بالعلم
والعمل.

فإذا كان من قبل العلم، فإن العالم إذا أعجب بعلمه أخرجته عجيبة إن
لكبر تعظماً على العباد فيتكبر على العوام وإن كان بعضهم أتقى الله عز
وجل منه.

وذلك الذي خافه عمر رضي الله عنه على العلماء حين قال:
تواضعوا لمن تعلمونه، ولا تكونوا من جبايرة العلماء، فلا يقوم علمكم
عند الله بجهلكم، (أى لا يزكو عند الله إذا تكبرتم به)

فإذا تكبر العالم بعمله حصر من دونه في العلم، واراداه وقصاه، وأبعده
واستدله، وانتهره واستخدمه، وامتن عليه بما يعلمه، وتعظم على العوام،
وانقبض عنهم ليبدؤه بالسلام، وينسخرهم ويفصب عليهم إن استخف
بشيء من حقه

وإن حاج أو ناظر أحداً منهم رد الحق على علمه وإن وعظ عفا، وإن
وعظ عفا تعزراً.

ولا يرد على ذلك بأن العلم يزيد العبد تواضعاً فالمعاسي يرى في
العلم ما يراه وهب، من أنه كالغيت يزل من لسانه حلولاً صامياً، فتشربه
الآشجار بعروقها، فتحويه على قدر طعومها، فمراد المرة مرارة، وتزداد
الحلوة حلوة ويكثر ماؤها بالحلاوة ويكثر ماء المرة بالمرارة. فكذلك العلم،
تحمظه الرحال فتحوله على قدر همها وأهوائها.

كذلك يكون الكبر عن العمل، فيصل بالعبد إلى أن يحقر من دونه ممن

لا يعمل مثل عمله. سواء أكان أعلم منه أو أجهل منه.

ويأتى إن وعظوه لأنه فوقهم فى العمل، وهم مضيعون مفرطون، فإن بدأ أحداً منهم بالسلام، أو أجابه إلى دعوته أو أسس به رأى أنه قد صنع إليهم معروفًا، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم، ويرى أنهم هالكون، كأنه قد آماه من الله عز وجل الأمان بأنه لا يعذبه.

وقد ذكر رجل للسبي عليه السلام وحدثت فيه تقواه، بقية النبي عليه السلام يومًا فقال عنه.

«إني أرى في وجهه شعة^(١) من الشيطان»

ثم قال له.

أسألك يا الله. حدثتك نفسك أنه ليس في القوم أفضل منك؟

فأجاب: «اللهم نعم».

وقد يكون الكبر عن الرياء، وصاحبه يرد الحق على من ناظره أو أمره، أنفاً أن يخطيء فتتضع منزلته، أو يقال: فلان علب فلان، وإن كان يعلم في قلبه أن الذى ناظره أو أمره خير منه، ولكن يظهر الأنفة والتعزز رياءً لا كبراً من قلبه».

من الكبر الكبر لذى يخرج إليه الحق:

أما فيما يختص بالكبر بالدنيا، فيحدثنا المحاسبي في شأنه بمثل ما حدثنا به في شأن العجب بالدنيا، وفصل من أسبابه ما عرصنا له في فصلنا عن

العجب أى . الحسب والقوة، والمال وكثرة العدد، ولا ترى داعيً لكر .
نفس الحديث هنا.



وينهى العبد الكبر بمعرفته بقدره في الدين والدنيا؛ ويعرف قدره بمعرفته
ببدايته وحياته وعاقبته

أما بدايته فقد مضت الدهور ولم يكن فيها شيئاً مذكوراً، وأوحده الله
عز وجل بعد لعدم إذا لم يكن شيئاً مذكوراً، فأرجده الله عز وجل ميئاً
وبدأه بموته قبل حياته، لأنه خلقه من تراب، هدأه بموته قبل حياته،
وبصعفة قبل قوته وبجهده قبل علمه، وبعماء قبل بصره، وبصممه قبل
سمعه، وببكمه قبل نطقه وبحجوعه قبل شيعه، ويعريه قبل ستره، وبصلالته
قبل هداه، وبفقره قبل غناه.

فالأحوال الأولى ابتدأه بما يعرفه بها نفسه، بشهد عليها بالدله
والضعف، والقلة والحاجة والمسكنة، يعرف بذلك صغر قدره، ولردعه
معرفة ذلك عن الكبر

والنعمه لثانيه عليه من الله عز وجل سابغة إذ عرف بها ربه الذي نفعه
من الأحوال الدنية المنومة إلى الأحوال الرفيعه، فيحصى ويذل لمولاه
شكراً.

فمن كان يدور هذا الدور، وأحواله هذه الأحوال، فإنه عن الكبر
بمعزل. كما قال لقمان لابنه.

يا بني ما للتراي وبلكبر؟ وصدق رحمه الله.

كيف يشكر الإنسان وهو أقدر لمخلوقات: الأقدار تسرع إليه، إن

تعاون بنفسه أن يغسلها أو ينظفها صار أثنى من الدواب، ووكنت به
الأمراض.

وهو مع ذلك عبد ذليل أمره إلى غيره. يحوج كرهاً مفهوراً، ويعيش
كرهاً مفهوراً، ويقلبه اليوم كرهاً مفهوراً

يريد من نفسه مالا يقدره، يريد أن لا يجوع ولا يعطش ولا يظما
ولا يمرض، فيزل به من ذلك حلاف مراده. ويريد أن يذكر الشيء
فينساه، ويريد أن ينسى الشيء فيذكر؛ ثم هو مع ذلك لا يأمن أن يكون
تلقه فيما يريد ويحب، ولعله يكون مله في سببه أو نومه فلا يقوم منه، عبد
مملوك ذليل، يقلبه غيره، ولا يأمن في ليله ونهاره أن يسلب سمعه وبصره
وجميع حوارجه وعقله، أو بعض ذلك.

وقد رأى الله عز وجل فعل ذلك بكثير من خلقه، ثم هو مع ذلك
لا يضر بقلبه، ولا يحرك حرجه من حوارجه، ولا يكتسب ولا ينفق،
ولا يأكل ولا يشرب إلا وعليه من يخصى ذلك كله عليه حتى يحاسب به
وينظر فيه، ثم هو مع ذلك لا يأمن أن يسب ملكه، فعليه في ملكه مالك،
وليس هو لنفسه مالك، ولا على ما أراد فيها بقادر، وهو مع ذلك يخالف
لمالك ومولاه.

قد استوجب بذلك من العذاب ما إن لم يعف عنه كانت الخنازير
والكلاب خيراً منه وأفضل

فإذا تذكر العبد وتفكر زال عنه لكره الخسوع والذلة والنواضع
لعمولى عز وجل.

ولو خلق الإنسان من خير الأشياء، وساعدته الأقدار فلم يسقم ولم
يمرض ولم يعتوره قدر في جسمه، ولا فاقة نارلة به، ولا يحل به الموت.

ولا عذاب عليه في الآخرة، ما كان الكبر مع هذه التراخي والطهارة يصلح للعبد ولا يليق، لأنه عبد مملوك، عدل العبودية صد الكبر.

فإذا عرف العبد قدره في الدين والدنيا بعرفته ببدايته وحياته وعاقبته، فلا بد وأنه تارك للكبر ونائب إلى الله منه.

وإذا أراد العبد أن يعرف إن كان قد وى حقيقته بعزمه على ترك الكبر، وأن يسير مدى إحلاص نفسه في ذلك، فعليه بمقدتها، أي نفسه، عند الداعي، من القلب إلى الكبر، وعند الأعمال التي يأنف منها المتكبرون.

فأما الداعي من القلب إلى الكبر، فمثل الخطرة تهيج بالإعجاب بالنفس، تدعو العبد إلى أنه خير من أخيه المسلم.

وأما اختبار النفس عند الأعمال التي يأنف منها المتكبرون، فيقدم المحاسبي لمثل عليه بما يروى:

أن عبد الله بن سلام حمل حرمة من خطب، فنبذ له: يا أبا يوسف قد كان في غمائنك وبتيك ما يكفونك؟

قال: أجل ولكني أردت أن أجرب نفسي هل تذكر ذلك، فلم يقع منها بما أعطته من العزم على ترك الأثرة حتى يحرقها، أصدق في ذلك أم هي كاذبة؟

الغرة

قد يرى القارئ أننا أطننا في هذا الفصل الخاص بالغرة، ولكن أهميته نرجع إلى عرص المحاسبي لكل ما لاحظ من صور الغرة في البنية الدسيسة التي مارسها، وهو يتحدث هنا عن الفقهاء والمتكلمين والمتصوفين على حد سواء، ونريد أن نلمت نظر القارئ بصفة خاصة إلى العفريات التي تتعلق بالمفاهيم الصوفية، كالتوكل والرهو وغيرها.

فالمحاسبي يرى الغرة حينما تخرج النظريات الصوفية فيها عن نطاق الستن الإسلامية.



يرى المحاسبي أن العره عرتان، عره بالدنيا عن الآخرة، وغرة بالله عز وجل وبالآخرة.

وأولاهما تنبى على: إشار الدنيا والاشغال بها عن الآخرة، وقد قال تعالى فيها

﴿وَمَا الْحَيَاءُ الدُّسَا إِلَّا مَنَاعُ الْعُرُورِ﴾^(١).

غير أن الغرة التي تثير اهتمام المحاسبي بوجه خاص فيطيل الحديث فيها.

وبفصله هي الغرة بالله، ويجدها لدى الكافرين والمؤمنين على حد سواء.

(١) آية ١٨٥ من سورة آل عمران

أما ما اغتر به الكافرون عن الله عز وجل، فهو ما رأوا من فعل الله عز وجل من إكرامه لهم بالدنيا ورفعتهاء وسعتهاء، فظنوا بذلك أن ذلك لم يكن من الله عز وجل إلا لمرلتهم عسده، وأنهم أحق بالخير من غيرهم. ثم هم بعد ذلك على وجهين:

فرقة منهم شكاك في الآخرة، يقولون في أنفسهم وبألسنتهم: إن يكن لله عز وجل معاد فمنحن أحق به من غيرنا، ولك فيه النصيب الأوفر، اعترزاً بما ظهر لهم من خير الدنيا وكرامتها.

وكذلك وصف الله عز وجل لنا قول العاصي بن وائل إذ يقول:

﴿لَاؤَتَيْنِ مَالًا وَلَدًا﴾. فقال عز وجل
﴿أَطِيعِ الْغَيْبِ أَمْ اخْتَدِ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾^(١).

وقال الله عز وجل:

﴿وَبَيْنَ أَذْقَمَاءَ رَحْمَةً مِنِّي مِنْ بَعْدِ صِرَاطٍ مَسْتَه لَيَقُولُنَّ هَذَا لِي، وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً، وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحَسَنَى﴾^(٢).

ويعتزون أيضاً بما مضى لهم الله عز وجل بنعم الدنيا على غيرهم، فيرون أن ما خص الله عز وجل به أهل الإيمان أنه لو كان عند الله هدى ما وفقوا لضعفاء له وتركهم، فيغترون ويحاسبون الهدى: إن لو كان هذا هدى لكنا نحن أحق أن نؤتاه ممن هو دوننا.

ويعتري لكافرون بنعم الله عز وجل في الدنيا فلا يرون أن الله عز وجل أخذهم بعقوبة في الدنيا، وأنه إنما أعطاهم ما أعطاهم من الدنيا لما علم

(١) مريم آية ٧٧، ٧٨

(٢) فصلت آية ٥٠

مهم من الخير، وأنهم عنده بالمرلة العظيم، قال الله عز وجل، [في المآثر
بعم الدنيا]:

﴿وَلَمْ يَتْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ بِتَّة قُوَّةً
وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾^(١).

والفرقة الأخرى من الكفار يفترون بما ربي لهم من سوء أعماهم،
بعبادات يعمدون بها غير الله عز وجل يحسبون أنهم يحسنون صنعا
فالهر من الكافرين خدعة من النفس، بالظن أن له عند الله عز وجل
قدرا لأكرمه به من الدنيا، أو عمل ضلال بحسبه هدى.
وأما الغرة عند المسلمين، فهي بطبيعة الحال، مجال بحث المحاسبي
المفضل.

وهو يفرد بابا للغرة من عوام المسلمين وعصائهم، نذكر منه النص
التالي:

«وأما الغرة من عوم المسلمين وعصائهم، فهي خدعة من النفس
والعدو. يذكرون الرعاء والحدود والكرم، يظنون بذلك أنفسهم، فيزددون
بذلك جرأة على الذنوب، فيقيمون على معاصي الله عز وجل، يظنون أن
ذلك رجاء منهم، كما قال وهيب بن منبه لابي:

«يا بني إياك والغرة بالله عز وجل، فإن لغرة بالله عز وجل، المقام على
معصيته وتكفي مغفرته.

فالغرة من الموحد خدعة من نفسه بمعنى المغفرة مع المقام على المعصية،
وذلك الرجاء الكاذب، يظنه منه رجاء صادقا

وأما الرجاء الصادق لله عز وجل، فهو في معنيين:
أحدهما: حسن الظن بالله عز وجل، حيث وضعه الله عز وجل، لأن
رجاء المذنبين من عباده أن لا يقطعوا، وأن يتوبوا إلى ربهم من ذنوبهم
قال تعالى:

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾^(١).

وقال، ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ: سَلَامٌ عَلَيْكُمْ. كَتَبَ
رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُم سُوءًا بِغَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن
بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ مَا هُوَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(٢).

فرحنا الله العبد المغفرة على التقوى، وإن عظمت ذنوبه وكثرت، أن
لا يمنعه كثرة ذنوبه وعظمتها أن يتوب إلى ربه عز وجل، ولا يخاف خوفاً
يقنط معه، فبقيم على المعصية خوفاً أن لا يقبل له توبة.

فرحنا الله عز وجل العاصي من عباده المغفرة على التوبة، ألا يقطعوا
من أجل ذنوبهم.

فهذا أحد المعنيين:

ولكن الله عز وجل لم يقصر فضله على أن يرجو العبد مغفرته إذا تاب
وعمل صالحاً، بل رجا الجنات والمنازل العالية والقربة منه عز وجل هي
درجات العاملين له من عباده، وذلك هو الوجه الثاني للرجاء الصادق.
قال تعالى

﴿وَإِنَّمَا تُوفُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ لِقَاءِ﴾^(٣)

(١) آل عمران آية: ١٨٥

(٢) طه آية: ٨٢

(٣) الأنعام آية: ٥١

وبهذه الآية وغيرها أحبر الله عز وجل: أن الجزاء والثواب أجور العمال على الأعمال، ليرحوا ذلك الجزاء فيعملوا تلك الأعمال رجاء أن ينالوا ذلك الثوب، ثم أحبر أنهم الراحون دون المقتربين.

وقيل للحسن: إن قومًا يقولون: ربحوا الله عز وجل ويضيعون العمل؟ فقال: هيهات هيهات، تلك أمانيتهم يترجحون فيها، من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف شيئاً هرب منه.

ويفرق المحاسبي بين الرجاء والغرة فيقول:

«الرجاء هو ما هاج من الطمع والأمل في الله عز وجل، فسحبا نفس العاصي بالتوبة، وحال بينه وبين القسوط، وبعث العبد على الطاعة لله عز وجل والتشمير والاحتهاد رجاء ما وعد العاملين، وغرة خدعه من النفس والعدو بذكر الرجاء بالتوحيد، أو بالآباء الصالحين أو بعمل قليل ضعيف، فتطيب نفسه بتلك الخدعة حتى تهوى عليه ذنوبه لظنه أنها مغفورة وذلك موجود في فطر العباد في دنياهم أنهم إذا صنعوا العمل عدلوا أنفسهم وعدوه منهم تزييطاً، فإن قعدوا عن الأعمال وهم يظنون أنهم يعطون الآخر عدلوا ذلك من أنفسهم حقاً وغرة»

ثم هو يضرب امثال هذا الفرق بين لرجاء والغرة بعد قال له مولاه
إذ عملت كذا وكذا محكماً تأماً أعطيتك ألف دينار، وإن أفسدته م
أعطتك شيئاً وضربتك ألف سوط.

فترك إحكامه لمدة شعنته، وأفسده على عهد للذة أثرها لا يتألف
لا يفساد ذلك العمل.

وهو مع ذلك طيب النفس، يطيبها ويرجيها ألف دينار، غير خائف
لما توعد به من ضرب ألف سوط.

لَمْ يَكْ مَغْرُورًا قَدْ غَرَّتْهُ نَفْسُهُ فَوَضَعَ الرِّجَاءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ؟
فَكَذَلِكَ الْمُعْتَرِ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ: أَقَامَ عَلَى مَا أَوْجِبَ عَلَيْهِ حَرَمَانِ جَوَارِهِ
وَالْحُلُولِ فِي عَذَابِهِ، طَيِّبَ النَّفْسِ، رَاجِيًا لِلثَّوَابِ، غَيْرَ خَائِفٍ مِنَ الْعَذَابِ.
أَفَلَيْسَ هَذَا مَغْتَرًا مَخَاطَرًا بِنَفْسِهِ؟ وَإِنْ كَانَ مَوْلَاهُ عَظِيمُ الْعَفْوِ قَدْ يَفْعَلُ ذَلِكَ
لَهُ وَقَدْ لَا يَفْعَلُ! أَلَمْ يَكْ قَدْ اعْتَرَى وَخَاطَرَ بِنَفْسِهِ وَعَرَّتْهُ نَفْسُهُ وَخَدَعَتْهُ؟ لِأَنَّ
الْعِقَابَ فِي الْحُكْمِ عَلَيْهِ يَقِينٌ لَا شَكَّ فِيهِ، وَالرِّجَاءَ لِلْمَغْفِرَةِ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ مَعَ
الِإِصْرَارِ شَكٌّ لَا يَقِينُ فِيهِ.

لَأنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ الرِّجَاءَ مَرِيئًا لِلْفِتْنَةِ الَّتِي يَمْنَعُ مِنَ لُؤْيِهِ
وَالْعَمَلِ، بِاعْتِنَاءٍ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْقُرْبَةِ مِنْهُ.

وَيُؤَكِّدُ الْمُحَاسِبِيُّ هَذَا الْأَثَرَ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ لِلرِّجَاءِ فَيُعِيدُ ذِكْرَهُ مَرَارًا
وَيُؤَيِّدُ بِأَسَالِيبَ شَتَّى؛ وَيُرْوَى الْحَدِيثُ اتَّأَلَى لِلنَّبِيِّ ﷺ: (يَأْتِي عَلَى النَّاسِ
زَمَانٌ يَخْلُقُ (أَيَّ يَبْلِي) فِيهِ الْقُرْآنُ فِي قُلُوبِ الرِّجَالِ كَمَا تَخْلُقُ الثِّيَابُ عَلَى
الْأَيْدِي، يَكُونُ أَمْرُهُمْ كُلُّهُ طَمَعًا لَا خَوْفَ مَعَهُ؛ إِنْ أَحْسَنَ أَحَدُهُمْ قَالَ
تَتَقَبَّلُ مِنِّي؛ وَإِنْ أَسَاءَ قَالَ: يَتَفَرَّقُ لِي).

وَيَعْلُقُ الْمُحَاسِبِيُّ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ وَغَيْرِهِ بِأَنَّ عَلَيْهِ ذَلِكَ رِوَايَ الْخَوْفِ
عَنْهُمْ فَلَمْ يَخَافُوا عَقُوبَةَ عَلَى ذُنُوبِهِمْ، وَلَمْ يَشْفَعُوا عَلَى إِحْسَانِهِمْ فَيَحْذَرُوا عَلَى
أَعْمَالِهِمْ، لَتَخْلَصَ بِالْقَبُولِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ.

وَبَعْدَ عَرْضِهِ بِلَفْظَةٍ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ عَدَمَةُ وَالتَّفَرُّقِ بَيْنَ الْفِرَةِ وَالرِّجَاءِ يَتَنَاوَلُ
بِالتَّحْلِيلِ مَخْتَلَفَ أَنْوَاعِ الْمَغْتَرِّينَ مِنَ النَّاسِ -

فَهُنَاكَ الْمَغْتَرُّ بِالْعِلْمِ.

وَالْمَغْتَرُّ بِالْعِبَادَةِ أَوْ الْعَمَلِ.

وَالْمَغْتَرُّ بِالْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ الصَّالِحِينَ.

نأما هؤلاء الذين يغترون بالعلم فأقوام شتى:

فمنهم من فرقه تغتر بكثرة الرواية وحسن الحفظ مع تضييع واجب حق الله عز وجل. وتخيّل نفس أحدهم إليه وعدوه أن مثله لا يعذب، لأنه من العلماء وأئمة العباد الحافظين على المسلمين علمهم، ويعمى عليه أكثر ذنوبه فلا يرى أن مثله فيبلغ من لعن يرائي، ويعجب بنفسه أو يتكبر أو يحسد، وإنما يفعل ذلك الجهال الذين لا يعرفون العلم ولا يحفظونه، فيقل خوفه وحذره من عذاب الله عز وجل، ويغفل انتفقد لنفسه، إذ كان يرى أن مثله لا يعمل بالأخلاق الدنيئة، لأنه قد اربح بالعلم عن ذلك، فلا يتهم نفسه؛ فإذا لم يتهمها لم يتفقد من نفسه الأخلاق المدمومة عند الله عز وجل، ولم يحذرهما؛ فيضمر ما يكره الله عز وجل، وهو يرى أنه يرى من جميع ذلك.

وقد يعلم بعض هذه الفرقة بكثير من ذنوبه، فلا يفرعه ذلك ولا يرهب من الله عز وجل من أجله، يرى أنه قد قام مقامًا من العلم لا يعذب مثله. وإنما ينهى العالم من هؤلاء هذه الفرقة بمعرفة أن العلم حجه عليه، وأن الله عز وجل جملة ما أعظم به عليه حجته، وشدد عليه به في القيامة المسألة.

فلأن ضيع العمل فلم يقم بواجب الحق لله عز وجل، وبترك ما نهى عنه في ظاهره وباطنه كان عند الله عز وجل أعظم وأشدّ عذابًا من الجاهل؛ وإنما جعل الله عز وجل العلم وعلمه عباده ليعرفوا به ما أوجب عليهم وأحب فيهموهوا لله عز وجل بذلك، وليعرفوا ما حرم الله عز وجل فيجانبوه.

فمن ضيع أمر الله عز وجل بعد علم فهو جاهل بالله عز وجل، فلا علم بصغرت.

كما روى عن أبي المرداء:

.. ويل للذي لا يعلم مرة، ولو شاء الله لعلمه، ويل للعالم سبع مرات.
والفرقة الثانية: يفتر أحدهم بالفقه في العلم بالحلال والحرام، وبالبصر
بافتيا والقضاء، فهو يفتر كفرة الحفظ للعلم وأعظم غرة، حتى لا يرى أن
أحدًا أعلم بالله عز وجل منه، لأنه قد علم الحلال والحرام والفتيا والقضاء،
فهو القائم للأمة بدينها، ومغزعا إليها، ولولا مثل ضاع الدين وما عرف
حلال من حرام، واستصر أهل الرواية والحفظ، إذ لم يفقهوا الحلال
والحرام، ويعلموا الحكم والقضاء، فهو عند نفسه القائم بالدين دون غيره،
وأن الله عز وجل لا يعذب مثله وأنه لا يعتقد ما كره الله عز وجل، لأن
مثله لا يركن إلى ما كره الله عز وجل، ولا يطمع الشيطان في مثله، فيفتر
بدلك، فيقل حدره من الله عز وجل ورهيبته له.

ولا ينمى هذا الصنف من العلماء تلك الغرة إلا بمعرفة أن الفقه عن الله
عز وجل فيما عظم من نفسه، وأخبر به من جلاله وهيبته ونفاذ قدرته،
وما وعد من ثوابه وتواعد به من عقابه أعظم الفقه وأشرفه.

فإذا عرف العالم ذلك وقدره هاب الله عز وجل وأجله واستحياء، حتى
كأنه يشاهد الجنة والنار بقلبه.

فحينئذ يهاب الله عز وجل ويخافه، فيترك كل ما فقه فيه من حرامه،
ويرجو الله عز وجل ويشتاق إلى جواره.

ويأى المحاسبي ببعض الأدلة الأخرى على ما يراه من غره العالم
الحافظ والعالم بالفقه؛ ولا نرى مجالاً هنا لسردها مكتفين بالقدر السابق،
ولكننا نود أن نشير إلى أنه - في هذه الصفحات الخاصة بالفرقة من كتاب
«الرعاية» - يستخدم كلمة الحكمة بمعنى فيض النور الإلهي على الإنسان
في أمور الدين.

واصطلاح «الحكمة» بهذا المعنى يستخدمه غير المحاسبي مؤلفون آخرون بل إن المحاسبي يذكر في نفس هذه الصفحات حديثاً للحسن البصري ترد فيه الكلمة بالمعنى المذكور.

وتأتى بعد ذلك هرقة من العلماء، علمت العلم وعملت بمعنييه في حقوق الله عز وجل لئى تحقق لله عز وجل على عبادته: من حقه وحبه وخوفه ورجائه وحسن التوكل عليه والرضا بقدره، ومعافى ما ذم الله ونهى عنه من الأخلاق الدنية والمذمومة عنده فحسنت عباراتهم بذلك، ويصفون تعظيم الله عز وجل وحبه، والحياء منه وخوفه ورجاءه.

فلا يشك أحد منهم عند نفسه أنه لا يصف خلقاً مما يقرب إلى الله عز وجل إلا وهو قائم به، ولا خلقاً ذمه الله إلا وهو مجانب له، لأنه علم أنه لم يعبر بلسانه إلا عما في قلبه، فيظن أنه لم يعظم الله بلسانه إلا وهو معظم له بقلبه إذ كان إنما يؤدى لسانه عن قلبه.

وكذلك الحياء من الله عز وجل وجميع لأخلاق الكريمة، فلولا أن هذه الأخلاق ساكنة قلبه لازمة له معتقداً لها بالعمل بها ما عدوها ولا أحس أن يصفها، إذ كان وصفه بلسانه إنما هو ترجمة عما في قلبه وكذلك ما يصف من يضع حقوق الله عز وجل وما نهى عنه.

وإنما ذلك كنه لمعرفته بغير اعتقاد نية ولا عمل بصغير ولا جارحة، إلا بالشئ اليسير الذى لا يعرى أن يتأله عامة المسلمين.

ونلك هى معرفة اللسان من الكتاب والعلم، وحفظ كلام المتكلمين ممن عمل منهم بما يقول، فهو يصف الإخلاص لمعرفته بجملها، ويصف الخوف لمعرفته ما الخوف، لا أنه تكلف الخوف حتى حاف الله وحده ثم وصف الخوف بعد القيام به وكذلك جميع أخلاق الدين، ولكن يصف ما عرفه من

لعلم من محبة الله عروجل وما يكره، من غير تفقد منه لنفسه ولا قيام بما يجب في جميع ذلك.

ولكن، كيف للعالم أن يفي العرة، وما الدليل عنده أنه معتر؟ يقول المحاسبى:

إن الوصف للعلم عر لعمل به، فليل نفسه عند العمل بذلك، فإنه يبين له أنه معتر.

فمثل هذا العالم المعر يصف الزهد في الدنيا، حتى إذا أوتى منها شيئاً تشاغل به عن نفسه، وآثر به هواه ولدته.

وكذلك يصف الإخلاص، فإذا عرض العمل حاج الرياء واعتقد الإخلاص.

وكذلك الأمر في كل ما أحسن وصفه بلسانه فإذا افتقد عامة ما كان يصف من لأخلاق المحمودة المقربة إلى الله عروجل، عند موضع الحاجة إليها، وغلبت عليه الأخلاق لدمومة عند الحاجة منه إلى محاببتها، علم أنه كان معترًا بما كان يصف بلسانه.

وغرة هذا العالم إنما تنفي بتفقد النفس عند الأعمال. والمحاسبى يهتم إهتماماً واضحاً بأمره، ويقول في نهاية الفصل بدي خصصه له:

وإنما أطلت الوصف في هذه لمرقة لأشها عظيمة غرتها، قد غبت ذلك على كثير ممن يتعبد ويرى أنه من لشاك العاملين لله عز وجل.

ومن الفرق الأخرى من العلماء المعترين:

«فرقة حدلة خصمة، مغتره باجدال والرد على المختلفين من أهل الأهواء وأهل الأديان، يتأول في ذلك أنه لا يصح لعبد عمل حتى يصح

إيمانه، والقول بسنة نبي الله ﷺ، فليس عند أحدهم أحد يعرف ربه ولا يقول عليه الحق غيره، أو من كان مثله.

ثم هم فرقان:

فرقة ضالة مضلة: لا يظن لضلالتها، لا تساعها في الحجاج، ومعرفتها بدقائق مذاهب الكلام وحسن العبارة بالرد على من خالفها، فهم عند أنفسهم من القائلين على الله عز وجل بالحق، والرادين لكل ضلالة، لا أحد أعلم منهم بالله ولا أولى به منهم، وكل الأمم ضالة سواهم، وأن الله عز وجل لا يعذب مثلهم، بل لا ينحو أحد في رماهم غيرهم.

والفرقة الثانية: من المعترية بالحدل والبصر بالحجاج، تقول بالحق ولا تدين بغيره وقد اغترت بالعدل، ترى أنه لا يصح لها قول دور الفحص وانتظر وقيام الحجة على من خالفها، وقد اغترج ذلك حتى قطعت أعمارها بالاشتغال عن الله عز وجل، وعمى عليها أكثر ذنوبها وحطتها، إلا أن اعتقادها السمة دائم مع اغترارها.

أما الفرقة الضالة، فإنها تنفى ذلك بأن ترجع إلى نفسها، فتعلم أن من القرآن محكمًا ومتشابهًا، وكذلك من السنة، فلا يفضيحتشابه على محكم، ولكن يقصى بالمحكم على انتشابه، وأن الخطأ في التأويل لا يحصى، فتتهم نفسها، وتعلم أن الله عز وجل سائلها عما تدين به، وأن الجماعة قد مضت على الهدى وسنة نبيها ﷺ، ولا تخرج من إجماعها، وإن حسن ذلك في عقولها، فإن تبنت كما وصفت لك أبصرت ضلالتها، ولم تعتر بشدة حاجتها، إذ عنت أن غيرها ممن خالفها شديد الحجاج بصير بالعدل، وهو عندها ضال مضل.

فكذلك لا دأمن أن تكون عند الله عز وجل كذلك، وإن أبصرت الحدل والخصومات، فإن أهممت نفسها على الآراء والتأويل، وثبتت عند المتشابه

فغضب بالحق عليه، وتوقفت فيما لم يجعل لله لها النظر فيه ولم يخرج من إجماع ما مضى، زالت عنها غورها، وثابت إلى ربها من ضالتها.

وأما الفرقة المصيبة للدخول مع غرتها عن الله عز وجل بالخصومات والجدل عما هو أولى بها، فإنما نفى غورها بذلك بأن تعلم أن الله عز وجل تعبد من مضى بما تعبد بها به، وقد أدرك كثير منهم ناساً من أهل البدع والأهواء، فما جعل عمره ولا دينه غرضاً للخصومات، ولا شغل بذلك عن النظر لنفسه والعمل ليوم فقره.

وذهبوا الجدل والخصومات، ورؤوا ذلك عن سبهم ﷺ قال: «ما صل قوم قط إلا أتوا الجدل».

لأن النبي ﷺ نهى بسبته عن الجدل والخصومات، وغضب على أصحابه، حتى كأنما فقي في وجهه حب الرمان حمرة من الغضب، إذ خرج عليهم وهم يختصمون، وهم كانوا أولى الخلق بالفهم والبصر بالحجج، فقال: «أهكذا بعثت؟ أم بهذا أمرتم؟ أن تصروا كتاب الله عز وجل بعضه ببعض، انظروا إلى ما أمرتم به فاعملوا به، وما نهيتهم عنه فأنهوا عنه».

ثم هو في نفسه ﷺ قد بعث إلى جميع الأدبار، فما جادهم إلا بما نلا عليهم من التنزيل، ولو شاء كلمهم بالمعانييس ودقيق الكلام؛ ولو كان ذلك هدى كان هو أولى به، وعليه أقوى، فلم يغم الحجة إلا بالتنزيل، وأضرب عن حبلهم بالدقائق، وعدم أن ذلك لله عز وجل رضا ومحبة.

فترك الجدل والخصومات من السنة.

ويعود المحاسبي في هذا لمقام إلى الرأي لدى يسند إليه في كثير مما كتبه.

وهو، أن الإنسان لا بد مخطئ إن خرج عن حدود السنة الصحيحة

أما الذين يعبرون بالعبادة والعمل، فمهم مرقه تتكلف الرضا والرهه والتوكل والحب لله عز وجل على غير حيفة ولا معرفة بما هو أولى بها يتفلى أحدهم من اللباس والطعام زهداً في الدية، وبعضهم يخرج إلى الحج بعير زاد ويدع الكاسب، يؤم لتوكل بذلك.

وكل هذه المرقى مغتررة بالله عز وجل، تكلم بما يكره الله تعالى وهي لا تشعر، وترائى بما تعمل، وتتكرر وتعجب، وبأى كثير مما يكره الله عز وجل وهي لا تشعر، لم تعرف التقوى إلا بالاسم، العالب عليهم اتباع أهوائهم في طاعتهم وتقشعهم.

وقد يقل إن هذه الفرقة، أولى بالرحمة من الفرق التي وصفت قبلها، إذ كابت أهواءها، وحملت المكروه عن أبدانها.

ولكن لمحاسبي يرد على هذا بقوله «إن مجانبه أهوى مع لعمل البسير، أعظم وأشد على النفس من تحمل المكروه والشدائد في الأعمال الكثيرة، إذا كان معها أهوى.

وهذه الفرقة أسحى المعترين أنفساً بالأعمال، وأشدهم تحملاً للمكروه في ظهر الطاعات.

فالسى عرف به غرتها أن ترجع إلى أنفسها، بدعائها إلى العزم على طلب لمقوى ويعرف النفس أنها أصل الطاعات، ولا تزكو الأعمال إلا بها، حتى إذا عرفت ما هي في أسر والعلاية، امسحت أنفسها عند دواعيها إلى كل خير وشر في باطنها حتى تعلم هل ظهرت قلوبها، وهل ظهرت حورحها، وما الذى هو أولى بها أن يبدأ به في لوجوب من العروض عليها.

وعلى أهل هذه الفرقة أيضاً إن طيبوا نفس الغرة، أن يتبعوا في أعمالهم سنن الصحابة وأن يأتسوا بهم.

وليذكرو أن أحداً من السابقين في الإسلام لم يدع المؤمنين إلى ترك الكسب الحلال، أو لسفر بلا زاد، وأن الفضل في العمل وحمل الزاد مع ائيقين بأن الأرزاق إلى الله عز وجل، ولا رزق إلا الله عز وجل

وكذلك جميع الفرق من المتقشين عليها بتفقد أنفسهم، حتى تعرف غرتها، تخاف الله عز وجل بما هو أولى بها.

ومن الذين يفترون بالأعمال:

«فرقة لا ترى أنه يجب عليها من الورع في زمانها إلا الورع في المطعم والمببس، وتظن أنها إذا بلغت أصعب الدرجات من الورع وأعزها في زمانها، قد أحكمت التقوى وقامت به، فعسى ببعض الورع أكثر الورع عليها في قلوبها وجوارحها، ونسبى غرتها بأن تعلم أن الله عز وجل لم يرص منه بالحلال وحده. وأنه قد يعذب من طاب مطعمه إذا لم يخف الله عز وجل في غير ذلك.

وفرقة قد غلب عليها الاستيحاء من الناس والمخلوة، وهي مع ذلك تتصنع بفرارها، وتحب أن تشتهر به، وترتاح قلوبها بأن تتفكر في عظيم خلق الله عز وجل وواجب طاعته، وكثرة عدد ما يلزمها من مجابة ما كره ربه عز وجل، ونهى عنه في طاهرها وباطنها.

هل أحصت ذلك كله حتى لم تضعي لله عز وجل حقاً، ولم ترتكب شيئاً مما نهى الله عز وجل عنه؟

فإذا تفكر أحدهم في ذلك علم أنه لم يقم بحقوق الله عز وجل كلها في طول عمره ولم يسلم مما كرهه أو يأتيه بجارحة أو يقرب، وأن القليل من عمله الذي يغتر به تغتوره الآفات التي تفسده أو تحبطه.

فحقوق الله عز وجل عظيمة، والطاعة واجبة، والمعاصي في الظاهر

والباطر كثيرة التي لا يكاد يسلم منها، والقليل من عمله تعوره الآفات التي تخاطبه فتفسده.

هذا بالإضافة إلى كثرة الزلل والخطأ، وغلبة العفة والنسان وهناك أيضاً: فرقة اغترت بالغزو والحج وقيام الليل وصيام النهار. فقد حيل إلى أحدهم أنه من عمال الله عز وجل، واشتعل به، والذابين عن محاربه فقد عمى على أحدهم ذنبه، فهو غير مصحح لمطعمه وملبسه من الشبهات وغير ذلك، وجوارحه منتشرة عليه في أكثر عمره فيها يكره ربه عز وجل، وهو غير متفقد لنفسه لا يحيل إليه أنه ينبغي لمثله أن يتفقد نفسه وإن علم منها ببعض التفريط هان عليه لما عده من العبادة والعم والعز والحق، وهو مع ذلك غير متفقد للإخلاص فيما يعمل ولا عارف به دون تفقده.

وتنفى غرتها بتفقدتها أنفسها، حتى تعرف أنها كانت مشتعلة بالوافل عن واجب الحق والقيام بالفرض.

ونجد كذلك فرقة اغلبت منها تقديم العزم لله سبحانه بإخلاص العمل به في كل ما تعمل، والعزم على الرضا والتوكل وما أشبه ذلك، وترك الكبر والعجب وسوء الظن والكذب والعصب وإشفاء الغظ بما لا يحل، فلما سخت أنفسها بالعزم على ذلك وبحوه، عدت بنفسها من أهله ولقائمين لله عز وجل به معزمها على الإخلاص.

فإذا عرص العمل سهت وغفلت فراءت، وتنفى غرتها بمعرفتها أن العزم على العمل ليس بالعمل، وأن العزم على العمل أقل مؤنة على النفس من العمل، لأن العزم لا تعب فيه ولا مؤنة على النفس، ولا ترك لذة بعد مقدرة عليها، وأن النفس قد تعزم ثم يصعب لعمل كراهه تحمل لمؤنة

والتعب، وقد تعزم على ترك اللذة ثم تواقعها عند الطفر لأن المحتنة عند
المقدرة أشد على النفس، فليس للعبد أن يحكم لنفسه مثلاً بالحلم إلا عند
الغضب، أو بالإحلاص إلا عند العمل. وليس له أن يدعى الرضا إلا عند
الامتحان.

الحسد

«إن الحسد في الكتاب والسنة على وجهين، رهما موجودان في اللغة فأحدهما غير محرم، فبعضه فرض وبعضه فصل، وبعضه مباح وبعضه يجرى إلى انتقص والمحرم.

وأما الوجه الآخر فمحرم كله، ولا يجرى إلا إلى مالا يحل. والحسد الذي ليس محرم هو لمنافسة، والدليل على أن المنافسة حسد قول الله عز وجل:

﴿وَفِي ذَلِكَ قُبْحًا لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

وقول النبي ﷺ:

«لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله عز وجل مالا فسلطه علىهلكته في الحق، ورجل آتاه الله عز وجل علماً فهو يعمل به ويعلمه الناس». ونجد في حديثه ﷺ شرحاً لهذا المبدأ وتفسيراً إذ يقول:

مثل هذه الأمة مثل أربعة:

رجل آتاه الله مالا ولم يؤته علماً، ورجل آتاه الله عز وجل علماً ولم يؤته مالا.

فيقول رب العلم: لو أن لي مثل مال فلان، كنت أعمل فيه بمثل عمله، فهما في الأجر سواء.

(١) انظر آية: ٢٦

ويقول رب المال، لو أن لي مثل علم فلان، كنت أعمل فيه من عمله».

فذلك هو الحسد لدى هو منافسة، أحب أن يلحق به ونعمه أن يكون دونه، لم يحب له شرًا.

ويمكن أن نقول عنه: هو أن الحسد يرى بغيره نعمة في دس أو دنس، فيغتم ألا يكون أنعم الله عليه بثل تلك النعمة، فيحب أن يلحق به ويكون مثله، لا يغم من أحسن المتعم عليه نقاسة منه عليه، ولكن عما ألا يكون مثله.

ويصبح الحسد فرضًا واجبًا إن كان منافسة من العبد لمن يفصله في إتيان بالفروض واحتساب ما نهى الله عنه.

لأنه إن لم يعم ويحرم بمخلقه عمن قام بفرض الله عز وجل عليه واجتنب ما نهى عنه، ولم يحب أن يكون مثله كان عاصيًا مقيماً على تضييع الفرائض وركوب المحارم.

والحسد فضل وتطوع إن كان منافسة في التقرب من الله تعالى بالفضل والتطوع.

والحسد مباح إن كان ما رأى العبد بغيره من النعم يتعلق بلذات الدنيا الحلال.

فاغتم أن لا يكون له مثله وأحب أن يلحقه به إلا أن يجرح إلى السخط على الله عز وجل.

غير أن هذه المثرة من الحسد تعتبر نقص من الفضل ومن الزهد.

أما إن رأى العبد غيره يتجرع اللذات الحرام، وينفق المال فيما لا محل

له فاعثم أن لا يكون مثله، وأحب أن يكون مثله فذلك لا يجوز، بل هو ارتكاب للذنوب، لأنه تمى لنفسه المحرام

والحسد هنا من قبيل المنافسة في المحرام، وإن لم يكن حسد غش وحب للنشر وكرهه الخير للغير؛ وفي ذلك يقول للسي (رضي الله عنه).

«ورحل إياه الله مالا فهو يبعثه في معاصي الله عز وجل، ورجل لم يؤته الله عز وجل مالا فيقول لو أن لي مثل مال فلان كنت أعمل فيه مثل عمله، فهذا في الوزر سوء».

وفي لوجوه السابقة التي يذكرها المحاسبي من معاني الحسد نجد أن شعور العبد لا يتعدى كراهة التقصير عن مرتبة غيره وحببه المساواة والحق به مع ترك التعمي أن يزول عن من ناهض حاله التي هو عليها». ويجب المحاسبي على سؤال عن هذا الحسد الذي هو مناهضة من يكون؟ فيقول:

ما كان في الدين من حب طاعة الله عز وجل والعزم على القيام بها لو أعطى أسبابها التي بها تنال، وما كان من دنيا فمن حبه الدنيا وحب سعتها والمعم بها.

وأما المعنى الذي للحسد، فهو الحسد المحرم كله، قد دمه الله عز وجل في كتابه وارسول (ﷺ) في سنته واجمع عباده الأمة عنه.

وهو كرهه اسعم أن تكون بالعبد، وحبية رواها، وذلك أن يكون العبد إذا رأى بعيد مسلم نعمة في دين أو دنيا أو بلاءة أنها به كرهها ومباده، وأحب زولها عنه.

ويكون الحسد في هذا المقام، من الكبر والعجب والحقد والعدوة

والبغضاء ولرياء وحب المنة والرياسة أن يعلوه غيره وشح النفس بالخير مما يجده العبد على قلبه إذا رأى النعم بعينه.

أما ما كان من لكبر فإنه يأف أن يعلوه من كان دونه أو يساويه أو يعلوه من هو مثله في دين أو دنيا

فإذا أئف منه واددراه ورثه ذلك الحسد له، فأحب أن تزول عنه نعمة أنه عر وحل لتلا يصير إلى المنزلة التي يعلوه بها أو يساويه

ويحمله الحسد له أن يرد لحق حسداً أن يعلوه به فيرفعه عنه.

وكذلك الأمر في الحسد الذي يكون على الرياسة وحب المنزلة عند الناس فإنه يورث رد الحق وتركه على علم

وأما ما كان من الحسد عن الحمد والعدواة والبغضاء، فهو أشد الحسد وذلك ما وصفه الله عز وجل عن الكفارة وعداوتهم وبعضهم للمؤمنين فقال:

﴿زَيْدًا لَقُوكُمْ قَاتِلُوا أَمَّا إِذَا خَنُوا عَصُوا عَلَيْكُمْ الْأَنْبِيَاءُ مِنَ الْأَعْيُنِ، قُلْ: مُؤْمِنُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ، إِنْ تَسْسِكُمْ حَسَنَةً تَنْسُوهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾^(١)

وقد يكون عن الحسد الذي عن لعدوة والبغضاء: القتل وأخذ المال، والسعاية بمن يحسده وهتك ستره، وغير ذلك، فالبغض حسده أعظم الحسد وأشدّه.

وأكثر أنواع الحسد انتشاراً بين الناس هو ذلك الذي ينشأ عن حب ظاهر لدنيا، كالإخوة يتحاسدون، أو أخ يحاسد الأخ عند أبيهما أو أمهما أو

(١) آل عمران آية: ١١٩، ١٢٠

قرايتها، وكان هذا حال يوسف وإخوته، وكذلك لتجار وغيرهم
سحاسدون على مال الدنيا، وكل يحب أن ترول النعم عن غيره.

وكثيراً ما يشأ الحسد بين الناس الذين يقومون بنفس العمل : كالعالم
بحسد العالم ولا يكاد يحسد غيره، وأهل التحارث يسرع الحسد من أهل
كل تجارة إلى من شاركهم فيها.. أو بين الناس الذين يعيشون نفس
الظروف : فمن دنا من العبد في القرابة أسرع إليه بالحسد ممن تباعد عنه،
والقرب والجوار يورث الحسد بين المتقاربين والجيران

كذلك يكون الحسد في الأشكال والأمثال : في السب أو في القدر أو في
الغنى أو في التجارة أو في الصناعة أو في الولاية

وأما شح النفس وقلة سخائها بالخير للعباد فذلك شر الحاسدين،
لا يحسد لمعنى عداوة ولا غيرها أكثر من أنه لا تسخو نفسه للعباد بما من
الله عز وجل عليهم، غما يحده على قلبه أن رأى بغيره نعمة لغير عداوة
يعرفها ولا غير ذلك، أكثر من شح نفسه بالخير لهم نقاسة منه أن يصل
إليهم الخير.

ويسأل المحاسبي عن الوسائل الكفيلة بنفى الحسد المحرم الذي يكره
صاحبه ما يرى من النعم بغيره ويحب رواها عنه، فيجيب سائله

يسير من الأمر : أن تعلم أنك قد غششت من تحسده من المسلمين
وبركت نصيبته، وشاركت أعداءه - إبليس والكفار - في محبتهم للمؤمنين
زول انعم عنهم وكراهة ما أنعم عليهم به، وأنت قد سخطت قضاء الله عز
وجل الذي قسم لعباده.

فإد علمت ما قد دخل عليك من هذا لضرر العظيم بغير منفعة في دين

ولا دينا، صرفك ذلك عن الحسد، إن كنت مؤمناً بالله عز وجل، خائفاً على نفسك من غضبه وعقابه، فلم تتعرض لوجوب غضبه عليك من غير احرار منعهم في دين أو دنيا صارت إليك، ولا هي إليك صائرة لو زالت النعمة عن من تحسده، لأنها إن زالت عنه لم تنصر إليك.

وأبسر من ذلك كله لو كان الذي تحسده أيقض الناس إليك وأشدهم عداوة لك أنه لا تزول النعمة عنه بحسده له، لأن الله عز وجل لو أطاع الحاسدين في المحسودين لما بقي عليهم نعمة.

ولو فعل بالمحسودين ما يحب الحاسدون لهم، لما بقي على النبيين صلوات الله عليهم أجمعين نعمة، ولأفقر الأغنياء لحسدهم لهم، ولأضل المؤمنين لحسد الكافرين لهم.

ولو كان يضر المحسود حسد الحاسد به فيزيل عنه بحسده النعم، لدخل عليك أعظم الضرر، لأنك لا تدري أن يحسدك غيرك، فلو كان الحسد يضر لما بقيت عليك نعمة.

فإن أردت أن لا بطيع ربك عز وجل فيك الحاسدين فأب أهل ألا تحسد عباده، اتباعاً لحبته، وشكراً له على ذلك

ويصرب المحاسبي مثلاً برجل أراد أن يرمى عدواً له بحجر، فلما رماه له رجع الحجر على غيره الرامي فأصابها.

وأعاد الرمي فرجع الحجر أيضاً على عوته فأصابها حتى فعل ذلك مراراً.

فهم يك هذا أيداً يرمى عدوه، وقد علم وتبين له أنه لا يصيب عدوه وإنما يصيب نفسه.

فكذلك الحاسد قد كان في نعمة قبل أن يحسد من حسده، وهي نعمة السلامة من الحسد فلما حسد وأحب زوال النعمة عنه، رالت عن الحاسد لنعمة لتي كانت عليه، وهي نعمة السلامة من الحسد.

فأنت معصوم وهو مسرور، فعدت نفسك بمعيم غيرك بغير منفعة دخلت عليك فأبرلت بنفسك لغم غيرك، وأنت وتعرضت للعصوبة

فهل من فرق بين الحاسد وبين الرامي الذي يرجع إليه مرمه فيصيبه؟
إن الحاسد أعظم بلاء وضرراً، فهو رجح الحجر على عسك بدل لأنم كان خيراً لك لأن عينك ذاهبة بالموت.

وإثم الحسد لا يبلى ولا يفنى حتى يوقفك الله عر وجل عليه ويسألك عنه



ولا يطلب المحاسبي من لعبد أن يكون طبعه طبع الملائكة، فيسكت تماماً دواعي الحسد في النفس، ويقول:

إنك لا تقدر أن تسكت عدوك إبليس ولا بغير طبعك.

ولم تكلف ذلك أن تجعل طبع نفسك هيئة لا يفعل ولا يسهو ولا يتأزعج إلى محبوب ولا مكروه.

ولكنه يطلب منه أن يعمل على ترك الحسد إذا رآه نفاذ إلى قلبه، وأن يكون كارهاً له على الدوام.

أما إذا لم يستطع التخلص منه كليه فعليه ببذل الجهد حتى يكون من قبل عقله

كرها لما يثارعه إياه طبعه، وحتى لا يخرج به الحسد إلى العمل أو
القول، وأن يجاهد نفسه ليكنمه في أعماق ضميره.

وسأل المحاسبي.

فإن ساءني ما رأيت من النعم وعمت زواها، فينزل به من البلاء
ما يزيلها عنه كالغنى يرول عنه وينزل به الفقر

ثم ندمت على ذلك، أياكون للمحسود عدى مظلمة يجب التحلل منها؟
فيجيب بقوله:

أما ما كان من عمل القلب ولم تستعمل به جوارحك فذلك ذنب بيبك
وبين الله عز وجل.

فإذا خرجت إلى عيبة؛ أو تكذب عليه أو تغتاله بفائقة تحرمه بها مفعة
فعليك الاستحلال من ذلك، وما أشبهه

وأما ما لم يعد القلب فهو ذنب عظيم، ولرب شيء لا قصاص فيه أعظم
من كثير مما فيه القصاص.

السلوك اليومي

يحدثنا المحاسبى فى مواضع مختلفة من مؤلفاته عن السلوك اليومى الذى ينبغى على المؤمن اتباعه، كما يحدثنا عن الأعمال التى يجب عليه القيام بها، أو تلك التى يجب تجنبها أو الحذر منها

وأرد أن يوحز ويبلور كل هذا مع المهج العملى المناسب له، فأفرد فصلاً خاصاً - فى نهاية كتاب الرعاية به «تأديب المريد وسيرته وتحذيره الفتنة بعد هدايته».

ويود أن يسرعى انتباه القارئ إلى الأهمية القصوى التى يلعبها المحاسبى على «النية» فى سلوك المؤمن اسومى.

يقول المحاسبى: إنه يجب على المؤمن الحذر من اموت فى كل لحظة.

قال تعالى ﴿لِلّٰهِ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا، وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾^(١).
ولذلك كان الرسول ﷺ، إذا نام قال حين يضطجع:

«الهم إن أمسكت نفسى فاغفر لى وارحمها. وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين».

خائفاً أن يموت فى سامة، يدعو بالمعصرة إن قضى موته فى سامة، وبالحفظ والتوفيق إن استيقظ حياً.

(١) الزمر آية ٤٢

وكان بعض العلماء إذا أراد أن ينام قال لأهله:

«السلام عليكم يا أهلاء» فودعهم خوفاً أن لا يستيقظ.

فحق على المريد الخائف من الله عز وجل، أن لا يأمن بعمه لموت على كل حال، وفي منامه حين ينام

لذلك وجب عليه قبل النوم أن يعطى لله سبحانه: المدم على ما كان منه، والعزم على التوبة، وأنه إن أصبح حياً احتسب كل ما يكره الله عز وجل، وأدى ما وجب عليه، ورد ما أمكنه من المطالم إلى أهلها من مال أو استحلال في عرض.

فمن مات في منامه لقي الله عز وجل معفوراً به ذنوبه إن شاء الله. وإن أصبح حياً كان عازماً على التوبة مهيئاً له على الحياء من الله عز وجل ويتابع المحاسبى وصيته للمريد فيقول:

فكلما أصبحت حمدت الله عز وجل إذ أبقاك ولم يتوفك في منامك، كما كان النبي ﷺ يقول إذا استيقظ من منامه

«الحمد لله الذي أحياى بعدما ماتت ولم يتوفى في منامى»

ثم تأخذ نفسك بالوفاء بالعزم، وتذكرها قرب العهد، وتهيئها على الحياء من لرب عز وجل.

فكلما نمت جددت العزم وذكرت الموت للعبرة بالنوم، لأنك كالميت وهم سماه الله عز وجل وهاء. وتخاف الله عز وجل أن يتوفاك في نومك

فإذا أصبحت ذكرت انتشار والبعث والعرض على الله عز وجل لأن

«فه عر وجل سماه بعنا، وهو شبيه به، ركان لسي ﷺ إذا استبظ ذكر
استور فقال

اللهم بك أحياء، بك أموت، وإليك الشور».

ثم إذا أردت أن تقوم أخذت ثوبك، ثم تأخذ سواك إن أمكنك، فتستاك
نوى به طهارة فيك ومرضاه ربك، وتباعد سه نيك ﷺ.

ثم تتوضأ، فتعسل يديك - اتباعاً لسنة نيك ﷺ، ثم توضئ - أطرفك
لأداء قرص الوضوء الذي أوحيه عليك ربك عز وجل، تؤدي قرص
الصلاة التي لا يقبلها الله عز وجل إلا به، ولقول النبي ﷺ:

«لا تقبل صلاة بغير طهور».

في هذا دليل على أنها بالطهور مقبولة ممن رحمه الله عز وجل.
فلتلتزم فيك مع أدائك المرض لأمل وأرجاء أن يقبل الله عز وجل
صلاتك.

فكلما استنققت أو تفضضت أو وضأت طرفاً من أطرفك أملت كفارة
ما أصبت من الذنوب بحوارحك كما قال النبي ﷺ.

«إنه يكفر عن العبد المؤمن ما أصاب بمواضع الوضوء من الذنوب».
فإذا مرغت من وضوءك أتيت مسجداً، وبويت بإتيانك المسجد أداء
الصلاة في الجماعه اتباعاً لسنة نيك ﷺ.

عإذا فضيت صلاتك نظرت أيها أفضل وأحب - لرومك المسجد، أو
دحوك منزلك، أو غدرك معاشك، أو لبر وأحب أو تطوع. فأى ذلك كان
أولى بك فأتته.

فإن دخلت منزلك ركوب، لإشفاقك الذي وصف الله عز وجل به أوليائه

الدين بأحهم الله عز وجل حوراء وأدحهم دره، وإذا قالوا حيث استقرت بهم الدار.

﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلَ هِيَ أَهْلًا مُّشْفِقِينَ﴾^(١).

قد اغتبطوا في إسماعيلهم في أهلهم فأنزله عليك الإشفاق رجاء أن تأس به في الجنة مع المشفقين من أوليائه، فإن رل أحد منهم بهيه لمصى أمر الله عز وجل فيهم، بأن يعيهم در حهم لقوله تعالى
﴿عُوا أَنْفُسَكُمْ وَهَلِيكُمْ نَارًا﴾^(٢).

فيل في لتفسير: أدبوهم وعلموهم.

فإن أردت أن تخرج في حاجة أو إلى سوقك فقدم اليات قبل خروجك، وإن قدرت أن لا تدع شيئاً يرجو أن يطيع الله عز وجل في طريقك أو في حاجتك أو في سوقك أن ينوي به، فافعل؛ فإن أجرك على قدر نيتك. فكل من نويت أكثر أن لك الأجر أكثر، فإذا خرحت فانو كلما قدرت عليه مما عكس من النية، فإذا فعلته أحررت على نيتك وعلى فعلك، وإن لم تفعل ذلك أحررت على نيتك.

فإن خرحت إلى سوقك نويت أن مررب ببعض المحالس أن تسلم عليهم، وإن رأيت مظلوماً أن تنصره، وإن رأيت مسكراً فاستنطعت أن تغيره غيرته وإلا أنكرته بقلبك، وإن مررت بأذى أن تميطه عن الطريق. وتنوى إن لعيت الأصحاب والمعارف أن تسلم عليهم وتسألهم عن حالهم لله عز وجل على قدر أقدارهم من تحبه لله عز وجل، أو تمنى به لقراءة أو غير ذلك، نويت أن تسأله عناية منك بأمره، لتؤجر على سلامك

(١) بطور آية ٢٦

(٢) التحريم آية ٦.

وسؤالك وعمايتك به، وتحمد له الله عز وجل، أو للرحم وصدة له، ومن كان يسر بأن تبشر به إن لم تكن تعي به نويت أن تسلم عليه لإدخال السرور عليه.

وكس حذر قبل الاعتراض من الخطرة بدواعي الرياء لأن العذر حين يلقى من مسلم عليه بخطر ببالك أنه يستحملك أو يحمدك أو يجهوك إن لم سلم عليه يسبق إلى قلبك ذلك، فيشغلك أن تحتسب الثواب في سلامك وسؤالك، فتعتقد ما خطر به، فلا تحتسب الثواب في سلامك ولا في سؤالك فلا تدع أن تنوى بإفشائك السلام على المحاسن في العامة الآخر ولثواب، كما أمرك النبي ﷺ حين يقول:

«أهشوا السلام بينكم».

وتنوى إن سئلت عن حاك أن تحمد الله عز وجل.

فإذا سئلت أحببت بعقل محتسب للثواب، ولا تكن كمن يجيب بغير فهم، ولا إحساس لثواب الله عز وجل.

وتنوى أيضاً إن رأيت امرأة أن تعض بصرك وإن سمعت لها أو معصية لله عز وجل لم تصغ إليه، وأن تعتبر بما ترى بعينك وتسمع بأذنيك وتشم بأنفك، فأنت مأجور على نيتك، فعلت شيئاً من ذلك أو لم تفعله

وإن كنت تريد أن تأني سوقك نويت أيضاً مع هذه لنيات أن تأني سوقك أو سبيلاً لمعاشك، صنعة أو وكالة أو غير ذلك لطلب الحلال، والاتباع للنبي ﷺ، ولثواب في نفسك وعيالك للإكتساب عليهم، والاستغناء عن لباس، واستعطف على الأخ والخار، وأداء الركاة، وكل حق فيه واجب، تأمل بذلك أن تلمى الله عز وجل، ووجهك كالقمر ليلة البدر.

وتنوى لورع في سوقك، وأن تدع كل ربح وأجرة وإصابة تعرض لك

وإن كانت الدنيا كلها إن عرّص لك فيها ما يكره الله عز وجل وتنوى الإخلاص في ورعك في تجارتك، إذا ظهر للمشتري منك أو من تشتري أنت منه أو تعامله في صنعة أو غيرها أو وكالة، وتنوى عون المسلم في تجارتك إن استعانك لحماهك أو ببصرك أو يغير ذلك، واعتبارك بأهل السوق وما ترى فيه.

وأن تذكر الله عز وجل في السوق محسباً، لما جاء به الحديث: «إن الله عز وجل يعجب من الذي يذكره في السوق».

وكذلك إن غدت إلى شري شيء من تجارتك، أو تفاضى ديك، أو قضاء ما عليك، أو شري شيء، لأهلك أو بيع شيء تريد بيعه، أو إلى صنعك، نويت كل ما قدرت عليه. مما أمكنك فيه أن تأمن الله عز وجل فيه وترجوه، فإن الله عز وجل معطيك على قدر حسبتك وأملك به ورجاتك من ثوابه.

وكذلك إن أردت الذهاب إلى علم، لم تدع ما أمكنك من النية والحسب في المطاعات، فتغدو وأنت تنوى أن تتبع بذلك أمر الله عز وجل ورسوله ﷺ، تطلب العلم وما ينفعك في دينك، لستدل به على خير أو نهى به عن شر، وبأمل أن يسهل الله عز وجل لك بدهابك طريقاً إلى الجنة، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ:

«من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة».

وكذلك تأمل أن تضع الملائكة أححنها لك رضا بما نصنع، كما رواه صفوان بن عمار عن النبي ﷺ، ولتراحم العلماء في خلق الذكر، وكذلك تنوى أن ترتع في روضة من رياض الجنة، كما جاء في الحديث.

«إذا مروا برياض الجنة فادعوا قيل وما رياض الجنة؟»

قال: خلق الذكر.

وكذلك السلام على من تسلم عليه ومسأله على قدر ما أمكنك، وكذلك زيارة أخ، أو قضاء حاجة مسم، أو اتباع جنازة، أو عبادة مريض لا تدع شيئاً من النيات، مما جاء به العلم وأمكن أن تؤمل الله عز وجل له، إلا نويته واحتسبته ورجوته.

البَابُ الرَّابِعُ

نظرية الزهد والتصوف

- * التوكل.
- * الورع.
- * الزهد.
- * التفويض.
- * الرضا.
- * المحبة.
- * موت المحاسبي.
- * خاتمة.

التوكل

يفتصر الحديث عن النظرية الصوفية لدى بعض الكتاب على وصف المراحل التي يمر بها الصوفي، مشيهاً إياه بالمسافر الذي يقترب من غايته كلما قطع شوطاً في رحلته.

والصوفي كالمسافر، لا يستطيع أن يقطع شوطاً قبل آخر، بل عليه أن يمر بسائر مراحل طريقة الواحدة بعد الأخرى.

والمراحل الصوفية تسمى بـ «المقامات».

ويحدثنا كتاب الصوف أيضاً عما يسمونه بـ «الأحوال» وليس هناك اتفاق كامل في الآراء حول الفرق بين «المقام» و «الحال». ولكن المفهوم السائد في غالب الأمر هو أن «المقام» يشير إلى مرحلة تتصف بشيء من الاستقرار ويصل إليها الإنسان بجهده الشخصي، بينما «الحال» يعبر عن ظرف عارض سريع الزوال، عن هبة من الله أو فضل أو فيض لا حكم للإرادة الإنسانية عليه في ظهوره أو زوله.

والمقامات محددة في عددها مثلها في ذلك مثل أعمال الإرادة الإنسانية.

أما الأحوال فلا حصر لها، لأنه ليس في استطاعة الإنسان أن يحصى

نعم الله.

نبحث عن مفهوم المحاسبي لمسألة المقامات والأحوال؟.

إننا لا نعلم عن هذا الأمر عند المحاسبي إلا الشيء اليسير، بل إن

كل ما تعلمه هو ما نقله إلينا المحوירים من أن «الحال» في رأس المحاسبي «قد يتصف بالدوام»^(١).

ونريد هنا أن تعرض لكل ما بعده في كتابات المحاسبي مما قد يسمى بالمقامات أو بالأحوال، دون أن نتوقف عند التميز بينها ولكن لما كانت هذه المسائل مشتتة في مختلف مؤلفات صاحبنا، فقد رأينا من المفيد أن تعرض بادئ ذي بدء، وعلى سبيل المثال، تصنيفاً للمقامات يقدمه السهروردي في كتابه «عوارف المعارف» وهو يأتي حسب لترتيب التالي:

- ١ - التوبة. ٢ - الورع. ٣ - الزهد. ٤ - الصبر.
- ٥ - الفقر. ٦ - لشكر. ٧ - الخوف. ٨ - الرجاء.
- ٩ - التوكل. ١٠ - الرضا.

وقد نجد أن بعض هذه «المقامات» يرى فيها مفكرون آخرون «أحوالاً» فالسراج مثلاً يعتبر الخوف حالاً، وكذلك الرجاء.

ونحن لا نعثر لدى المحاسبي على ترتيب محدد للمقامات أو الأحوال. ولكننا نعلم أنه، على غرار السهروردي، يجعل الصبر قبل الخوف، والتوكل قبل التفويض.

أما هنا فسوف تتبع ترتيباً مختلفاً بحكم ما سبق أن عرضت له من فكر المحاسبي فنبداً بحديث التوكل، ثم الورع، ثم الزهد والتفويض والرضا؛ وأخيراً: المحبة، ونترك جانباً الموضوعات التي أثرناها في فصول أخرى، كالتوبة والخوف والرجاء.

* * *

التوكل يعيد ثقة المزمّن المطلقة في الله ويقينه بأن ^{١١}يا من لأعمال في

(١) عن ترجمة ليكولسون. لكتشف المحجوب ص ١٧٩

هذه الدنيا لا يغير من مصير المحتوم.

ومن مفهوم يمكن تطبيقه في سائر الأحوال، ويؤمن به المسلمون جميعاً وحديث التوكل في المؤلفات الإسلامية، يشتمل دائماً وفي كثير من التفصيل على مسألة المال والكسب الحلال. هل يتعارضان مع التوكل؟ وإذا وثق العبد في الله وآمن بمصيره، أي أيقن بأنه صائر لا محالة إلى ما قدره له الله منذ القدم، وأنه نائل نصيبه المحتوم من الخير أو الشر، ومن الغنى أو الفقر بإرادة الله، وأن العمل هل أو كثر - لن يعبر شيئاً مما سوف يكون، ومما كنيته عليه يد الله من قبل أن يمشىء العالم، إذا أنقش المؤمن بذلك كله، فكيف لا يكون سعيه إلى ما ضمنه له الله من رزق نقصاً في العبادة وإهمالاً لحقوق الله؟.

ولقد أثيرت المسألة جدلاً مستفيضاً بين الكثيرين من لاهوتيه والمفهاء، وكتاب «تلبيس إبليس» بين مدى ما وصل إليه هذا الجدل من عنف وحدة.

وبريد قبل كل شيء إصاح بعض جواب موقف الإسلام من القضية إن المال يحتل مكاناً هاماً من نصوص القرآن والأحاديث والفقه. ففي القرآن نجد تنظيماً وتشريعاً للمعيرات. ولأحاديث تكمل نصوص القرآن في ذلك. وكل كتاب فقه إسلامي يتضمن فصلاً مطولاً في الإرث. كذلك نجد في القرآن والأحاديث تشريعاً للمركاة، ولوصية وبصدقة، وغير ذلك من المسائل المتعلقة بالمال.

اعترف الإسلام إذن بمنافع المال وأهميته دوره، فلا عروبة في أن يبحث على العمل، وهو وسيلة اكتساب المال، وعلى أصحاب الرسول ﷺ كانوا من ذوي المهنة أو الوظائف.

وكى القول بأن للمال أهمية زائدة في المفاهيم الإسلامية خطأ فاحش
فالمال، مهما كان أمره، ليس في الواقع، لا جزء من القيم المادية الفانية
في الحياة الدنيا، وليسعى لاكتسابه، وإن سمح به الدين وحث عليه بل
وأوجهه إلا أنه لا يدان في شيء يسعى الإنسان إلى اكتساب القيم
الروحية التي لا تنفى والمتعلقة بالعالم الآخر.

وعلى أن لا نسي أن الإسلام دين وأن محمد ﷺ نبي، ولا يمكن أن
يكون للدين وللنبي ﷺ هدف إلا ما سها إلى الله والآخرة. والمال في حد
ذاته ليس بذلك، والهدف الحق للإسلام والنبي ﷺ، نجاة الإنسان، ومن
أجل هذا كان الاهتمام بالمال منصباً على تحويله إلى أداة لخير لإنسان
وعلى تحويل شهوته الدسنة في قلب الإنسان إلى التراحم والإتقان في سبيل
الله.

وهذا هو السبب لما نلحظه في القرآن من وعيد مسكر للذين يكتزون
الذهب والفضة، أو لذين ملههم حب المال عن القيام بحقوق الله.

ولعل أبا هريرة الذي قيل عنه به «أوشراكى في الإسلام» لم يبتعد كثيراً
عن المفاهيم الإسلامية، حين كان يحمل في مواعظه على بذخ بلاط^(١)
معاوية وسرف الأمراء، وكان شعاره الآية لقراءة الثالثة:

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْخَبَرِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ
آسَاسٍ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِينَ كَثُرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ
وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ^(٢).

فإنفاق المال في أغراضه الصحيحة لا يمكن أن يكون، لاوسله لمذموم

(١) وكان معاوية أميراً على الشام.

(٢) التوبة: آية: ٣٤

الأهداف العليا الرفيعة، واستخدامه في أغراض دنيا يؤدي بالإنتسار إلى
لانسحاق في سبيل الشيطان، ولا بد للإسلام كدين أن يذمه في هذه الحال

ولعمل لاكتسابه مسموح به، بل هو مطلوب مادام حلالاً

أما العمل لاكتسابه من غير الطرق الحلال فهو أمر يهيى عنه الإسلام
في قوة، وتوعد من يقوم به بشر العقاب في الدنيا والآخرة

ولخلاصة هي أن الله أمر بالصرب والمسى في مساكن الأرض واسعى
في أرجائها لاكتساب المال، وقد سنعذ رسول الله ﷺ من العصر، وقال
ﷺ: اليد العليا خير من اليد السفلى ولكن ذلك كله مشروط بأن يكون
الكسب حلالاً، وأن لا يتسم بالجشع أو باخس أو بالحرمة

* * *

ولعرض الآن، وعلى ضوء ماتقدم، موقف المحاسبى من هذه المسألة إنه
يقول في كتابه «المكاسب»^(١):

فأخير جل ثأؤه بقسمة أررق بين خفيه، وتولية ذلك في مواضع من
كتابه جل وعز كثيره، ثم دعا الخلق - سبحانه - إلى التوكل، بعد أن
أعلمهم بكفالاته لهم، وثقبيعه بينهم.

فأوجب جل وعز التوكل ومرضه على الخلق

فهل نفهم من ذلك أن كل عمل للإنسان سعياً وراء رزقه الذى قسمه
الله وتولاه يعتبر في الإسلام نقصاً في التوكل وذنياً؟

(١) من ١٧٨، ص ١٧٩ تحقيق عبد القادر عطا.

يجب المحاسبى على هذا لتساؤل بالمعنى فائلاً.

«فالذى يجب على الناس فى جملةهم من التوكل لفترض عليهم .
التصديق لله حل وعرف فيما أحذر من قسم وضمان لكهنية وكهالتها من
سياقة الأرزاق إليهم وتصال الأوقات لتي قسمها فى الأوقات التى وقفها،
بتصديق تقوم الثقة به فى قلوبهم، وتنتفى به استكوك عنهم والشبهات،
ويصغر به اليقين، وتثبت به حقائق نعم أنه الخالق لرازق المحسب الميسر
المعطى المانع المتفرد بالأمر كله.

فإذا صح هذا العلم فى القلوب، وكان ثابتاً فى عقود لإيمان، تنطق به
لألسنة إقراراً منها بذلك لسبدها، وترجع إلى ذلك بالعلم عند تذكرها، وقع
الاسم عليها بالتركل.

وعلى أى حال، فإن عدمه الناس، إذا حرجوا بالذكر فى وقت الطلب
أدعوا بالقلوب والألسنة أنهم لا يصلون إلى شيء من ذلك بالحيلة، وأن
الحركة غير رائدة لهم فى أنفسهم ولا موصلة لهم إلى الزيادة،
والعمل والسعى للرزق ليسا سوى . حركات الطبع لذى عبه البنية،
وهذا من خلق الله فى العباد.

وإن لم تنزل حركات الطباع وما فى الحليفة من محبة الكثرة وتعجيل
الوقت والتسبب إليه بالأسباب، فم يزل الله سبحانه عنهم اسم التوكل-
لأن ما فى الطباع من الحركة، لا يخرجهم مما أوجبا من المصدق لهم،
لأن الله لم يستعبدهم بإرادتها، وإنما استعبدتهم بإمامه الطاعة وأخذ السوء
من حيث أباح أخذه.

أما ما حرمه الله على العبد من الحركة، فهو التعدى لما أمر الله واشتاور
لحدوده، وذلك أن الله سبحانه لما فرض التوكل على خلقه، وأباح لهم

الحركة في ذلك، ولما عيب عنهم الفرس من محبة تعجيله، حد للحلق حدوداً في الحركة وحرص عليهم غرضاً أحكمها.

فإن حالفوا ذلك ثبتت عليهم بخلافة الحجة، فمن كانت حركاته في طلب الرزق على ما وصفنا كان الله جل وعز بذلك مطيعاً، محموداً عند أهل العلم ولكن هناك من مراتب «الحركة» الإنسانية ما هو «أرفع في الدرجة وأعلى في الرتبة»، فإن السعي للرزق أمر حلال ومحمود، ولكن السعي من أجله مع إحكام فرض التوكل في أصله والريادة في العمل بالمعرفة لله، ومع طهارة القلب وإدامة الذكر وكثرة التقرب إلى الله بالتواضع.. فذلك: هو حقيقة التوكل ومحكمه، والتعالى في ذروة ما أقيم فيه الأنبياء والصديقون وخواص المؤمنين.

أما لدلائل على أن الحركة في طلب الرزق أمر حلال محمود، فهي كثيرة وفي وحوه عديدة، ونجدها في القرآن والحديث وسنة النبي ﷺ وسير الصحابة.

ففي القرآن يرى مثلاً: ﴿رَجَالٌ لَا تُلِهِمُ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾

وفي الحديث: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم»

ويقول لرسول ﷺ: «عن نفسه».

«كنت أرى الغنم لأهل مكة بالقراريط».

وفي القرآن قصص لأنبياء كانوا يحترفون مهناً، منهم موسى وداود.

ومن الحديث: «أطيب ما أكل المؤمن من كسبه».

وهو حديث يقول عنه المحاسبى إنه:

لا يدفعه أهل العلم والنقل، ولا أعلمهم يختلفون فيه».

أما الدلائل المستخلصة من سير الصحابة، فيأتي بها المحاسبى بعد فصل طويل في متداح أخلاقهم، ويبدأ كعادته بذكر الخلفاء الأربعة الأول.

فقد كان من أبي بكر لما استخلف، أن رأى الكسب على عياله أفصل الأعمال وأوصل القرية وأعلى الطاعة.

فمضى إلى السوق متكسباً عليهم، فأدركه أصحاب رسول الله ﷺ وسلم، وكلموه في ذلك ثم فرضوا له برضاً رضى به، وإنما كان ذلك لرضى منه حتى يمرغ لأمر لمسلمين ويولي أمنهم كل عنديته.

وكذلك كان عمر بن الخطاب إذ رأى بعد استخلافه أنه لم يعد يجد من الوقت ما يسمح له بالكسب إلا إذا أهمل الأمانة لقي وقعت عيبه، فكان يأخذ ما يصفه بقوله:

توبين للشتاء والقيظ، وظهراً أحج عليه، وقوت رجل من قريش ليس بأرضعهم، ولا بأرضعهم ولكنه كان مع ذلك يتساءل:

والله ما أدري أئجل لي أم لا؟

وقد سار عثمان وعلى من بعده على نهج أبي بكر وعمر.

ويرد المحاسبى بعد ذلك قصة عبد الرحمن بن عوف، إذا أخى النبي ﷺ بيته وبين قيس بن الربيع، تعرض قيس على عبدالرحمن بصف ما يملك وكان مال هيس لمال لصامت لدى يرغب في مثله؛ ولكن ابن عوف رفض قائلاً:

لا حاجة لي بذلك، دلتى على السوق.

فمضى إلى السوق منكسباً على نفسه، وذات ما عند عبد الرحمن من فضل الكسب وفصل الحركة لطيب الثواب.

وكذلك يروى عن النبي ﷺ: «أطيب ما أكل الرجل من كسبه»
فآثر عبد الرحمن الكسب على مال طيب، عرض عليه من غيره مسألة ولا إشراؤه من نفسه.

تلك هي الأدلة التي يسوقها المحاسبي، وقد استخلصها من الكتاب
ولسنة وفعل أكابر أصحاب رسول الله ﷺ:

ويختم حديثه عنها بقوله:

والأخبار في هذا والاحتجاج بها كثيرة

وفيا أوردنا وذكرنا من ذلك كفية إن شاء الله

والحركة للكسب إذن ليس حراماً، إنها حلال، بل هي فرض على
العباد.

والمحاسبي في كتابه، «رسالة المسترشدين» يوصي المؤمن بأن لا يجعل
نفسه قط عالة على الآخرين.

وذلك أن العبد إذا جعل نفسه في وصاية غيره، فقد حرّبه في لدعوة
إلى الحق منزهاً عن الرياء.

وفي وصاياه الخاصة بأسبوك اليومى لعبد في مختلف مؤلفاته، يفرد
لمحاسبي مكاناً للكسب والعمل.

ففي كتاب «الرعية» يتحدثنا مطولاً عن العمل الذي يحبه الله من

لعبد، وفي كتاب «المسائل في الزهد» يذكر الحديث التالي للرسول ﷺ
 «السعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، القاتل لبيد،
 والصائم نهاره».

ويقول المحاسبي:

«أفضل لأعمال لكل أهل زمان ما كانت عليه لأوائل من تعليم
 استن والعطف على أهل العدم، لأن الله الغني الحميد لا ينتفع بطاعة
 ولا تضره معصية، وإن أُمِرَ بظاهره لينفعك، فأحب الأشياء إليه من طاعته
 ما عاد نفعه على غيرك.

بل إن السعى للرزق فرص على المؤمن في كثير من الأحيان وتركه
 ذنب كالسعى في رزق الأب ولأم والزوجة ولأولاد الصوريين، ألم يقل
 النبي ﷺ:

«كفى بالمرء شرًّا أن يضيع من يعول»؟

ويعلق المحاسبي على هذا الحديث قائلا

ولا يكون قول أبي ﷺ ذلك، وهو لا يحب عليه عيشتهم ولا حينما
 تكون عيشتهم تطوعاً منه بتطوع به، لأن الشر بلاء واقع وعقوبة بارزة،
 والله جل ثناؤه لا يعاقب على ترك ما لا يجب.

وعلى أي حال، فلم يحذف المسلمون في أن مثل هذا لسعي واجب
 عليهم.

والمحاسبي لا يكتفي بأن يسوق الأدلة والدفاع عن هذا لري، ويعد
 يقوم ينتقد من يحرمون الكسب

فيقول بأن هناك أقواماً يرفعون أن السعي للرزق يتعارض مع الوكل، وهم في الواقع إما جهلوا حقيقة السنة وسر الأنبياء في كل زمان مما عرويه لنا القرآن.

فمن ذلك ما زعم سفيق، وذلك أنه قال لما ضمن الله تعالى الرزق والكفاية، كانت الحركة شكاً فيها ضمن، فحمل الأمر في ذلك على رأيه، فخالف الكتاب والسنة وما عليه أكابر أصحاب رسول الله ﷺ وجملة التابعين من بعدهم.

ويتابع المحاسبي هذه لتفرق الأخرى لقائله بعدم التكسب، وذلك بأسلوب غاية في التشويق، معتمد على الكثير من الأدلة وإبراهين غير ذلك التي ذكرناها في سبق، ولذلك لا نرى أن هناك أي مجال للاختلاف حول آراء المحاسبي فيما يتعلق بالتكسب.

وكتابه «المكاسب» الذي اعتمدا عليه أساساً في بحثنا، قد ألف في فترة متأخرة من عمره بعد بلوغه الرابعة والخمسين؛

فهو إذن يعبر عن آرائه في فحره المصوج، بل يمكن القول بأن لآراء التي ضمها عند الكتاب هي آراؤه النهائية في الموضوع



وما سبق من العرض يتعلق كله بالتكسب في الأوراق لصرفه للحياة، ولا نتحدث بعد عن موقف المحاسبي من الثراء والبدح ولتسوف تأتي إلى هذا الموضوع في فصل ثال عند بحثنا في مسألة «الرهء».

ولمحاوّل الآن النظر فيما إذا كانت الحركة عامة - أو الحذر و اليقظة أو التدبير - يتعارض سىء منها مع «الوكل»

ولمسألة هي نفس مسألة لتسبب، وإن كانت مسألة الكسب أكثر عقيداً، فمن ناحيته نجد الإرادة الإلهية الخالدة عما قدرته من مصر للإنسان لا معر به، ومن الحدب الآخر نجد الحركة والعمل من أجل إصلاح ظروف الحياة الإنسانية، ومن أجل حماية الشر.

ولا يريد الإطالة في شرح موقف المحاسبى، ولا يحتاج إلى ذلك. فقد كانت حبه كلها سعياً إلى إصلاح الإنسان، ومحاربة لتحبيبه الشر والسجاء منه، ومؤلفاته بأكملها تعبر في قوة عن هذا الموقف.

ونكتف بدكر بعض لنصوص ذات المعرى الواضع من كتابه «الرعاية» بدلنا فيها على المبدأ احدى يحكم موقفه من مثل هذه لمسائل عامة.

وفي هذا لنص يتحدث المحاسبى عن إبليس وبنيه القارئ إلى أن إبليس من عناصر الشر انى تدفع إلى ارتكاب الذنوب، ويحذر منه، ثم يتحدث عن قوم من أهل النمام يزعمون أن الحذر من إبليس لا يصح

فالحذر لغير الله عز وحن بعض من لبقين والتوكل، فأولى اشقه يافه عر وجل ولقين، لأنه لا ضر ولا نافع غيره.

ويرد المحاسبى على هذا القول بأنه غلط؛ فالعبد لا يحذر إبليس إلا لأن الله أمره بذلك؛ والحذر من إبليس لا يكون خوفاً منه، فهو لا يغيرها بما أرده الله شئت وإثنا يكون وجباً طاعته لله واتباعاً لأمره فيمن أمر بالحذر منه.

أجل، بل إن الأمر الإلهى بذلك نعمه على العبد وعون له ألم يحذر النبى بأمر ربه من أنساء أقرب إلى البشر من إبليس؟ وهل

كان نقصاً في التوكل 'ن' أطاع النبي كلام الله إذ أمره بأخذ حذره من العدو، وبصلاة الخوف في الحرب؟ وهل كان نقصاً منه في التوكل أن قام بحفر الخندق؟

إن ليقين يبعثر القلب بأن الله خالق كل شيء ومحرك كل شيء.. ولكنه أمر بأمور طاعتها واجبة، وتركها يزعم أنها نقص في التوكل عليه ليس سوى مخافة لأمره.

فالطاعة إذن هي السبيل الصحيح: «وناقص اليقين من ضيع أمره إرادة كمال اليقين».

أما التعلق بالأسباب والعلل وعدم النظر إلى غيرها، فذلك الغبط الذي يجب على المؤمن محابته.

الورع

وموقف المحاسبي من الحركة لدى الإنسان، يدل على قاعدة عامة عنده هي:

أن العمل الذي يُزدى إلى الكسب الحلال: حلال. وهذا يدخل في مجال الورع. والورع يجب أن يلزم الكسب ويسيطر عليه.

إلا أنه ليس بالقاصر على الكسب فحسب. والمحاسبي في حديثه عن الورع يعمم تطبيقه، وهو يعرف الورع بما يلي^(١):

«المجانبة لكل ما كره الله عز وجل من مقال، وفعل، بقلب أو جارحة. واحذر من تصييع ما فرض الله عز وجل عليه في قلب أو جارحة.

ونال الورع بالمحاسبة، أي «الثبت في جميع لأحوال قبل الفعل أو الترك من العقد بالضمير أو الفعل بالمحارحة».

ويشم الورع بأربعة أشياء:

«شئان واحد تركهما، وشئان ترك أحدهما استبراء، خوف أن يكون مما كره الله عز وجل والآخر يترك احتياطاً وتحرزاً.

فأما الشئان الواجب تركهما

(١) من كتاب المكاسب

فأحدهما. ما نهى الله عز وجل عنه من العقد بالقلب على الضلال
والبدع، والعلو في القول عليه بغير^١ حق، ولا يعتد إلا بالصواب.
والآخر: ما نهى الله عز وجل عنه من الأحد والترك من الحرام
بالضمير وأحوارح.

وأما أحد الشئيين الآخرين: ترك الشبهات خوف مواضع الحرام وهو
لا يعلم استبراء لذهنه، لتسام الورع.

وأما الشيء الرابع: فترك بعض الحلال الذي يخاف أن يكون سبباً
وذريعة إلى الحرام.

وذلك كترك فضول الكلام لئلا يخرج به ذلك إلى لكذب والغيبة وغيرها
بما حرم الله تعالى القول به.

فهذه الخلة عون على الورع، لا واجب عليه تركها ومجانبتها.
والدليل إلى الحق: القرآن والسنة؛ فعل الناس ترك كل ما حرم فيها
أو كان من المشابهات

فالورع إذن في تطهير القلب والجوارح.

ولكن على لعمري أن يحذر مكائيد النفس التي «تعطيك الورع» في حال
العدم.

فتزعم أنها تدع ما يكره الله عز وجل حين تعرض لمبلاء خوفاً من أن
يغضب الله عليك فتستوجب العذاب.

حق إذا قدرت وامتنعت جاشت لشهوتها، تطلبت ما زعمت أنها
تدعه^(١).

(١) من كتاب الرعاية

فأورع لا يتبين حقيقة إلا في الامتحان بترك الشهوة مع القدرة، ونية الورع لا تكفى ليكون الورع.

وينتقد المحاسبي من يقصر الورع على أشياء معينة، مثل: فرقة لا ترى أنه يجب عليها من الورع في زمانها إلا الورع في غذائها من المطعم والملبس.

فعسى ببعض الورع أكثر الورع عليها في قلوبها وجوارحها^(١)، وعذاب الله قد يقع على من لم يحجب الله في كل ما كان من الورع حتى وإن طاب مطعمه.

الزهد

والورع أمر محمود بكل تأكيد، ولكنه ليس سوى مرتبة في سراج القيم الروحية، وتعنوها مرتبة أخرى هي «الزهد».

فمحاسبة النفس لتمييز الحلال الطيب من الحرام أو المشتبه في أمره، عمل لا جدل فيما يعود به من نفع على العبد، ولكن خير منه أن يترك العبد الدنيا.

والدنيا ليست سوى بلاء لا عوده إليه. والانشغال بالدنيا ابتعاد عن الله.

والتححرر من الدنيا وسببة إلى التقرب من الله والتفرغ لعبادته والدواعي التي تبعث على الزهد كثيرة:

مها أن الدنيا لا قيمة في الحقيقة لها؛ بل إنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، والانشغال بما لا قيمة له أمر لا يقره عاقل.

ويقول المحاسبى لمحدثه في كتاب: «أدب النفوس»:

«عجب أن تحب الدنيا وتشغل بها، وأنت تعلم اليقين أن لا قيمة لها، وتترك من أجلها سبل الصالحين وأهل التقوى، وتبتعد عن صحبة النبي ﷺ في الجنة.

ولو نركت الدنيا لتفوز بصحبه النبي ﷺ لتركت الأقل لتفوز بالخير الأعظم.

وكيف يعقل أن تترك من أجل الدنيا لفانية صحبة النبي ﷺ، خالداً في جوار الله، ومن أحبهم الله والرسول؟»

ولكن الأمر لا يقتصر على ذلك، فهما يبعث العبد عن الزهد أيضًا
خفة المؤنة، والراحة من عظيم الكلفة، لأنه إذا حل بالزهد حط الكريم
عنه في الدنيا مؤنة الرحله، واسراح من تعب لبقته، وحلب نفسه
الطمأينة^(١)

وهكذا يرى أن المحاسبي لا يدعو إلى الزهد لغرض الرهد في حد ذاته،
فهو ليس غاية، وإنما هو وسيلة إلى اثنتين:
الاطمئنان في الدنيا والفضل في الآخرة.

ولحدد هنا أن الحرمان من متاع الدنيا ليس هو جوهر لرهد، وإنما
جوهر الرهد التحرر من الدنيا وعدم الخسوع لمتاعها.
ولرب مكثر بعد الإكثار مشغول بيس بذاكر دياه لأن الآخرة قد
غلبت على ساه، وهو على ما أعطاه الله من الدنيا شاكراً.
ولرب مقل قد ظهر الرهد على طاهر بدنه، وقلبه مشغول بالرغبة، فقد
استقل كل ما صار إليه من الدنيا^(٢).



بقى علينا بعد هذا أن نجلى مسألتين كانتا مشار مناقشات عديدة، وهما
المعتصان بالمطعم والغنى.

أما أولاهما فهي، هل الزهد يتطلب الاقتصار في الطعام على أقل
القليل، بل على القدر الذي يقيم الأود فحسب منه؟
إن أساطير كثيرة تروى في هذا المجال وتصور بشكل لا يكاد يقبله
العقل مدى ما ذهب إليه المتصوفون في الإقلال من الغذاء.

(١) من المسائل في لزهد وعمره.

(٢) من المسائل في الزهد وعمره ص ٤٤، ٤٥.

ويقول الرواة معللين ذلك: «إنه الزهد»، ويلغامن شأن هذه الأساطير - ولا شك في اتساعها مع ذلك إلى أصل من الواقع - أن غرست في الأذهان فكره التعفف الرئد في لطعام كمرادف لمفهوم الزهد. وموقف المحاسبي في هذه المسألة موقف وسط متعقل.

ولنعرض أولاً لموقفه بشأن قصة الجوع باعتباره غاية في حد ذاته. وهو يقدم لها حلاً يبنيه على مبدأ أساسي مبتكر يبلغ الغاية في البساطة، ويسر التطبيق، فيقول: بأن الله فرض فروضاً واضحة محددة لا شبهة فيها، أما النفل فيعرض له كما يلي:

«واعلم أن كل فضلة نافلة لها شبيه من الفريضة مما فرض الله يستدل بها على ما نفل.

فإذا أشكل علينا شيء من أنواع النفل، فلم ندر أفصل هو أم ليس بفصل؟، فانظر في أصول الفرض، فإن كان له في الفرض أصل فهو فصل، وإلا فلا»^(١)

هذا إذن هو الحكم: «كل فضيلة نافلة لها شبيه من الفريضة فقد رغب الله في صدقة انتفل، وقد فرض الزكاة.

«ورغب في الصوم، وقد فرض رمضان، ولم يفرض عليه أي شيء - الجوع ولا العطش، فالذي يبال جوعاً وعطشاً بلا صوم، فليس بمأجور.

ومقطع المحاسبي بناء على ما أسسه من مبدأ بأن الله لم يفرض الجوع مريضه، ولم يرغب فيه نافلة، إلا أن يجوع «العبد» ليؤثر على نفسه بطعامه أهل المسكنة»^(٢).

(١) من المسائل في الزهد وغيره.

(٢) من المسائل في الزهد وغيره ص ٨٧

فهل يحل الأكل إلى السبع، وما طاب من الطعام ملء البطون؟
لقد أخرج المحاسبي الجوع كفاية من الفروض ولتوافل، وهو في هذا
الشق من المسألة يقف أيضًا موقفًا متعلقًا فيقول في كتاب المسائل في
الزهد: بأن الطوائع تختلف من الناس، فمنهم من يحتاج إلى الطعام في وقت
أكله، ويستغنى عنه عند ذلك الوقت في يوم آخر، وربما احتاج إلى طعام في
حال، ويستغنى عن مثله في غير تلك الحال. ولكن أفضل ما أخذ من الطعام
ما تحتاج إليه النفس، ليس فيه زيادة ولا نقصار^(١).

ويوصي المؤمن في كتاب «الرعاية» بأن لا يتعفف عن «لأطعمة
الطيبة» و«بكلفها» إذا وجد بنفسه ضعفًا عن القيام بالطاعة الواجبة.
وفي كتاب «المكاسب» نجد النصوص التالية

فمن دعا الناس إلى الجوع فقد عصى الله، وهو يعلم أن الجوع قاتل،
وقد فعل ذلك بخلق كثير من زوال العقل، حتى تركوا لفرائض.
ومنهم من يعبد إلى سكين فيذبح نفسه.

ومنهم من يتغير طبعه ويسوء خلقه.

ومن دعا إلى الشبع فقد عصى الله، ولم يحسن أن يطعمه، لأن الشبع ثقل
على البدن وصلابة عن وعيد الله في القلب، وعلظ في الفهم، وفتور في
الأعضاء^(٢).

ونصل من هذا أيضًا إلى النتيجة المحتومة، وهي أن أفضل ما أخذ من
الطعام ما تحتاج إليه النفس، وهو أمر يختلف باختلاف الطوائع.

وهناك أحول يفصل فيها ترك الإنسان لبعض طعامه إيثارًا للمساكين
أو المسائل ولكن المحاسبي يوصي بعدم الحور على النفس حتى في مثل

(٢) من «الرعاية».

(١) من المسائل في الزهد ص ٢٢٧

هذه الأحوال، فيعطى العبد فضول الطعام، ويأخذ الأقل من الكفاية ويؤثر بالأكثر^(١)»

ولكن ما هدف الأقل من الكفاية في نظر المحاسبي؟
يجب أن لا ننسى أنه متصوف، وعبادة الله هي الأمر الوحيد الذي يعتنه لذلك يقول:

«أفضل الجوع جوع لقانع، وجوع التكلف يفتضح بالشبع، وإن كان في الصوم جوع فإنما معناه الترهيب لله عز وجل، وليسياحة لذلك. وكذلك يروى عن الله عز وجل قال:

الصوم لي، وأنا أجرى به، يدع ابن آدم طعامه وشرابه من أجل^(٢) وحاماً لهذا الموضوع، نود أن نذكر نصين يعبران عن حيز تعبير عن فكر المحاسبي وليس اسماً من كتابات المحاسبي، ولكنها صادران عن أحد أعداء الصوفية الألداء، وهو ابن الجوزي، في كتابه: «تلييس إبليس». «لا تأمر بالشبع، ولكننا نحرم الجوع الذي يهلك القوى ويضعف الجسد، فإذا ضعف الجسد ضعفت العبادة»^(٣)

«فمن زهد وآثر اجتناب لشهوات لعلمه بأن الحلال يوجب عدم الإقراط أو أن طيب الطعام يدعو إلى الإكثار ومزيد النوم والكس، فعليه بمعرفة ما هو ضار إن تركه وما هو ليس بضر إن أناه. وإذن فليأخذ من الطعام ما يكفي لأن يقيم أوده ولا يضر بجسده»^(٤).

(١) من مسائل في الزهد وغيره.

(٢) من المكاسب ص ٢٢٧

(٣) ابن الجوزي: تلييس إبليس ص ٢١٦.

(٤) ابن الجوزي، تلييس إبليس ص ١٥١.

يعرض المؤلفون عادة لموضوع الغنى في المصول الخاصة بالتوكل، ولكننا نرى أنه موضوع مرتبط ارتباطاً أوثق بالزهد

ولزهد هو ترك الدنيا، فهل هناك تعارض أساسي بين الغنى؟ نريد أن نعرض أولاً للغنى الذي لا يأتي عن التكسب بالعمل، بل عن الإرث مثلاً. والمحاسبي يميل يعطيه إلى الفقراء، ولكنه لا يذم الغنى دماً مطلقاً، أو على وجه التحديد - هو لا يقطع بالرأى في هذه المسألة بشكل حاسم.

قاله في إن استخدم ماله في الطاعات يعبر صاحب فضل ومن الصالحين. وطاعه الله هي معيار الحكم على الإنسان، غنياً كان أم فقيراً^(١). بل إن المال نعمة من نعم الله^(٢)

وبالإضافة إلى ذلك، فإن المحاسبي يخص المؤمنين على «اعطف على أهل العدم» ومساعدتهم، ويعتبر هذا من خلق الصعوبة العائزين بالآخرة^(٣)، وهو يبين فصل الصدقة وما ينتج عنها من خير، ولعل النص التالي من «رسالة المسترشدين» يعبر أحسن تعبير عن فكر المحاسبي في هذا المجال:

«واعلم أن محبة الغنى مع اختيار الله لعبده الفقر تسخط، ومحبة الفقر مع اختيار الله لعبده الغنى جور.

وكل ذلك هرب من الشكر لقلة المعرفة، ونصييح للأوقات من قصر العلم

(١) من كتاب «الرعاية».

(٢) من كتاب «أدب التهرس».

(٣) من «المسائل في الزهد وغيره».

وذلك أن إيمان الغنى لا يصلحه الفقر، وإيمان الفقير لا يصلحه الغنى كما جاء في الخير أن الله تعالى يقول:

إِنْ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يَصْلَحُ إِيمَانُهُ إِلَّا الْفَقْرُ، وَإِنْ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يَصْلَحُ إِيمَانُهُ إِلَّا الْغِنَى، وَهُوَ أَفْقَرُتَهُ لِأَنفُسِهِ ذَلِكَ.

«وكذلك في الصحة والسقم».

فمن عرف الله لم يشكهم، ومن فهم عن الله رضى بفضائهم ولو لم يكن لأهل العلم إلا هذه الآية لكفتهم:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ، مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾^(٢)

تقول: إن هذا النص يعبر أحسن تعبير عن فكر المحاسبى، ذلك أنه يرجع بالقضية إلى مفهوم «الرضا»، أى المسرة والقناعة والخصوع فى كل ما أَرَادَهُ اللهُ، سواء كان نعمة أو ابتلاء، وصد ذلك كما يقوون المحاسبى: يكون «السخط» و «الجور».

وقد يعترض المعترضون بأن المحاسبى رفض تسلم المال الذى استحقه إرثاً عن أبيه ونحن لا نتكر هذا، ولكنه كان يعلل موقفه بأسباب لا تمت إلى مفهوم الغنى.

ولكن المحاسبى، وإن كان لا يذم الغنى الذى يأتى من مصادر غير الكسب بالعمل إلا أنه يضع لذلك شروطاً.

فهو يشرح فى «المسائل فى الزهد وغيره» ما يجب على الأعياء من الشكر لله وأداء فروضه فى ماله - كالزكاة وغيرها - والإيفاء فى سبيله،

(٢) من رسالة المسترشدين ص ١٦٣، ص ١٦٤ أبو شامة.

(٣) آية ٦٨ من سورة القصص

وعدم المعلق بالدنيا حتى لا يكونوا عبيداً للعبيد؛ ثم يوضح أن شرط الغنى
الجوهرى هو أن يكون المال حلالاً.

وقد يعجب البعض من أن المحاسبى وهو المفكر المنصوف، الراهد،
لا يذم الغنى.

والواقع أن انتقاده في سائر مؤلفاته لا تنصب على الغنى في حد ذاته
وإنما على سوء استخدام المال والتعلق به، ولكنه وإن كان لا يذم الغنى،
إلا أنه دائماً يميل بعطفه إلى الفقراء، وسوف نعرض فيما بعد لأسباب هذا



أما موقف المحاسبى من الحركة لجمع المال فهو أقل وضوحاً، وهو في
كتاب «المكاسب» يذكر لنا ابن عوف أنشط الناس وأبرعهم في جمع
المال - مثلاً ودليلاً على صدق فكره يعرضها، وذلك بعد التقديم لروايته
عنه بفصل مطول في مناقب أصحاب الرسول ﷺ.

أما في «كتاب الوصايا» فهو على العكس من ذلك ينتقد ابن عوف
ويحمل عليه.

وقد يبدو لنا انتقاده له أكثر عتقاً مما هو عليه حقيقة إن لم نضع في
اعتبارنا ما كان يكتنه المؤلف من حب واحترام عميق لأصحاب الرسول ﷺ.

وعلى أى حال فموقف المحاسبى من ابن عوف، سواء كان بالمديح له
أو بالهجوم عليه، ليس في الواقع سوى تعبير عن رأيه في اكتساب المال.
وإننا لنعتقد أن كلا كتابيه وإن كان أحدهما تقديراً والآخر ذمّاً
صادق أصيل.

فما السبب إذن في هذا التناقض؟

هل هو تحول في الرأي؟

إن الغزالي في حديثه عن هذا الفصل من «كتاب الوصايا» الذي ينقد المحاسبي فيه ابن عوف، يخبرنا أن صاحبه إنما سطره رداً على فرقة من العلماء ذوى الثراء احتجوا تحليلاً لثرائهم بسيرة ابن عوف^(١).

فهل في هذه الرواية السبب الحقيقي لموقف المحاسبي؟

هل أثر سخطه - وهو الذى يؤثر الفقر على العنى - بكثرة ترداد سيرة ابن عوف؟

هل أصبح اسم ابن عوف إذ يذكر في كل مقال عن المال ولغى ويضرب به المثال في كل أمر يتعلق بها شيئاً أمام صاحبنا أراد التخلص منه؟

قد يكون ذلك.

وأسلوب المحاسبي في ذكره بكتاب الوصايا يدل على شيء من القصد، بل إنه أسلوب شديد الفسوة لا يتورع عن استخدام العبارات الحاركة والتشبيهات النابية.

إنما لنؤمن بتحول في الرأي لدى المحاسبي، ولكننا نعتقد أن سبب هذا التحول أكثر تعقيداً.

ولا نريد أن نقف عند القول الشائع بأن المحاسبي سمح بنفسه في كتاب الوصايا، بما لم يسمح به لها في مؤلفاته الأخرى

فقد يكون هذا صحيحاً بالنسبة إلى ذكره لأحاديث مشكوك فيها أو مختلفة وليس غرضها سوى الحوض على محاسن الأخلاق، ولكنه لا يمكن

(١) بغزالي: إحياء علوم الدين جـ ٣ ص ٢٨٩.

أن يكون أساساً للحكم في قضية سعلن بالشرع وتسن أحد أصحاب النبي ﷺ.

إننا نجد السبب الحقيقي في هذا التحول بين رحاب البيئة التي عاش فيها المحاسبي ثم في طبيعة المحاسبي كإنسان.

كان أهل التقوى في زمانه يهتمون أشد الاهتمام بمسألة طعامهم، يريدونه حلالاً حلالاً، وكان ذلك منار قلق دائم لديهم، يرون الشبهات والحرام في كل شيء فيرداد قنفهم حتى يبلغ بهم كراهة تناول الطعام. ذلك أن أساس التطهر عندهم كان الحلال؛ والأحاديث التي استندوا إليها في هذا عديدة.

والمحاسبي نفسه وصل به الأمر إلى حد القول بأن سائر الأعمال من صلاة وصوم وجهاد وحج مع الصيام بالطاعات، كل ذلك لا يقوم «مقام تصفية الخبز»^(١).

كان الحلال في نظرهم أمراً عسيراً مثاله، ويروى عن أبي وائل مسروق أنه قال: إن أهل بيت بالكوفة يوحد على ماتدهم رغبة من حلال لأهل بيت غرباء»^(٢).

فكيف كان إذن علاج المؤمنين لهذا الحال؟ وكيف أرادوا البجاة بأنفسهم من الشبهات والحرام؟ «وأما الأكياس فإبهم أخذوا القوت قصداً، ورفضوا ما سوى ذلك. وقد كان الأوزاعي يقول: «اشتبهت الأمور فليس تأخذ إلا بالقوت»

(٢) من «المكاسب»

(١) من «المكاسب»

وطائفة احتارت المباح من الجبال والأودية والرمال، من ورق الأثل
ولقط البدر والحشائش التي لها ثمر إذا ادحرت، فجمعوا منها لصيفهم في
شقائقهم».

«وطائفة احتارت ما ألقنه الرياح، وما ظهر من الحشيش والكلأ على
وجه الأرض من كلأ الصحراء، إذا اشتد بهم الجوع».

«وطائفة احتارت اسبوز المطروح الملقى».

«وطائفة احتارت المسألة لأخذ القوت منها».

«وطائفة اختارت أن تجمع من اللقاط خلف الحصادين من القمح
والشعير».

«وطائفة فشت الورع، فاخارت كد اليد أو صرب السيف في سبيل
الله

صرب لسيف نحت كل راية، مع كل أمير، ير أو فاجر، وهكذا.
وإن ورع هؤلاء الناس في طعامهم قد يكون مبالغاً فيه، ولكنه مهما كان
الأمر بدل على مدى إهتمامهم بالاحلال وتعلقهم به.

ولم يكن السعى من أجل جمع المال ليحظى بتأييد أهل التقوى في مثل
هذه البيئة.

وفد يعترض معترض بوجود تجار أثرياء مع ذلك بين المسلمين.

والرد يأتي من المحاسبي في كتاب «المكاسب».

فتجار هذا الزمان كأنهم لا يومنون بيوم الحساب، من الدخول في كل
مالا يجوز، والتسارع إل كل مأثم وإلى كل مالا يجوز من المكاسب، وترك
ما تعهد به، وركوب ما هو عنه، لا يتورعون عن مكاسب أموال

الظالمين، ولا يجانبون أهل الرياء، ولا أهل قطع الطريق والسلب»^(١) :
ثم هو يقول في كتاب آخر،

الدنيا عامة تطلب في زمانها بكل الوسائل؛ خيراً كانت أم شراً^(٢)،
ولا تشك في أن هذه الحال التي كان عليها المسلمون قد أثارت لدى
المحاسبين تأملات وأفكار شتى

ولكن الأمر بها استعمل خطره لم يكن الباعث الحقيقي لقضبه؛ فأهل
الورع في المطعم منها بلغ فضلهم ليسوا سوى أهل تطرف
والتجار الذين يصفهم، سوف يتحملون وحدهم وزر أعمالهم.
أما أساس لبلاء كله ومرتع لشيطان في الدنيا، فقد وجدته المحاسبين في
المال وتعلق الناس به^(٣).

إنه المال الذي يدفع بالناس إلى التفريط في حقوق الله ويفرهم
بالمملذات الحرام التي كانت تزخر بها بغداد في ذلك العصر.

غير أن المحاسبين لم ير في بادئ الأمر أن يحمل على التكسب لجمع
المال، بل إنه تردد في ذلك، ولعله ظن أن في إمكانه علاج هذه الآفة
بالتحذير منها، وبيان أسبابها وسبل النجاة.

ولعله أيضاً ظن أن الناس قد يجتهدون في مجانبة الأمور التي تبعدهم
عن الله إن هو عرفهم بها وبأخطارها.

ونعتقد أن هذا هو السبب الذي دفع به إلى مثل الأبحاث التي نرى
خير تعبير عنها في كتب «الرعاية» و«أدب النفوس» و«المسائل في
الزهد».

(١) من كتاب «الوصايا».

(١) من كتاب «الكاسب».

(٢) من كتاب «أدب النفوس».

ثم هو يرى أن الآفة مع ذلك باقية، وشرها يستحل، والداس يطلبون
المريد من الملمات الجديدة كلما زادت صلاحهم بالمحضرات الخارجية، ويغداد
يصبح السوق العامة التي يقصده كل طالب شهوة، فيجد فيها تحقيقاً
لرغباته كلها شترجها بماله.

إن المال إذن أصل الفساد ورأس لبلايا، وبيع المحب لبلديا.
وعندئذ يزول التردد، فيس أمام الصوفي غير طريق الدعوة إلى تخريم
الكسب لجمع المال، أي الغنى، بوصفه أداة الشيطان للتخريب بالعباد، وقام
بمحنته في غير ما تحفظ، واندلع به اعصب حتى هاجم في سورتته بن عوف
نفسه الذي كان من قبل، في كتابه «المكاسب» يضرب به المثل في الورع
ويصوره قدوة للمسلمين.

وكان طبع المحاسبي أيضاً من أسباب عنف حمته
ولقد كان يصوفه برداد يوماً بعد يوم، ورهده في كل مالا يقربه من الله
يحكم كل فكره، ولذلك بعد صبره عندما ثبت بديه مدى الشر الذي يسح
عن جمع المال، مدى تعلق الناس به لإشباع شهواتهم التي تلهيهم عن الله
وفي عصب بالغ راح يحطم كل ما احتج به أعداؤه، ولم يتورع في سبيل
ذلك عن انتقاد ابن عوف.

ويحتج هذا الفص بضم آخر من كتاب «تيسر إبليس» لابن
الحوزي: لا تكاد تفرق في معناه عما يقول به المحاسبي في المال وجمعه.

«لا سكر أخوف من إغراءات المعنى، ولا سكر أن الكثير من الناس
محسوس لفتى حسنة فتنه، ورأوا أن المال الحلال أهل من أقبيل، ويسر أن
تحو القلب من شهوة المال، ويسر أيضاً أن يقدر القلب على الاشتغال
بالآخرة مع المعنى».

ذلك كان الخوف من إغراءات المال سبب نجنب قدمائنا الاشتغال
بالقوى، ويفضلون عليه الاشتغال بالعادة والتفكير والتذكر، واكتفوا في دنيائهم
بالقبيل» اهـ.



ومع كل ذلك فإن الصومعة على بكرة أبيهم يرون أن لأمر الحق هو
قول الله تعالى

﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾

فإذا لم يستعبد الدين الإنسان فهو صالح وإن كان من أصحاب الملايين،
أما إذا استعبد المال فهو غير صالح وإن كان في المال مقل، ولقد كن أبو
الحسن الشاذلي رضوان الله عليه يقول عن الدلائل:

اللهم اجعلها في أيدينا ولا تجعلها في قلوبنا

ويصور اللهم وسع على رزقي في ديني ولا يحجبني بها عن حري
والمال خير وبركة إذ لم يستعمل في معصية الله وهو شر وفساد إذ
ستعمل في معصية الله، وفي هذا فصل المقال

التفويض

«التوكل» هو الاعتقاد بأن لا شيء يكون إلا بإرادة الله.
و«التفويض» هو جوهر التوكل، أى أظهر ما يجد العبد في الثقة بالله والتوكل مبعث الثقة بالله، فإذا ما عمر قلب العبد به انتهى إلى التفويض.

ويحل بالعبد من تفويض خير كثير في الدنيا والآخرة.
فمن وهبه الله ذلك زالت عنه هموم الدنيا، والخوف من العباد، والطمع فيما في أيديهم، وترك النظر من المؤمن إلى حياته، فهذه راحة لقلوب، وهراغ منها لطاعة الله، ويدل على ذلك قول المصطفى ﷺ «رجلين، فوضا أمركما إلى الله تستريحا».

ويستطرد المحاسبى في كتابه: «أعمال لقلوب والجوارح» في تحليل التفويض، فيقول:

«والتفويض عمل بية، لا مؤنة به على انقب والبدن، بل فيه الراحة للقلب والبدن.

وكيف يلحق المؤنة والهم من فوض أمره إلى الله تعالى، ونبرا من النظر إلى نفسه، أو إلى أحد سوى من فوض إليه أمره؟

لأن من فعل ذلك من أهل الدنيا، ففوض أمره إلى من اعتقد أنه يقوم به، لمستريح القلب والبدن، قليل الهم والغم، ولاهتمام والاحتال.

فكيف بمن هوض أمره إلى الله عز وجل، الملك الأعلى، الذي لا يكون شيء إلا ما أُرده وديره، ولا يهونه شيء ولا يعجزه شيء.

ومع ذلك هذه أمر بالتفويض إليه، وضمن بدمفوضين إليه لكفايه لماهمهم، وإتيانهم بما عرضوا إليه من أمورهم.

والتفويض من خالص متوكل على الله عز وجل، للثقة به، وإدراكه بفائده قدرته وبرحمته ورأفته.

فالتفويض الإلجاء من قلب المؤمن إلى الله تعالى في الأمور كلها، التي تخاف، وترجأ، أو يحتاج إليها من أمور الدنيا والآخرة يوم الحساب

ولمريدون في ذلك رجلاً:

رجل اعتقد من قلبه أنه ألخاً أموره كلها إلى الله متبرئاً من الحول ولقوة من نفسه ومن الخلق، إلا إلى الله تعالى، ولا ينتظر لطفاً ولا صنفاً إلا من عنده، قد طابت رسخت نفسه بإلجائه الأمور إلى مولاه، وهو مع ذلك على خطر أن يخدعه الشيطان، فيدخل عليه التسيان والعفنة في أنه يملك أمره، ولكنه عجز عنه دلجاً إلى مولاه، فعند ذلك دخل عليه الشيطان من باب من العجب دقيق لا يعطى إليه إلا العلماء الأدكاء.

والرجل الثاني اعتقد في قلبه أنه لا مر له، ولا حول ولا قوة، ولا ملك له محتج أن يلجئه إلى ربه، ولكن ربه مالك نفسه، وجميع أموره، فيما معناها بتفويضه أموره أنه فوض الأمور التي لا يملكها إلى الله عز وجل، والله مالك كل شيء فالتفويض هنا عام فيقول في نفسه: الأمور كلها لله، بالله يكون وتصرف، فألجأ الأمور كلها إلى الله عز وجل، وأنا منتظر لما يفضي ويفدر، أحسن الظن به إذ من على بالانتظار لذلك أن يلط

- في، ويظهر إلى، ويحسن إلى، ويختار لي، فلا أمر لي فأفوضه، والأمر كله
لربي، فقد هوضت إليه الأمور كلها، وألجأتها منتظراً لصنعه ولطفه.
وبما قولي: أفوض أمري إلى الله، أي الذي لا أملكه، وإي تسميقي
لست أعني بها ملكي، إنما قولي: أمري، معناه: أمري الذي أحتاج إليه من
ملك ربي، لا من ملكي، فهو المالك له.

كقولي: أحتاج إلى رزقي الذي لم أملكه بعد، فكذلك يكون لتفويض.
فهذا الذي لم تدخل عليه أي أغلوطة، ووضع نفسه من العبودية حيث
وصعها مولاه، وأمره الله بالربوبية، والقدرة، والتدبير لها دون سواء، فقد
الذي يكفيه الله ويختار له.

فإن غلط رجوت أن يتجاوز الله عن غلطه، إذ كان الغالب على قلبه
تفويض الأمور كلها إلى ربه.

والمفوض مكتفٍ مستريح. ألم تسمع مولاي بقول يخبر عن قول العبد
لصالح، وكيف فعل به حين فوض به أمره فقال:

﴿وَأَفَوَضْتُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾^(١).

فقال الله عز وجل:

﴿فَوَقَّاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَآكُرًا، وَخَافَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءَ الْعَذَابِ﴾^(٢).

ومسأل المحاسبي بعد ذلك عما يال به التفويض لله، فيقول:
بغير كبير مؤنة في قلب، ولا تعب في بدن، ولا تعليم من أحد،

(١) سورة غافر آية: ١٤.

(٢) سورة غافر آية: ٤٥.

ولا إيمان من مال، ولا عمل من جراحة، إلا المدجاة لله عز وجل
باللسان، بعد اعتقاد القلب.

وهو أن يتفكر المريد المؤمن في صغر قدره في نفسه وما أرى عنها من
الطلب لشيء من نفسه أو من غيره، إلا ما أعطاه مولاه، ومن عليه به،
فيعقل من صغر نفسه وضعفه ومهانتها وفلة حيلتها، وضعف جميع الخلائق
ومهنتهم، أنهم لا يريدون ولا يحدثون من فعل خير، أو صرف مكروه، إلا
ما دبره المولى الكريم.

ويتفكر ويذكر: أن الرب هو لقادر وأنه لا إله إلا الذي لا يكون إلا
ما أراد ودبر، وأنه لا يعجزه شيء أرادته وأنه جميع العباد لا ينالون حيراً
إلا من عند ربه. ولا يصرفون عن أنفسهم سوءاً إلا ما صرفه عنهم.

فإذا علم أن الجهل منه أن يطر إلى نفسه أو أحد سوى مولاه
لنفسه على ما صنع أو عزم على طاعة أو معاش وقد فوض أمره إلى الله تعالى،
وبرأ نفسه من تدبير شيء من أمره؟

ثم يسأل كيف يجوز لعبد طلب معاش أو اهتمام لأمر دينه، أو معاتبة
لنفسه على ما صنع أو عزم على طاعة أو معاش وقد فوض أمره إلى الله
تعالى، وبرأ نفسه من تدبير شيء من أمره؟

فيرد على ذلك بقوله.

إن ذلك لا يمتعه أن يعاب نفسه على تفریطها ويعذرها على ذنوبها،
ساعياً لما أمره الله عز وجل أن يفعل ذلك بنفسه، يعلم أنه لم يقصر إلى ذلك

إلا بتوفيق الله تعالى، الذي فوض أمره إليه، فبعنه ووفقه إلى عدل نفسه،
وقدر له أن يفعله.

وكذلك إن عزم على أمره في آخرته أو طلب معاشاً يقويه على طاعه
ربه، لم يعزم على ذلك لأن الأمر إليه، ولكن من الله عليه بالعزم على
ما يقرب إلى مولاه من طاعة أو معاش لا يقوم الطاعة إلا به سبحانه.

فهذا قبل أن يعزم يتكلف لعزم، ويعلم أن ذلك التكلف من مولاه، فهو
من به عليه، فإذا عزم عدم أن العزم هو من تقدير الله عز وجل.

وإذا طلب رزقاً أو طاعة عوض إلى مولاه، أن يفدر له ذلك، فإن خطر
له خاطر يدعوه إلى رجاء حيلته، أو تدبيره، أو معونه أحد من خلق الله،
نقى ذلك، ورجع إلى انتظار المقدور من ربه، فهو في طلبه كأنه ليس يطلب،
لأنه يعتقد ألا يتم له ذلك من قبل نفسه، أو من قبل أحد من خلقه، فهو
لا يركن إلى المخاطر ولا نفسها إلا بذكر قدر مولاه، وأن الأشياء كلها
بيده^(١).

الرضا

التوكل تناج الثقة بالله، فإذا ما بلغ أقصى مدارجه كان التفويض؛
ولكن التفويض لا يتعلق إلا بمسئول الأمور.
وإذا ما نظر العبد إلى العذر الذي كتبه الله له، فقد يتخذ موقفاً من
ثلاث:

- الغضب والسخط، وهو مالا يرصاه الإسلام.

- الصبر، وهو في رأى المحاسبي أقل درجات الإيمان الواجب، وهو
يجب على العبد وجوب الورع^(١).

الرضا بما كتبه الله، وهو راحة القلب واطمئنانه إذا نظر العبد إلى
ما أَراده الله له.

ويقول المحاسبي: إن العبد ليس له ذم ما قدر له، وخير له أن يرضى
به، فإن لم يستطع إلى الرضا سبيلاً، فآذنى ما يجب عليه الصبر.
وهناك من يعمم معنى الرضا فيطلفه على حال العبد في السراء والضراء،
ولكن المحاسبي لا يرى إطلاقه إلا على حال الرضا في الضراء.
أما قيل أن يتلى الإنسان، فحقيقة ما يجده في قلبه ليست بالرضا وإنما
«نية الرضا».

(١) من أدب العوس ص ٦٥

وقد سئل المحاسبى عن: «السبيل إلى مقام الرضا» فقل

علم القلب بأن المولى عدل في قصائمه غير متهم، وأن اختيار الله له خير له من اختياره لنفسه، فحيث أن أبصرت العقول، وأيقنت القلوب، وعلمت العوس، وشهدت لها العلوم أن أجرى بمسئنة ما علم أنه خير لعبده في اختياره ومحبته، وعلمت القلوب أن العدل من واحد ليس كمثله شيء، فحرسست الجوارح من الاعتراض على من قد علمت أنه عدل في قصائمه غير متهم في حكمه، فسر القلب من قصائمه»^(١).

فالرضا هو راحة القلب واطمئنائه، والناس يخدعون أحوالهم في الرضا. يقول أهل النصوص المسلمون:

إن العبد الذي أعم الله عليه بالرضا لا يشتهي شيئاً، ولكنهم يقولون - وهذا رأى المحاسبى أيضاً:

إن من نصل الرضا في قلبه قد يطلب فضل ربه ولا يكون في طلبه نقي للرضا

ويسرد المحاسبى أفضالاً ثمانية قد يطيبها لعد من الله مع الرضا بقصائمه، منها: الشفاء من المرض، أو روال الفقر، أو انحور على بعض ظروف تعوق عن كمال العبادة.

ولكن هناك أيضاً من يطيبون من الله أن يزيد من ابتلائهم^(٢).

والمحاسبى يرى أن من يسكت على بؤس الأمة الإسلامية محسناً بارض، فهو ضال، وأن من يحرم الدواء في حال المرض فهو ضال، وأن من

(١) من حبه الأولياء لأبي معيم لأصهار ج ١٠ ص ٨١.

(٢) أوبوسبيس مجلة إسلاميك ج ٦ ص ٢٨٣ - ٢٨٦.

لا يرحو من الله شيئاً فهو ضال، وأن من يكف عن طلب زوال لدنوب وأسبابها فهو ضال.



يقول الهجویری: إن المحاسبي يعتبر الرضا «حالاً» لا «مقاماً»، وهو يعرف الرضا من وجهة نظر المحاسبي بأنه «راحة القلب» ثم يقول، «وذلك رأى صحيح، فراحة القلب وطعنه ليس من الصفات المكتسبة في الإنسان، وإنما هي من نعم الله عليه»^(١).

ولا تجادل فيما يقرره الهجویری من أن المحاسبي يعتبر الرضا حالاً، وقد يكون ذلك صحيحاً، خاصة أن ذكر مرة أخرى ما يقوله الهجویری نفسه: من أن المحاسبي لا يفهم صفة «دوام في الأحوال».

غير أننا نود الإشارة إلى أن حديث المحاسبي عن الرضا لا يبين منه هذا، بل هو يعرض له ضمن «المقامات» وكأنه واحد منها.

ثم إننا نجد في حلية الأولياء وقد ذكرنا هذا النص نقلاً عن سائل يسأله: فكيف السبيل إلى مقام الرضا؟

ويجيب المحاسبي على السؤال بإيضاح السبيل دون أن يفهم كون الرضا مقاماً.

(١) الهجویری كشف المحجوب، ترجمه بيكولسون ص ١٨٠

المحبة

إن فكرة المحبة بين الله والعباد ليست بالفكرة الغريبة عن الإسلام، بل إن لكثير من الآيات القرآنية تحدث عن محبة الله لعباده ومحبة عباده له.

مثال ذلك:

﴿يَسْأَلُهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ، فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، أَدْلَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ عِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ، يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

وقوله سبحانه:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا، وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾^(٢).

ونعتقد أنه من هذه الآيات وغيرها، نبع مفهوم الحب الإلهي لدى صوفية الإسلام

ويقول المحاسبي بأن محبة العبد لله أصلها في محبة الله للعبد، ولا نجد تعبيراً عن فكر المحاسبي في هذا المجال خيراً من حديثه في «مصر في المحبة» الذي أورده أبويعيم الأصفهاني في «حبة الأولياء»، يقول المحاسبي:

(٢) بقرة آية: ١٦٥

(١) المائدة آية: ٥٤

إن أول المحبة الطاعة وهي مترعة من حب السيد عز وجل، إذ كان هو المبدئ بها، وذلك أنه عرفهم نفسه، ودلهم على طاعته، وتحبب إليهم على غناه عنهم، فحصل المحبة له ودائع في قلوب محبيه، ثم أليسهم النور الساطع في أفاضلهم من شدة نور محبته في قلوبهم، فلما فعل ذلك بهم عرضهم سروراً بهم على ملائكته، حتى أحبهم الذين أوصاهم لسكن أطباق سمواته، نشر لهم الذكر الرفيع عن حقيقته، قبل أن يخضعهم مدحهم، وقبل أن يمدوهم شكرهم، لعمدته السابق فهم أنه يبلعهم ما كتب لهم، وأحضر به عنهم، ثم أخرجهم إلى حقيقته وقد استأثر بقلوبهم عبيهم، ثم رد أيدان العلماء إلى الخليفة، وقد أودع قلوبهم خزائن الغيوب، فهي سحابة مواصلة المحبوب، فلما أراد أن يحييهم ويحيى الخليفة بهم أسلم لهم همهم، ثم أجلسهم على كرسي أهل المعرفة فاستخرجوا من المعرفة المعرفة بالأدواء، ونظروا بنور معرفته إلى منابت الدواء، ثم عرفهم من أين يبيع الدواء ويم يستعينون على علاج قلوبهم، ثم أمرهم بإصلاح الأوجاع، وأوعر إليهم في الرفق عند المطالبات، وضمن لهم إجابة دعائهم عند طلب الحاجات، نادى بخطرات التلبية من عقولهم في أسماع قلوبهم، أنه تبارك وتعالى يقول:

يا معشر لأدلاء، من أتاكم عليلاً من فقدى قدوه، وفاراً من خدمي فردوه وناسياً لأيادي ونعمائي فذكروه

لكم حاطبت لأني حلِيم، ولحلِيم لا يسخدم إلا الخُلَاء، ولا يبيع لمحبة للباطلين صنّاً بما استأثر منها، إذ كانت منه وبه تكون.

فالحب لله هو الحب المحكم الرصيد، وهو دوام الذكر بالقلب واللسان لله؛ وشدة الأنس بالله، وقطع كل ساعل سفل عن الله، وبتكار النعم والأيادي، وذلك أن من عرف الله بالجوهر والكرم والإحسان، اعتقد الحب له، إذ عرفه بذلك أنه عرفه بنعمه وهدهد بدينه، ولم يخلق في الأرض شيئاً

إلا وهو مسحر له وهو أكرم عليه منه، فإذا أعظم انعرفه واستقر،
 هاج الخوف من الله، وثبت الرجاء.

ويقول المحاسبي في ماهية هذه المحبة:

«فالمحب لله في نفسه استناره القلب بالفرح لقربه من حبه، فإذا
 اسرار لقلب بالفرح اسلند خلوة يذكر حبيبه

فالمحب هائج غائب، والخوف لقبه لازم لا هائج إلا أنه قد ماتت منه
 شهوة كل معصية، وهدي لأركان شدة الخوف، وحل الأنس بقلبه لله
 فعلاية الأسى استنهل كل أحد سوى الله، فإذا ألف الخلوة بمناجاة حبيبه
 استغرقت خلوة المناجاة العقل كله حتى لا يقدر أن يعقل الدنيا
 وما فيها^(١)».

ويقول:

«وذلك أن الحب إذا ثبت في قلب عبد لم يكن فيه فضل لذكر نس
 ولا جان، ولا جنة ولا نار، ولا شيء إلا ذكر الحب وذكر أباديه
 وكرمه».

ثم يقول:

«الشوق عندى سراح نور من نور لمحبة غير أنه رائد على نور المحبة
 الأصلية والمحبة الأصلية عنده، هي حب الإيمان».

ويقول:

«وإنما يعرف المحب بأحلافه وكثرة لفوائد حتى يجربها الله على لسانه
 يحسن الدلالة عليه، وما يوحى، إلى قلبه، فكل ثبت أصول القوائد في
 قلبه نطق اللسان بفروعها، فالقوائد من الله واصله إلى قلوب محبيه، فأبين

شواهد المحبة لله شدة التحول بدوام الفكر، وطول السهر بسخاء الأنس على الأنس بالطاعة، وشدة المبادرة خوف المعالجة والنطق بالمحبة على قدر نور لفائدة، فلذلك قيل: إن علامة الحب لله حلول الفوائد من الله يقبوع من اختصه الله بمحبته»^(١) اهـ
ويقول أيضاً:

«أقرب ما يتقرب به العبد إلى الله كل عمل عمله بالإخلاص لله والإشفاق عليه من عدوه.

وإن قل لك فهو القبول إذا كان على حقيقة التقوى معمول، كما قال على بن أبي طالب، عمل صانع دائم مع لتقوى وإن قل، وكف يقل ما يتقبل، وذلك أن المحب لله هو على الركن الأعظم من الإيمان الذي يمكن أن يسكمه العبد ولا يحسن به ادعاؤه، وهو ركن المعرفة بالعم، وإظهار الشكر للنعم»^(٢).

ويقول:

«المنقطع إلى الله عز وجل عن خلقه طاهره طاهر أهل الدنيا وباطنه باطن المجدين الهائين بهم، لأنه صرف قلبه إلى ربه فاسعمل بذكر رصاه عن ذكر رصاه خلقه قطاب في الدنيا عيشه، وبطهر من انامه، وأنزل الخلق بالمنزلة التي أنزلهم بهم عبيد إذ لا يملكون له صراً ولا سعة، فأنزل رضاء الله على رصاهم، فسخت نفسه بطلب رضى الله، وإن سخط جميع خلق الله يرضى الله بسخط كل أحد، ولا يسخط الله برضى أحد من خلقه، فعلاكم أمره في جميع ذلك ترك الاشتغال والتثبت المراقبة الرفيع عليه»^(٣)

(٣) الحلية ج ١٠ ص ٨٦

(١) الحلية ج ١٠ ص ٧٩

(٢) الحلية ج ١٠ ص ٨٤

ويقول:

«علامة أهل الصدق من المحبين وغاية أملهم في الدنيا أن تصبح أبدانهم على الدوام، وأن تخصص لهم النسات من قسادهاء، ومنهم من يريد في الدنيا شواهد الكرامات عند سرعة الإجابة، وعناية أمدهم في الآخرة أن يسعهم بنظر، إليهم، فنعيشها الإسفار وكشف الحجاب عن لا يجارون في رؤيته، والله ليعمل ذلك بهم إذا استزارهم إليه»^(١)

ولكن هناك ما يهدد اسوار في قلب العبد بالانطفاء:

«وإنما يهيج الشوق في القلب من نور الوداد، فإذا أسرح الله ذلك اسراج في قلب عبد من عباده لم يتوهج في فجاج القلب إلا استضاء به، وليس يطفئ ذلك السراج إلا النظر إلى لأعمال بعين الأمان، فإذا أمس على لعمل من عباده لم يجد لإظهاره وحشة السلب فيجعل العجب وتسرد النفس مع الدعوى، ويحل المعويات من المولى، وحقيق على من أودعه الله ودعة من حبه فدفع عار نفسه إلى سلطان الامان يسرع به السلب إلى الافتقار»^(٢)

والخوف والرجاء يجب أن يلازما قلب المحب على الدوام خوف لماذا ؟ ورجاء لماذا ؟

يقول المحاسبي.

خوفاً لما ضيعوا في سالف الأيام لارماً لقلوبهم، ثم خوفاً ثابتاً لا يفارني قلوب المحبين خوفاً أن يسلبوا النعم إذا ضيعوا اشكر عن ما أفادهم، فإذا غنك الخوف من قلوبهم، وأشرقت نفوسهم عن حمل تقوُّط عنهم،

(١) الخلية ج ١٠ ص ٨٠

(٢) الخلية ج ١٠ ص ٧٨

هاج الرحاء بذكر سعة الرحمة من الله، فرجاء المحبين تحقيق، وقربانهم
الوسائل، فهم لا يسأمون من خدمته، ولا ينزلون في جميع أمورهم إلا عند
أمره، لمعرفةهم به أنه قد تكفل لهم بحسن النظر^(١)».

موت المحاسبي

قال المحاسبي ساعة موته لمن حوله:
«إن رأيت ما أحببت بسمت لكم. وإن رأيت ما لا أحب وجدتموه على وجهي».

وقال رجل ممن شهدوا موته:
«رأيتَه يبتسم ثم يموت»^(١).

(١) الخطيب البغدادي: تزيح بغداد، ج ٨ ص ٢١١ - ٢١٨

خاتمة

نود أن نعرض هنا للمسائل العامة التي أدى بحثنا هذا إلى تصحيح أو
إصاعة جديدة لبعض جوانبها.
وأولى هذه المسائل تتعلق بالفرق بين الصوف الإسلامي والتصوف
المسيحي.

ويتحدث الأستاذ باستيد R. Bastide عن هذا الأمر في مؤلفه «مشاكل
الحياة الصوفية» *Problemes de la vie Mystique*

والأستاذ باسنيو لم يعكف على دراسة التصوف الإسلامي دراسة
مباشرة متعمقة. غير أن الآراء التي يقدمها في حرافة لن تعمم أن تجد
طريقها لتأثير على قراء غير المخصصين. فاندولف يقول في معرض
الحديث عن نظرية موريزيه Meurizier التي يقرر أن لرهو نتج ألياً عن
ضعف عضوي معين:

«لا شك أن هذه النظرية صحيحة فيما يتعلق بالأسكل الدنيا من
التصوف وهي صحيحة إلى حد ما بالنسبة للتصوف الهندي وللتصوف
الإسلامي». ثم يستطرد شارحاً فيقول:

«أما المسيحي فهو يحذر، على حد سواء؛ جامبي الإسراف من نعمة أو
ضعف وينبغي بحاشي الخلط بين التفاني في التأمل وبوبة الضعف من
الجوع، وما كنت القدسه برياً ترى من راهباتها هراً لا كانت تجرهن
على الازدياد من الطعام، فاسىء الذي يجب تحنيه لبس هو العدم»

الصحيح ولكنه الشره. والشئ الذى يجب النهى عنه ليس الصوم الشافى ولكنه الكسل»

ونريد أن نوضح هنا أن دفاع الأستاذ باستيد عن التصوف المسيحى أمام نظرية موريريه، يكاد يكون مطابقاً بفكر المحاسبى الذى لا يختلف فى هذا المجال عن فكر القدسة نيريزا فيما يتعلق بصحة الإنسان لعامة، فقد كان هذا الصوفى ينصح بالنوم عند التعب، وينهى عن الصوم عند الضعف، ويوصى بأن يأخذ كل إنسان حاجته من الطعام بـدى يلائم تكوينه البشرى، وكان يقول بأن الدعوة إلى الأكثر من الأكل ذنب، ولكنه يقول بأن الدعوة إلى الجوع هى أيضاً ذنب، وهو يتحدث فى كتاباته عن النتائج الضارة التى ينتهى إليها الجوع، وتؤكد أن نظرية المحاسبى كانت تجنب لشره لا لهى عن لطعام القوى، ولابعاد عن الكسل لا رفض الصوم الشافى.



يرى الكثير من المؤلفين أن فكرة وحدة الوجود مستشبهة بين غائب الصوفية؛ ولكن ادعاءهم هذا لا يعتمد على تحقيق دقيق للأمر، فالقيس لامس Lammens مثلاً - فى كتابه «الإسلام» - يذكر لأبطاكي، وبشر الحافى، والمحاسبى، وسرى السقطى، والترمذى، وأما يريد البسطامى، ويقول: إن نظرياتهم تـؤدى إلى فكرة وحدة الوجود ولا نريد هنا أن نتناقص ما يراه بالنسبة إلى كل من الصوفية المذكورين الذين كانوا بعيدين كل البعد عن وحدة الوجود، ونكتفى بأن تنبه الفارئ إلى ما فصلناه فيما سبق من أن المحاسبى كان يعارض فى صرامة، هذه النظرية وينتهيها فى عنقه عفيف.



خصص جولد ترزهر Goldziner في كتابه «عقيدة الإسلام وشريعته
فصلاً للتصوف الإسلامي».

والآراء المقدمة في الفصل المذكور لا تعتمد على بحث واف، بل هي في
عقائدنا خاطئة في غالب ما تذهب إليه ولعل سبب هذا ما نرجحه من
تبني جولد ترزهر لأفكار سبيع ما قبل الدراسة العميقة بشأن التصوف
الإسلامي أراد تطبيقها - دون تمييز - على كل أهل التصوف الإسلامي.

هكذا ما قلنا صفحات هذا الفصل وحدا منهجه يتلخص في تناول
شخصية صوفية معينة تحقق في بعض نواحي مذاهبها ما يرغب المؤلف
بتباته ويخرج من تحليل بعض جوابها إلى تأكيد النظرية التي يبيعها، ثم
هو يحذر شخصيه أخرى يخرج من دراستها إلى رأي تال، ومجموع النتائج
يطلقه في جرأة على الجميع مثال ذلك أنه ابتداء من نصوص لسفيق -
دون أن يذكر اسمه - بنطبق إلى تعميم مذهب التوكل. ثم هو يسجد من
جلال لدين ومن ابن لقارص مطيه لمظريات أخرى يقدمها على أنها من
علائم الفكر الصوفي عامة، ولو اتبعنا مسيح جولد ترزهر هذا لاستطعنا في
غير ما عام جمع نصوص وفيرة تقول عكس ما يدعيه.

وفيما يتعلق بأرائه الخاصة بالتأثيرات الخارجية على التصوف الإسلامي،
نكتفي بإرشاد القارئ إلى كتاب الأستاذ ماسينيون Maseignon،
«دراسات».

ونشير بوجه خاص إلى مسألة لتأثيرات الهندية التي أوضح الأساذ
ماسينيون مداها المحدود الذي لم يكن له وجود في القرن الرابع الهجري
ونريد هنا أن عرض لما يصفه جولد ترزهر بـ «الفكرة المميرة التي
تتجلى بوضوح في لتصوف خلال هذا العهد القديم» وهي «اسوكل».

والمؤلف يرى أن «التوكل» يمثل الموقف الراعم بأن الله في الله تتعارض مع العمل، بل إن العمل ديب، ويمكن القول بأن رأى حول تزهر رأى خاطئ إذ ألقى على علالة تعميم في المصوب الإسلامى، ولقد عرضنا فيما سبق كيف أن المحاسبي يتقد شقيقاً في التوكل، ثم كيف أنه لم يكن ينظر إلى التوكل أو حتى إلى التفويض على أنها عكس أن معوقا الإنسان عن السعى للرزق، بل كان يقول بوجوب السعى على الإنسان

ولم يكن بالصوى الوحيد الذى يدعو إلى هذا، فبحابه وعلى نفس الطريق نرى الترمذى والنسرى والثورى وغيرهم كثيرين، وإذا أردنا مثلاً من عصر لاحق فأمامنا ابن عطاء الله السكندرى.

وهناك أمر هام فات حول تزهر وهو بكذب بظنية جولد تزهر تكذيباً صارخاً فيما يتعلق بشقيق نفسه، وذلك أن شقيقاً كان مجاهداً من كبار المجاهدين، وكان لا يخرج من موقعه إلا إلى موقعه، فكيف يمكن أن يقال إن شقيقاً يرى تعارضاً بين بين التوكل والعمل؟

وهناك مسائل أخرى خاصة بالتصوف الإسلامى يتعرض لها جولد تزهر ويتهج فيها نفس الهج من التعميم، مثال ذلك التفسير الباطنى للنصوص، وتؤكد أن المحاسبي لم ينحط قط إلى هذا التفسير ولا يجد له أثراً في مؤلفاته.



عرضنا في فصول كتبنا هذه لأسباب لتي أدت إلى رد الفعل لصوى في عصر المحاسبي، ورأينا أنها كانت تتعلق بالمجتمع وظروعه ولكننا يساً من ناحية أخرى أن المحاسبي كان مستملاً صادق الإسلام، بل كان من الذين يحرصون على لنعلى بالمصوص وبالتعاليم الأخلاقية لتي فرصها

الدين. وفي هذا المجال، نؤيد كل التأييد رأى الأساذ ماسسيون إذ يقول في كتابه «دراسات».

«من سمات المحاسبي المميزة أنه وهو امباح العالم بكل أسرار المسائل الفقهية - ينطلق في فكره من تصور لتقوى بالغ البساطة بل هو - في «كتاب التوهم» يأخذ بأفكار الحشرية في نهاية العام ومصير الإنسان...».

والإسلام الذي يتعلق به لمحاسبي في كل أمر ولكل أمر يشمل سائر جوانب نشاط المجتمع ويحتويها جميعاً سواء في مجال السياسة أو التشريع أو الأخلاق، أو العلم، فهو يسيطر على كل ما ظهر من هذا المجتمع في حيز الحياة.

فإذا قلنا من ناحية بأن الأسباب التي تؤدي إلى رد الفعل الصوفي سعلو بالظروف الاجتماعية، ثم قلنا من ناحية أخرى بأن آراء ومواقف الصوفي الذي اتخذناه موضع بحثنا تحدده وتحدده ظروف مجتمعه، فهل يترب على ذلك أن ننتهي إلى القول بأن لتصوف مسألة يختص بها عدم لاحتجاج دون سواء؟

سوف نعرض لهذا فيما بعد:

تحدثنا أيضاً عن لتأثيرات الأجنبية، وأكدنا أن لا وجود لها بالنسبة إلى المحاسبي، ومنهجه في لتفسير وتعلقه الشديد بالنصوص لا يسمحان بالقول بغير ذلك

وقد يسأل سائل: ألم تكن هناك تأثيرات أجنبية على أهل التصوف الإسلامي؟ نحن لا نفى ذلك، فمن المحتمل أن بعض المفكرين تأثروا بالتأثيرات الخارجية، كما لا شك أنهم بدورهم أثروا في هذه التيارات، ولكن

لمادا الرغبة الملحة في ربط سائر الصوفية اسلمين بها، وإطلاقها عليهم عامة، بينما المنطق والواقع يدعوان إلى كثير من الاحتياط والتحذير؟

في عصر المحاسبي كانت لكتب لأحنفية المترجمه وهيرة ولكن في هذا العصر عاش رجال من أمثال مالك وابن حنبل لا يمكن بأي حال من الأحوال القول بوقوعهم تحت تأثيرات خارجية

غير أن بعض لكتاب يريدون قسراً أن يثبتوا تأثير التصوف المسيحي على متصوفي الإسلام، وعلى رأس هؤلاء القسيس لا مس الذي لا يأبه في سبيل تحقيق غايته بأي نص أو سند صحيح، وهو يكاد يقول بأن العراقي كان مسيحياً.

وهناك محققون ومستشرقون ما رآوا إلى عهد قريب يدقشون مثل هذه الآراء الهريكة بالرغم مما أوضحه الأساد ماسينيون في «دراسته» في جلاء: أن القرآن هو منبع التصوف الإسلامي سواء في عهده الأول أو في مختلف مراحله تطوره.

ونعتقد أن لمسألة لم تعرض للأمر عرضاً صحيحاً وهذا سبب الحدس الكثير الذي لم يأت بنتائج يقيمة، فالمؤمنون لا يدرسون شخصيه صوفية بالذات لمعرفة ما إذا كانت وقعت تحت تأثيرات أجنبية أم لا، بل هم في غالب الأمر «يسحبون» شخصيه يرون أنها قابله لأن تكون سداً لنظرياتهم ومنها ينطلقون في التعميم والتأكيد دون مبالاة بما قد يعترض رأيهم الذي تشبعوا به من قبل ثم يعممون الأمر وينطلقون بالحكم، لذلك تؤمن بأن لمسألة ليست هي، «هل هناك تأثيرات أجنبية على التصوف الإسلامي، وما هي هذه التأثيرات؟».

لكن: «هل كانت هناك تأثيرات على هذا أو ذلك من أهل التصوف، وما مداها؟».

ذلك هو الوضع لصحيح للمسألة ولن ينكر أحد أن بعض المتصوفين المسلمين وقع تحت تأثيرات خارجية شكّيه تختلف في مصادرها باختلاف كل شخصية.

أجل كانت هناك تأثيرات خارجية على فلاسح و فلاس من المتصوفين؛ قلة قليلة تأثرت، لا في الجوهر وإنما في الأشكال

ولكن الأمر لا يجب أن يقف عند هذا الحد في البحث و لتقصي، ويريد أن يخرج إلى رأى آخر، ألا وهو أن المسألة نفسها - سواء في صيغها التي عارضها أو في تلك التي قدمناها - مسألة تعتبر خاطئة لا أساس لها إن أريد بها وصف الصوفية باعتبارهم أهل تصوف، فالحابس المشترك لدى المتصوفين جميعاً غير قابل بطبيعته لأي تأثير.

ونحن لا نجادل في أن رجالاً قد تأثروا بتيارات خارجية معينة، غير أنهم تأثروا بها كمؤلفين أصحاب نظريات يتحدثون إلى أهل عصرهم، لا باعتبارهم متصوفين.

وهذا العصر الغير قابل لأي تأثير خارجي، هذا العصر الذي يشترك فيه المتصوفون جميعاً، هو الذي سوف نحاول تحديده وتعريفه، أي أننا نضع على بساط البحث السؤال التالي. ما هو تعريف المصوف؟

* * *

قد يجول بالخاطر بادئ ذي بدء أن التصوف هو القول بوحدة الوجود

وقد يرد ذكر « لجدب » (Exface) ؟ على أنه الحالة الوجدانية التي يعبّر عنها الكثيرون جوهر التصوف، ولا نرى حيراً من حديث ديلاكروا H. Dela croix سوقه هنا لتحجيج هذه الفكرة :

« طى أغلب علماء النفس أن هذه الحالة هي المحيرة للمتصوفين المسيحيين، يعودون إذ يخرجون منها إلى وضع عامة المسيحيين »
 وأمن بعض علماء الدين على هذا الرأي ولكنه رأى يتعارض في الواقع لأصالة كبار المتصوفين لمسيحيين، هؤلاء مدين استبدوا الجذب (Exface)، هذا الحار المتقطع الذي لا يدوم يتصوف دائم متناقص، وإن تبدل الشخصية الذي يصلور إليه لا يمكن أن يثنى إلا تدريجياً في مراحل يعتبر الانجذاب أدناها،

ورأى آخرون ضعف التعريفات التي سحاً إلى (نظرية في الإله، أو إلى الانجذاب) فراحوا يحاولون وصف التصوف بأنه « منهج حياة ».
 وقال بهذا مؤرخون للتصوف، كما قال به بعض المتصوفين أنفسهم فالتورى مثلاً يقرر:

« ليس التصوف رسوماً ولا علوماً ولكنه أخلاق ». ولكن هناك سؤال يترتب بالضرورة على هذا التعريف، وهو: « أى منهج من مناهج الحياة؟ »
 فالاختلافات كثيرة ولا يستهان بها بين مناهج حياة المتصوفين؛ ومرجع هذه الاختلافات في غالب الأمر تباين الليثات والأديان، فالزواج مثلاً عند المسلمين لا يخل بحب الله، وجن متصوفى الإسلام كانت لهم سماء ودربة، وتناول الخمر وأكل وأكل لحم الخنزير يحرمها الإسلام، بينما يرى المسيحيون أن شرب الخمر في طقوس القربان وسيلة إلى التقرب من المسيح، كذلك استخدم الطبيب عند أنفء المسلمين لا يدرك معراه الحقيقي بعض الباحثين، لغربيين - ومنهم جودت ترير في حديثه عن التهوى وأمثلة اختلاف مناهج الحياة عديدة، لذلك لا يمكن قصر التعريف للتصوف على أنه « منهج حياة ».

وإذن فلا تلمس لدى أهل التصوف وحدة في النظريات ولا تشابهاً في

السلوك. غير أننا ستخلص من حديث الجميع وسلوكهم أن في سب كل منهم صراعاً... إنه صراع نتج عن سعيهم إلى منع الغرائز من إشباع شهواتها، وعن تطلّعهم إلى التتره عن هذه الدنيا، هناك دائماً صراع بين «الروح» - مبدأ الخير في الإنسان - وبين «النفس» - مبدأ الشرقة. وكتاب «بدأ من أناب إلى الله» لمحاسبي يحلّى با هذا الصراع المأسوي الذي لا ينتهي في أعماق البشر وكثيراً ما يحدثنا المحاسبي عنه في مؤلفاته، وهو العاتل:

«خير الناس معرفة بالله أتبعهم قلباً وأكثرهم هماً». وليس المحاسبي بالمتصوف الوحيد الذي يحدثنا عن هذا الصراع، ولكنا نتخذه هنا مثالا لمتصوف الإسلامى.

فإذا ما نحوسا إلى المتصوف المسيحى لوحدنا القديسة تريزا لا تهدأ من الصراع الداخلى ولا تجد اراحة ويلسم القلق إلا في لرؤى التى بأنبياء، والقديس بولس أيضاً يسوء كاهله بحدة الشهوات فيستصرح في عذابه:

«من يخلصنى من جسد الأعوات هذا؟».

ولا عجب أن يكون الصراع أعنف وأشدّ صراوة في المتصوف اهدى وهو الذى يبدأ بالقضاء على كل الشهوات.

هذا الصراع الداخلى هو صميم ما سمي بالمقامات الصوفية، تلك المقامات التى لبست في الحقيقة سوى مواقف معينة بانسبة إلى الله والقدر والعالم، العرائز تطلب إشباع شهواتها، ويكن في إرضائها ارتكاب للذنوب

لذلك وحب بادئ ذي بدء اتحاد موقف حاسم فيه يتعلق بالحلال والحرام. وهذا هو الورع - أول المراحل الى يمر بها المتصوفون المسدعون بعد التوبة، ولكن الإنسان غير مزمع من الخطأ وعد يصل به الأمر إلى محلل الحرام في كل شيء. ويلهب حينئذ الصراع ويشند عبثاً: أهذا حلال؟

أذاك حرام؟ كيف السبيل إلى الدين؟ وفي مثل عصره الفاسد وكل عصر إن عاش فيه صوفي فهو في بينه قسد - في مثل هذا العصر لابد من الوصول إليها غلا الثمن إلى «لزهد في الدنيا».

وهنا نجد سؤالاً يفرض نفسه علينا «وما هو الزهد؟ أليس هو أيضاً موقفاً معيناً يتخذ تجاه متاع الدنيا؟».

وهكذا سهى إلى أن ما سمي بـ «المقامات الصوفية» ليس في الواقع سوى مواقف تنتج عن الصراع المذكور.

ثم إن هذا الصراع لا يقتصر على فترة محدودة من حياة الصوفي، إنه صراع دائم، فالكمال غير محدود ومن ظن أنه وصل إليه وحد نفسه أمام درجة أرفع منه يقول الحدث اشرف «لو كان يمان عيسى أقوى، لطار في السماء بدلاً من أن يمشي على الماء» وغواثر لإسمان لا يمكن الفصاء عليها تمام القصاء؛ فإن اهرمت اسكابت حتى تحدد فرصة للتوتس، هذا ما يقول به المحاسبي، أما القديسة تريزا فتعلن أن الشيطان دائم الكيد للروح الساعية إلى الله حتى يعيدها إلى أدنى المدرج التي بدأت منها سعيها.

وإن الشيء الذي يميز صراع الصوفي من غيره هو الهدف الذي يبعيه، هذا الهدف هو النجاة، ولا يجادل أحد في أن مفهوم النجاة يختلف باختلاف الأديان التي ينتمي إليها المتصوفون، وبخلاف الدرجات التي يصل إليها هؤلاء المتصوفون من الثقافة والعلم، فهو قد يكون بالنسبة إلى البعض فإن في الحب الإلهي، بينما يجده بالنسبة إلى غيرهم في مرضاه الله، ولكن وحدة الهدف تبهي عبر المتغيرات - لدرجة

وهناك صور مختلفة للصراع الصوفي.

فإذا ما شتدت الشهوات وقويت الغرائز ظهر النمط الذي يرسه لنا

أنا تول فرانس A. France في باعضو شخصيه Pannuce. ويريد تأكيد أن باهنوس - قبل انهزامه وسيطرة عرائره عليه - كان يسير على هج صوفي، تمامًا كالصانع لذي يتحول إلى فلاح فلا يلعب هذا أنه كان من قبل صانعًا، وفي بعض الأحوال الأخرى يؤدي هذا الصراع إلى الجنون، وحالة الجنون لا يمكن أن يلعب مع ذلك الصفة السابقة لها. فالفيلسوف الذي يفقد صوابه لا ينفك يوصف بأنه كان فيلسوفًا.

فهل سمة التصوف اميزة إذن هي أنه صراع؟
لسنا نحن وحدنا بالدين يرون هذا الرأي، بل نعتز بأنه أيضا رأى أحد كبار متصوفي الإسلام وهو السهروردي صاحب: «عوارف المعارف»
والسهروردي لا ينظر إليه على أنه تعريف معين يسرده بين مختلف ما قيل في تعريف التصوف ولكنه يعتبره شاملا لكل ما قيل.

وإلى «القارئ» نص حديث السهروردي:
وأقوال المشايخ في ماهية التصوف تزيد على ألف قول، ويطول نقلها، ونذكر ضابطًا يجمع جمل معانيها فإن الألفاظ وإن اختلفت متقاربة المعنى، فنقول:

الصوفي: هو الذي يكون دائم التصفية لا يزال يصفى الأوقات عن شوب الأكدار بتصفية القلب عن شوائب النفس، ويعبده على هذه التصفية دوام افتقاره إلى مولاه، فيدوام الافتقار يبقى من الكدر، وكلما تحركت النفس وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته النافذة، وهرمها إلى ربه..

عبد رام تصفيته جميعته، ويحركه نفسه تفرقة وكدره، فهو قائم بربه على قلبه وقائم يقبده عن نفسه، قال الله تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ

بِالْفِسْطِ^(١) وهذه القوامية لله على النفس هي التحقق بالتصوف. قال بعضهم: التصوف كله اضطراب، فإد وقع السكون فلا تصوف. والسرفيه: أن الروح مجذوبة إلى الحضرة الإلهية، يعنى أن روح الصوفى متطلعة متحنّية إلى مواطن القرب، ولتنفس برصفها رسوب إلى عالمها، وانقلاب على عقبها.

ولابد للصوفى من دوام الحركة بدوام الافتقار، ودوام الفرار، وحمس التنقذ لمواقع إصابات النفس، ومن وقف على هذا المعنى يجد في معنى التصوف جميع المتفرق في الإشارات^(٢)

ولكن ما جدوى هذا التعريف للتصوف؟ إنه يوفق بين مفهومين في التصوف: أولهما: القائل بأن الصوف ليس سوى نوع من الفردية المتصاعدة وثانيهما: المهموم لاجتماعي للتصوف. فالصراع الصوفي صراع مردي، لا حدال في ذلك بيد أن الإنسان الذي شور في داحنه هذا الصراع يبقى بعد ذلك خاضعاً للمؤثرات الدينية والاجتماعية باعتباره صاحب عقيدة ومذهب^(٣).

(١) المائة: ٨.

(٢) عوارف المعارف ج ١ ص ٢٠٨

(٣) لقد كتب الدكتور عبدالمجيد محمود بعد ذلك بمسوات كليات مسقيفه عن التصوف وعن الصوفية، وسرته هذه الأبحاث في عدة كتب وكان البحث لدى كتبه في تعريف التصوف وشره في كتاب (اسقند من الضلال) الذي حققه وشره مع دراسات عن التصوف من أوفى الأبحاث وأدقها في هذا الشأن.

وبعد: فلعلنا بهذه الرسالة قد ألقينا الضوء على شخصية الصوفي
 الشهير: «المحاسبى» وأبرزنا جوانب فكره الرصين.
 والحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله
 وصحبه أجمعين.

محتويات الكتاب

الصفحة

مقدمة ٣

الباب الأول : المحاسبى

البيئة التى عاش فيها المحاسبى ٢٩
التأثيرات الأجنبية ٥٤
الأبحاث الخاصة بالمحاسبى ٦٤
منهجه فى التفسير ٩٢

الباب الثانى : فى العقيدة

مفهوم فكرة الله ١٠١
الله والعالم ١١١
موقف المحاسبى من الفرق ١٢٣
المحاسبى والمذاهب ١٢٧
الفرض والنقل ١٣٨
القيامة فى تصور المحاسبى ١٥٣

الباب الثالث : الأخلاق عند المحاسبى

النظرية الأخلاقية النفسية عند المحاسبى ١٦١
الطبيعة الإنسانية والنجاة ١٦٣

الصفحة

١٦٥	المرشد
١٦٨	الله والعمل الصالح
١٧٠	الخير
١٨٠	مراقبة الذات المحاسبة
١٨٤	مرتكب الذنوب والطريق النفساني إلى النجاة
٢٠٤	الرياء يحبط عمل الخير
٢١٤	عناصر الشر
٥٢٩	آفات النفس
٢٤٦	الغرة
٢٦٢	الحسب
٢٧٠	السلوك اليومي

الباب الرابع : نظرية الزهد والتصوف

٢٧٧	التوكل
٢٩٢	الورع
٢٩٥	الزهد
٣٠٩	التفويض
٣١٤	الرضا
٣١٧	المحبة
٣٢٣	موت المحاسبي
٣٢٤	الخاتمة

١٩٩٢ / ٨٧٩٩	رقم الإيداع
ISBN 977-02-3859-7	الترقيم الدولي

١ / ٩٠ / ١٧١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع. ٢٠٠٠)